قضايا الأمّة 3



نحنُ والآخَرُ

دراسة فقهية تأصيلية

أ. د. علي محيي الدين القره داغي



نحنُ والآخَرُ

ـ دراسة فقهية تأصيلية ـ

بقلم:

أ. د. علي محيى الدين القره داغي

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول بجامعة قطر
والخبير بمجمع الفقه الإسلامي، بمكة المكرمة، وجدة
وعضو المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث
وعضو مجلس الأمناء، والمكتب التنفيذي
ورئيس لجنة القضايا والأقليات الإسلامية بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

دراسة فقهية تأصيلية لبيان علاقة المسلم بغيره
في حالات السلم والحرب، والأقلية والأكثرية،
على ضوء الكتاب والسنة وفقه الميزان

من مشكاة القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ ﴾ (الممتحنة: 7 – 9)

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (سبأ: 24 – 25)

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۢ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64)

وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ (الكافرون: 1 – 6)

تقديم

ما نزل هذا الدين القويم إلا رحمة للعالمين، فهو جاء خطابا لكل الناس، يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، فيؤمن به من يؤمن عن اختيار، ويكفر به من يكفر عن اختيار أيضا دون أن يُكره عليه، وبذلك فسوف يؤول الأمر إلى فئتين من الناس، فئة تتخذ من الإسلام دينا، وفئة لا تكون كذلك فتتخذ أديانا أخرى أو تختار أن لا يكون لها دين.

وإذا كان المسلمون باختيارهم الإسلام يعتبرون أنفسهم قد اهتدوا إلى الحقّ، فإنّ الآخرين من غيرهم يبقون دوما مادة لدعوتهم إلى هذا الحق، فالصلة بهم هي صلة الأخوة في الإنسانية، وصلة التآزر على ما فيه خيرها، وليست بحال صلة عداوة إلا لمن سلك منهم مسلك الاعتداء؛ ولذلك فقد جاءت أحكام الدين تحدد طرق التعامل بين المسلمين وغيرهم، وهي أحكام تنبني على المشترك بين بني الإنسان، وتقوم في مجملها على السلم والتعاون، فإذا ما كان الاعتداء وأصبحت العلاقة علاقة حرب فإنّ أحكاما أخرى تضبط أيضا هذا الوضع، ولا تتركه مرسلا للشهوات.

ولكن التاريخ قديمه وحديثه نشبت فيه بين المسلمين وغيرهم ملابسات كثيرة، جرى فيها الواقع أحيانا بما لا يتماشى مع أحكام الشريعة، وقد تكون تلك الملابسات انتقلت أحيانا مما جرى به الواقع إلى ذات الأحكام فيما جرى به تقريرها من قِبل بعض المتعاطين للشأن الشرعي، فحدث بعض الخلط الذي يجافي الحقيقة الشرعية، وهو الأمر الذي يكون له ظهور بارز في تلك المنعرجات التي يتعرّض فيها المسلمون للاعتداء من قِبل غيرهم، وفي أوضاعنا الراهنة شيء من ذلك كثير سواء فيما يجري به الواقع أو فيما تقرّر به بعض الأحكام.

إننا نشهد اليوم خلطا كبيرا في علاقة المسلمين (نحن) بغيرهم (الآخر)، وهو خلط يتطرّف أحيانا ذات اليمين، فيذهب البعض إلى إزالة الفروق وطمس الهوية ليكون الناس جميعا متساوين في الانتماء الذي قد يسمّى بالديانة الإنسانية، وقد يسمّى بالديانة الإبراهيمية، وقد يسمّى بأسماء أخرى كثيرة، ويتطرّف أحيانا ذات الشمال، فيذهب البعض إلى الوقوف موقف العداء المبدئي لغير المسلمين معتدين كانوا أو غير معتدين، ويتمثّل كل من هذا وذاك في مواقف وتصرّفات توجهها قناعات وتصورات لا تمتّ إلى حقيقة الدين بأصل، وإنما هي متأتّية في الغالب من غزو ثقافي أو من مواقف وتصرفات عدائية يمارسها أقوام وأمم ودول غير إسلامية مع المسلمين، فيكون لها تأثير على بعضهم على سبيل التفسّخ الثقافي أو على سبيل ردّ الفعل، ومن هذا وذاك يلحق ضرر كبير بالمسلمين خاصة وبالعلاقات الإنسانية عامة، وهو الأمر الذي يستدعي تصحيحا يعود بهذه المعادلة إلى وضعها الشرعي الأصيل.

وفي هذا السياق يأتي هذا العدد الثالث من سلسلة (قضايا الأمة) بعنوان "نحن والآخر" من تأليف الشيخ الدكتور على محيي الدين القره داغي، يعالج هذه القضية المهمة من قضايا الأمة فيما تتعرض له علاقاتها مع غير المسلمين منذ زمن وبالأخصّ في هذه الأيام من ملابسات يحكمها اعتداءات عليها من قِبل بعض منهم، وما ترتب على ذلك من ردود فعل تجاوزت الردود العملية إلى تقريرات فقهية يجانبها الصواب في بعض الأحيان، فتؤدي هي بدورها إلى ملابسات أخرى في الواقع، وهو الأمر الذي يستدعي معالجة تأصيلية شرعية تردّ الأمر إلى نصابه الصحيح، وهو الدور الذي أداه فيما نقدّر هذا الكتاب.

وبما أنّ التعامل مع الآخر يستدعي أول ما يستدعي ليكون تعاملا ناجحا تقوية الذات فقد افتتح الكتاب بما يجب أن يكون عليه أمر المسلمين من قوة ذاتية في العلاقة مع الآخرين، وحدة وتعاونا وأخذا بأسباب النهضة المادية والمعنوية. ثم يكون من ذلك الانطلاق إلى التعامل مع الآخر تأسيسا على الإيمان بالمساحة الواسعة المشتركة بين المسلمين وغيرهم، ما تعلق منها

بالمشترك الإنساني العام، وما تعلق بالمصالح المتبادلة والمنافع التي تحصل بالتعارف بين الشعوب والقبائل، وهو الإيمان الذي ما فتئت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تقرّره ليكون إيمانا للمسلم يهيّئه للإقبال على هذا الآخر إقبال اعتراف واحترام وتعاون من حيث المبدأ، ونحسب أنّ هذا المعنى قد تناوله الكتاب بالبيان بتفصيل غير معهود.

وبالإضافة إلى ما بُسط في الكتاب من تقرير واف لأحكام الشريعة التي تضبط علاقة المسلمين بغيرهم حال السلم وحال الحرب، فإنه قد جاءت فيه مقارنة ملفتة للانتباه بين السيرة الواقعية للمسلمين التي طُبقت فيها هذه القواعد بما يقترب من المثال كما تبيّن فيما حُفظ لغير المسلمين من حقوق وهم يعيشون في المجتمع الإسلامي، وبين السيرة الواقعية لأقوام من غير المسلمين في تعاملهم مع المسلمين حينما تيسرت لهم الغلبة عليهم فأصابوهم بالاضطهاد والنكال كما تبيّن في الأندلس وفي حركة الاستعمار، وكما يتبيّن اليوم فيما يُسلّط على المسلمين من ظلم من قِبل قوى الاستكبار العالمي. إنها مقارنة تبرز الوجه العملي لتعاليم الدين في هذا الشأن، ولعلها تقدّم درسا للعالم فيما ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين الأمم والشعوب، بين نحن والآخر.

وإذ تتجلى العلاقة بين الـ (نحن) و(الآخر) أبرز ما تتجلى في وجود المسلمين أقلية تعيش في مجتمع غير إسلامي، وذلك بما يمثله هذا الوجود من نقطة تماسّ حادّة بين الطرفين، وبما تتصف به العلاقة بينهما اليوم من قلق وريبة، فإن الكتاب وجّه عنايته إلى هذا الجزء من القضية، ومن أجمل ما ورد في هذا الصدد تلك الاستنتاجات التي استخرجها الباحث قواعدَ شرعية في تعامل المسلم مع المجتمع غير الإسلامي الذي يعيش فيه من أنموذجين هامين في هذا الشأن، هما أنموذج يوسف عليه السلام في تصرفه مع مجتمعه المصري، وأنموذج المهاجرين إلى الحبشة في تعاملهم مع المجتمع الذي هاجروا إليه، وهو ما يرقى بحق إلى أن يكون درسا شرعيا بليغا للـ (نحن) من المسلمين الذين يعيشون مع (الآخر) في المجتمعات غير الإسلامية.

هذا وإننا إذ نجزل الشكر لمن أسهم في هذه السلسة بالبحث ابتداء من فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي إلى فضيلة الشيخ فيصل مولوي إلى فضيلة الشيخ علي القره داغي، فإننا نهيب بالعلماء والباحثين والمفكرين أن يسهموا ببحوثهم في قضايا الأمة في إثراء هذه السلسلة لتواصل مسيرتها في تبصير المسلمين بقضاياهم مشاكلها وحلولها، فإن ذلك أحد واجبات العلماء، وبه يكون إن شاء الله النفع، وبه ترشد الأمة. والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق.

لجنة التأليف والترجمة

مقدمات

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين... وبعد

فإذا نظرنا إلى تاريخنا الحديث نجد أنه لا تمر فترة من الزمن إلاّ وقد وجهت إلى الإسلام مجموعة من التهم والافتراءات، وصوّب نحوه كثير من الشبهات، فمن شبهات نحو السنة المشرفة إلى شبهات نحو التشريع الإسلامي والأحكام التي تخص المرأة، والأسرة، والحدود والعقوبات، ولكن الشبهات في الأونة الأخيرة تركزت حول علاقة المسلم بالآخر، حيث يراد تشويه صورة الإسلام في سماحته وعدله ويسره وتعامله الأخلاقي الرائع مع غير المسلمين، حتى إنه يراد من هذه الحملة الشرسة ـ التي وراءها الصهاينة واليمين المسيحي المتصهين المتطرف وبعض المستشرقين ـ النيل من إسلام الرحمة، وإسلام الخير، وإسلام كرامة الإنسان ليصور الإسلام على أنه دين متوحش ليس فيه الرحمة ولا يعرف التعايش مع الغير، وإنما هو عبارة عن سيف صارم مسلط على أعناق الناس.

وقد ساعدهم على ذلك تصرفات بعض المتشددين من المسلمين أو المخترقين لبعض الجماعات الإسلامية الذين قدموا من خلال سلوكياتهم صوراً غير حضارية وغير مقبولة لدى الإسلام نفسه، بل تجاوزت حدود الكرامة الإنسانية، وبلغت الذروة في الوحشية.

ومن جانب آخر فإن هذه العلاقات التي اهتزت في معظمها خلال القرون الأخيرة، وشابها كثير من التنظير والتأصيل والتأطير نرى في أكثرها الإفراط أو التفريط، أو التبسيط والتعقيد، أو المبالغة والتهميش، وبعبارة دقيقة أثرت فيها العواطف والأهواء، وتغيرت حسب الأحوال والأجواء، والقوة والضعف، والعقيدة والطبع، واختلطت فيها الثوابت مع المتغيرات، والأصول مع الفروع، والنصوص مع التقاليد والأعراف وطبائع الشعوب.

لذلك أرى من الضروري التركيز على هذه العلاقات من خلال بيان قواعدها العامة دون الخوض في التفصيلات إلاّ بقدر ما هو ضروري وتحتاج إليه الفروع والجزئيات، حيث إن عدم تنظيم هذه العلاقات وإعطاء حقها يؤدي إلى الفوضى في التفكير والعمل، والخلل في فقه الميزان والموازنات.

ولذلك تصدى مجمع الفقه الإسلامي الدولي لبحث هذا الموضوع لدراسته وتأصيله وتقديمه إلى العالم أجمع ليبين للناس جميعاً الصورة الناصعة الجميلة للإسلام من خلال الكتاب الكريم وسيرة النبي العظيم ﷺ وخلفائه الراشدين، وما سطرته أقلام الفقهاء المجتهدين على مرّ العصور في حالة الحرب وحالة السلم على السواء. وكذلك تأتي عناية الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بهذا الموضوع بطبع هذا الكتاب ونشره في هذا الإطار المهم، انعكاسا لأهمية هذا الموضوع دراسة وتأصيلاً وتطبيقاً وتأثيراً في العلاقات.

ونحن إذ نكتب عن هذا الموضوع نتحدث بالتأصيل والتفصيل عن ستة محاور رئيسية وهي:

- المحور الأول: الطريق الصحيح للتعامل مع الآخر، حيث يمر عبر ذات متحدة قوية، وهذا يقتضي تفعيل المبادئ والقواعد الحاكمة في العلاقات الإسلامية.
- المحور الثاني: الأسس العقدية والفكرية في الإسلام التي تهيئ الجو المناسب للتعايش السلمي، والتحاور، وهي بمثابة المقدمات الممهدات التأصيلية لقبول الآخر
- المحور الثالث: علاقة المسلمين بغير المسلمين في حالة السلم.
- المحور الرابع: علاقتهم بغير المسلمين في حالة الحرب.
- المحور الخاس علاقة المسلمين (الأقلية) بالدولة غير الإسلامية التي يعيشون في ظلها.
- المحور السادس: نحن والغرب، صراع أم حوار ؟ تصادم أو تعايش ؟

وسيكون منهجنا قائماً على التركيز على المبادئ العامة التي تحكم هذه المحاور دون الخوض في التفاصيل والجزئيات إلاّ بالقدر الذي يبين هذه المبادئ ويوضحها ويؤصلها، معتمدين على الكتاب الكريم والسنة النبوية الثابتة، وعلى الاجماع، وما يناسب عصرنا من اجتهادات سابقة نيرة، مستخدمين في هذا البحث: فقه الميزان الذي توصلنا إليه من خلال دراسات معمقة بدأت قبل حوالي خمسة عشر عاماً.

وفي الختام أتضرع إلى الله تعالى أن يكسو عملي هذا ثوب الاخلاص، ويجعله سبباً لخلاصي، ويُجَمِّله بحلة القبول لأكون من المتقين، فهو سبحانه خير مسؤول وأكرم مأمول، وانه مولاي وحسبي فنعم المولى ونعم الوكيل

كتبه الفقير إلى ربه

علي بن محيي الدين القره داغي

الدوحة 1 شوال 1425هـ

التعريف بالعنوان: (نحن والآخر)

يقصد في هذا الكتاب بـ (نحن) المسلمون وبـ (الآخر) غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم، فهو لفظ واسع جداً، يطلق على كل ما يغايرك بأي شيء سواء كان في الذات، أم في الصفات، أم في المذهب، أم في القوم، أم القبيلة أم نحو ذلك، ولكن أردنا به هنا: غير المسلمين، ولا مشاحة في الاصطلاح، ولم نقل (الضد، أو العدّو) للاستشعار بأن الآخر ليس بالضرورة عدواً، أو ضداً بل يشترك معنا في بعض الأمور كما سيأتي، ولأن الآخر يشترك معنا في كونه أمة الدعوة، إذن فعلاقة الاسلام مع الجميع هو توصيل الرحمة إليهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)

لفظ الآخر في القرآن الكريم

استعمل القرآن الكريم لفظ (آخر) أو (الآخر) ـ بفتح الخاء ـ و(الآخرين) كثيراً، منها قوله تعالى في رؤيا الفتيين المسجونين مع يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ ﴾ (يوسف: 36) فالمقصود به غير الفتى الأول، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ (المائدة: 107) فالمقصود به شاهدان من غير المسلمين. فلفظ الآخر يقصد به في القرآن الكريم ما يقابل ما ذكر أولاً ويختلف معه بأي وجه خلاف، سواء كان شخصياً أم غيره.

سبب اختيار هذا المصطلح

اخترنا هذا المصطلح لأنه يشعر بالتكامل، والتنوع، والاختلاف الذي هو سنة من سنن الله تعالى التي تقضي بأنه لا بدّ من اختلاف الأديان والمذاهب والأفكار، كما أن الاختلاف طبيعي في عالم المادة والألوان، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: 48) فهذه الآية توجه المسلمين إلى الاستفادة من الاختلاف وتأمرهم بالاستباق والمسارعة في الخيرات.بل إن الله تعالى جعل الاختلاف في الملل والأديان والمذاهب سنة من سنن الله تعالى فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ (هود: 118-119)

منطلقنا في البحث

نتطلق في البحث من منهج الوسطية والاعتدال الجامع بين روح الاعتزاز بالاسلام ومبادئه وأحكامه وصلاحيته لكل زمان، وبين ضرورة الاستفادة من كل ما هو حكمة ونافع مهما كان مصدره، ومن الإيمان بأن هذا الدين هو رحمة وخير للناس أجمعين.
فنحن لسنا مع هؤلاء المتشددين الذين يرفضون الأخذ من الغرب أو الشرق مطلقاً، ولا مع العلمانيين الذين انصهروا في بوتقة ثقافة الغرب يدفعهم إلى ذلك الإحساس بالنقص، ولا مع الذين يبحثون عن ثقافة التبرير، والأشكال المتوافقة ولو كان ذلك بتكلف. وكذلك ننطلق من ثنائية الفهم، وشفعية الرؤية، وضرورة الوعي الشامل للأدوات والوسائل والمآلات.

فالمراد من البحث هو:

بيان العلاقات بين الطرفين في حالات السلم والحرب والمعاهدات على ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية العطرة، وسيرة الخلفاء الراشدين بقدر الإمكان، وما ذكره فقهاؤنا العظام بمختلف مدارسهم الفقهية.
ونحن نحاول ـ بإذن الله تعالى ـ أن نذكر أهم المبادئ التي تحكم هذه المسألة بشيء من التفصيل للمبادئ والقواعد العامة والتأصيل لأمهات المسائل مع الترجيح لما يرجحه الدليل دون التأثر بالماضي ولا بالواقع، منطلقين من الفعل وليس من رد الفعل لما نراه على الساحات الإسلامية وغير الإسلامية.
ولكن الطريق نحو الآخر يمّر عبر طريق الذات (أي الذات الإسلامية والعلاقات الإسلامية، الإسلامية) ومن هنا نذكر أهم المبادئ التي تحكم هذه العلاقات، لأن الذات إذا كانت غير موجودة أو غير متماسكة فلا تقاوم ولا تقدر على أن تقف أمام الآخر، ولا أن تحاوره حواراً عادلاً قادراً على كسب حقوقه، إذ كيف نستطيع (نحن) أن نقف أمام الآخر إذا لم نكن متحدين متماسكين أقوياء ؟ !!! فالله تعالى أمرنا أن نعد للحرب صفّا واحدا إن فرضت علينا، وأن ندخل الحرب صفا واحدا، وأن نقاوم صفا واحدا، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾ (الصف: 4)
فالعالم المادي لا يحترم إلاّ القوي القادر.

المحور الأول

قوّة الذات طريقا إلى الآخر

وقوةٍ الذات تتطلب تفعيل المبادئ والقواعد الآتية :

أولا ـ تفعيل قواعد القوة المعنوية ، والمادية (العلمية ، والفكرية ، والاقتصادية)

ثانياً ـ تفعيل "الأمة الواحدة" من خلال :

1- تفعيل الولاء والنصرة للمؤمنين
2- تفعيل قاعدة الاخوة الإيمانية
3- تفعيل قاعدة الحقوق المتقابلة
4- تفعيل قاعدة المساواة
5- تفعيل قاعدة العدل
6- تفعيل قاعدة وجوب الوحدة وحرمة الفرقة
7- ضرورة قبول اجتهاد الآخر ، والالتفاف حول الثوابت ، والتسامح فيما عداها ، وبيان الخلاف المشروع والمذموم.
8- علاقة فقه الثوابت والمتغيرات بتوحيد الأمة.

ثالثا : وجود مشروع متكامل قائم على التوازن بين القوة والرحمة

أولا ـ القوة الذاتية معنويا وماديا

إن كل ما في هذا الدين العظيم "الإسلام" والتجارب السابقة يدل بوضوح على أننا نحتاج إلى شرطين أساسيين ليكون لنا اعتبارنا واحترامنا بين الأمم ، هما :

الأول: تفعيل قواعد القوة المعنوية ، وذلك من خلال التمسك بالعقيدة الصحيحة والأخلاق والقيم السامية ، وتفعيل قواعد القوة المادية ، وهي :

1- القوة العلمية القادرة على الابداع ، والمساهمة في تقديم الابداعات العلمية والابتكارات التي تخدم الإنسانية ، فأمة "اقرأ" لا تقرأ ، وتشيع فيها نسبة كبيرة من الأمية.

2- القوة الاقتصادية الشاملة للصناعات النافعة "الصغيرة، والمتوسطة، والكبيرة" والزراعة القادرة على الاكتفاء الذاتي بل والتصدير إلى الخارج، فالأمة التي تحتاج في غذائها إلى الآخر لا تكون مستقلة في قرارها، وكذلك التجارة الناجحة.

3- القوة العسكرية من حيث الاعداد والتصنيع العسكري والقوة الرادعة التي تمنع الأعداء من الطمع فينا، يقول الإمام محمد عبده: ذهبت إلى أوروبا فرأيت مائة أسطول، مع أن دينهم يقول: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" وعدت إلى بلاد الإسلام فوجدت في شوارعنا مائة مسطول "مخدر" مع أن دينهم يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: 60)

الثاني: تفعيل "الأمة الواحدة" فقد أكد القرآن الكريم على أن هذه الأمة أمة واحدة، وأنها أمة وسط شهيدة على العالم، وأنها خير أمة أخرجت لمنفعة الناس، وتحقيق الخير للناس، وأنها أمة أخرجها الله تعالى بقدرته ورحمته.

إن هذه الوحدة لن تتحقق دون حقوق وواجبات، وجهود وتضحيات. فمما لاشك فيه أننا إذا أردنا أن ننجح في إقامة علاقة متوازنة محترمة مع غير المسلمين وفي الحوار معهم، فلا بدّ أن نقوي ونؤصل العلاقة بين المسلمين بعضهم مع بعض على مختلف مذاهبهم وطوائفهم التقليدية، وعلى مختلف الجماعات الفكرية الحالية من الإخوان والسلفية، والتبليغ وغيرها.

فإذا لم نجتمع نحن المسلمين على مجموعة من الثوابت ولم يتسامح أو يعذر بعضنا البعض في المتغيرات الاجتهادية المختلف فيها فحينئذٍ لا يكون لنا وزن وقوة في الحديث مع الآخر، والحوار معه، وهذا ما يتشدق به ممثلو الكنائس والأديان الأخرى، حيث يحاولون توزيع الإسلام وتقسيمه حسب المذاهب والطوائف والجماعات، بل والأشخاص فيقولون: الإسلام السني والإسلام الشيعي، والإسلام الأصولي والإسلام التقليدي، والإسلام الحداثي والإسلام الديمقراطي، والإسلام الإخواني، والإسلام السلفي، والإسلام التبليغي وهكذا.

فقد بين الله تعالى أن غير المسلمين يواجهون المسلمين كتلة واحدة، وملة واحدة، ولذلك يجب أن يواجهوهم كذلك صفاً واحداً بولاء واحد، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: 73) وهذه حقيقة تكررت في التاريخ القديم والمعاصر، فقد اتفق اليهود ـ وهم أهل الكتاب ـ مع المشركين الجاهليين الوثنيين في غزوة الأحزاب للقضاء على الرسول ﷺ ودولته الفتية، حتى شهدوا أن هؤلاء الوثنيين أهدى من المسلمين، حتى يزيلوا الحواجز الفكرية

بين الغزاة، حيث سجل الله تعالى هذه الشهادة الزور فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ (النساء: 51)

وفي التاريخ الحديث تنازل الفاتيكان عن أهم عقيدة ظل النصارى يؤمنون بها طوال القرون الماضية، وهي أن اليهود هم الذين قتلوا المسيح عليه السلام، حيث برأ اليهود في عا م 1965 من دم المسيح تميهداً للوحدة، وتعاونت الشعوب المسيحية مع اليهود في حربها ضد الغرب والمسلمين، بل ظهرت المسيحية المتصهينة التي هي أخطر من الصهاينة أنفسهم في حربهم ضد الاسلام والمسلمين.

فالوحدة بين المسلمين فريضة شرعية من أهم الفرائض، وضرورة عقلية وواقعية يفرضها واقعنا القائم على العولمة السياسية والعملقة الاقتصادية والحقيقة أننا نحن المسلمين ليس لنا إلا أن نكون أمة وسطاً قادرة على حماية نفسها ودينها وسيادتها وثرواتها، وحينئذ ليس أمامنا إلاّ طريق الوحدة بأي ثمن كان، وبأية طريقة مناسبة، فقد نبدأ بالتعاون الفعال الجاد للوصول إلى الوحدة الاندماجية، وإلاّ فيكون مصيرنا (ألا نكون) حقاً وفعلاً وأثراً، والله المستعان.

إن منهج الإسلام منهج واقعي حكيم يعالج الموضوع من جذوره؛ ولذلك حينما تحدث عن بعض هزائم المسلمين في عصر الرسالة أسند أسبابها إليهم أنفسهم، فلم يحولها إلى الغير ولم يجعل الغير شماعة لتعليق كل المصائب، فقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (آل عمران: 165) وهذا لا يعني إغفال الجانب الآخر وإنما المقصود أن الأمة لو أخذت بأسباب القوة، والنهضة والحضارة والتقدم والابداع لكانت هي الأولى والأجدر بتحقيق الحضارة والقوة والنصر على أعدائها، ولكن حينما لم تأخذ بسنن الله تعالى في الكون من حيث الانتصار والقوة، أصابها ما أصابها.

ثانيا. القوة الذاتية بالوحدة

إن من أهم السبل لتحقيق القوة الذاتية سبيل وحدة الأمة، وهي لا تتم إلا عبر قواعد من أهمها:

القاعدة الأولى: تفعيل الولاء والنصرة للمؤمنين:

إن هذه القاعدة تعني أن يكون ولاء المؤمن لله تعالى ولرسوله ثم للمؤمنين وجماعتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المائدة: 55 – 56)

وقال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة: 71)

والمقصود بولاء المؤمن للمؤمنين وجماعتهم هو أن يكون حبه لهم، بأن يحب نصرهم على غيرهم، ولا يؤثر غيرهم عليهم، وأن يكون نصرته لهم عند حاجتهم إليه، فالولاء: هو الحب والتعاون، والنصرة، والاتحاد والوقوف مع المؤمنين وقوفاً ثابتاً راسخاً.

وهذا الولاء والحب والنصرة للمؤمنين على ميزانين:

أ – ميزان الحرب، فيجب على المؤمن نصرة المسلمين، ومقاطعة المعتدين، والغلظ عليهم، والبراءة منهم، وعدم إظهار المودة والمحبة لهم، وهذا ما بينه القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ (الممتحنة: 1)

ب – ميزان السلم، حيث يجب على المؤمن البر والاحسان، ويجوز له التعايش، والتعامل مع الآخر ـ كما سيأتي ـ.

ولذلك فلا تعارض بين الولاء والبراء مع الاحسان والبر إلى غير المعتدين، ولا مع المودة الشخصية "الحب على أساس العلاقات الشخصية" وليس على أساس الكفر ـ كما سيأتي تفصيله في المحور الثاني إن شاء الله.

القاعدة الثانية: تحقيق قاعدة الاخوة الإيمانية وآثارها:

دلت النصوص الشرعية على أن أسس العلاقات بين المسلمين تقوم على أخوة قائمة على الدين مقدمة على جميع الوشائج، دون أن تلغيها، ولكنها تتقدم عليها بحيث إذا تعارضت الاخوة الإيمانية مع وشائج القربى من الأبوة والبنوة والقرابة الأخرى ولم يمكن الجمع بينهما، فإن الاخوة الإيمانية هي التي يجب أن تتقدم، وعلى هذا تواترت الآيات والأحاديث، وانعقد إجماع المسلمين، وجرت تربية رسول الله للجيل الأول، وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون، والصحابة الكرام (رضوان الله عليهم أجمعين).

وهذه الإخوة الإيمانية التي تصهر المسلمين في بوتقة واحدة ليست مجرد شعار يرفع، أو خطبة تقال وإنما لا بدّ أن تكون واقعاً مجسداً تترتب عليه الآثار الآتية:

1. الجسد الواحد، واليد الواحدة:

يريد الإسلام من المسلم أن يكون مع أخيه كالجسد الواحد وكالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً، بل كاليد الواحدة. يقول الرسول ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] ويقول أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، «وشبك بين أصابعه»[2].

2. التواضع، بل المذلة المتبادلة:

من المعروف أن الذل منبوذ في الإسلام، وأن العز هو المنشود، ولكن الله تعالى أمر بالذل وأثنى عليه في موضعين فقط، وهما الذل للوالدين ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ (الإسراء: 24) والذل للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: 54)

فقد رتب الله تعالى على حب هؤلاء القوم المختارين من الله تعالى، وحب الله تعالى لهم: أن يكونوا أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين، وأن المراد بالذل هنا ذل اليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه، ولا صعب، فهو لين لأخيه المؤمن من غير مذلة ولا مهانة، إنما هو ذل كل واحد للآخر، وليس من طرف واحد، فهو كما يقول سلمان الفارسي: «إنما مثل المؤمن للمؤمن كاليدين توضئ إحداهما الأخرى» فهي الاخوة التي ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي، وما يحتجز دون الآخر، فقد أزيلت الحساسية بين المؤمنين، لأن المؤمن مهما كان كبيراً وغنياً وحاكماً فهو متواضع غاية التواضع مع أخيه الآخر مهما كان منصبه، وحالته الاجتماعية.

وكيف تبقى الحساسية بين المؤمنين وقد أصبحوا بنعمته إخواناً يحبون الله، وهو يحبهم، وأصبحوا كالجسد الواحد، واليد الواحدة، والبنيان الواحد، وهل في تواضع الأجزاء والأعضاء لبعضها ذل ومهانة ؟!

---

(1) رواه البخاري ـ مع الفتح ـ (367/10) ومسلم الحديث 2586 عن النعمان بن بشير رضي الله عنه

(2) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (72/5، 376/10) ومسلم الحديث 2585 عن أبي موسى الأشعري

ثم إن هذا الذل للمؤمنين أو العزة على غيرهم ليس من باب اتباع الهوى والشهوات، بل هو الطاعة والسمع لموجبات العقيدة، ومقتضيات الاخوة الايجابية.

3. وحدة الصف والراية:

لم يرض رب العالمين بأن يصف المسلمين جميعاً بالصفوف، وإنما وصفهم بالصف الواحد فقال تعالى: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بينان مرصوص).

وقد أولى الإسلام عناية منقطعة النظير بالوحدة بين المسلمين فوردت مئات الآيات والأحاديث تؤكد ضرورة وحدة المسلمين وأنها فريضة شرعية، وضرورة واقعية، وأن الاختلاف والتفرق محرم، وأنه يؤدي إلى التمزق والضعف، والهوان فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنفال: 103 - 104) وقال ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (آل عمران: 103 - 105)

4. التراحم ورعاية الحقوق:

ويترتب على كون المسلمين إخوة كجسد واحد أن لا يظلم بعضهم بعضاً، وأن يراعي المسلم حقوق أخيه الذي هو بمثابة جزء منه فلا يظلمه ولا يخونه ولا يغشه ولا يحسده ولا يبغضه، ولا يخذله ولا يحقره ولا يعتدي عليه، لا على ماله، ولا على عرضه، ولا على نفسه وأعضائه، ولا يهجره، بل ينصره، ويحب له ما يحب لنفسه، وينصحه ويزوره، ويعوده، ويستر على عوراته ولا يفضحه، بل يقضي حوائجه، ويشفع له، ويقوم بالإصلاح فيما بينه وبين الآخر.

وقد ورد بكل ذلك آيات وأحاديث نذكر هنا بعض الأحاديث الثابتة[1] في هذا المجال:

أ) عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه، على وجهه في نار جهنم»[2].

---

(1) أخذنا معظم هذه الأحاديث من رياض الصالحين، بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤط

(2) رواه مسلم 657، 626

ب) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

ج) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[2].

د) وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[3].

هـ) وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[4].

و) وعنه قال: « قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل: « يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟» قال: «تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره»[5].

ز) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[6].

وفي رواية لمسلم: «حق المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه».

ح) وعن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار

---

(1) رواه البخاري (70/5، 71) ومسلم 2580

(2) رواه الترمذي 1928، قال حديث حسن

(3) رواه مسلم 2564

(4) رواه البخاري (53/1، 54) ومسلم 45

(5) رواه البخاري (71/5) و (289/12)

(6) رواه البخاري (90/3) ومسلم 2162

المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام، ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب، وعن شرب بالفضة، وعن المياثر الحمر، وعن القسي، وعن لبس الحرير والاستبرق والديباج»[1].

ط) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة»[2].

ي) وعنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[3].

ك) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[4]. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحبّ»[5].

م) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[6].

5. كفّ الأذى:

وبناءً على ذلك فإن الجسد الواحد «اليد الواحدة، والبنيان المرصوص» لا يمكن أن يؤذي بعضه بعضاً، فلا يؤذي مسلم مسلماً ما دام تربى على هذه العقيدة الجامعة التي

---

(1) رواه البخاري (3/90، 5/72، 9/210، 10/84، 97، 259، 266، 497 و11/15، 16) ومسلم 2066
(2) رواه مسلم 2590 و 72
(3) رواه البخاري (10/405، 406) ومسلم 2990
(4) رواه مسلم 2699 وأخرجه أحمد (2/407)
(5) رواه البخاري (3/238) ومسلم 2627
(6) رواه البخاري (5/226) و (6/93، 94) ومسلم 1009

صهرت المؤمنين في بوتقة حب الله تعالى، وبالتالي يمتنع عن كل ما يؤذي أخاه في الدين وبالأخص في المجالات الآتية:

أ) يمتنع عن إيذاء أخيه مهما كان الأمر تحقيقاً للاخوة الحقة، وتنفيذاً للنهي الوارد فيه حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأحزاب: 58)

فقد حرم الله تعالى على المسلم أن يؤذي أخاه في نفسه وعرضه وكرامته وماله، وأهله، وكل ما يخصه، فشعار المسلم الحقيقي هو«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1] بل إن لسانه صامت وصائم إلاّ عن قول الخير حيث يقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[2] وقد بين الله تعالى بأن كل ما يقوله الإنسان يكتب له أو عليه فقال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (ق: 18) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: 36)

يقول الإمام النووي: «واعلم انه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلاّ كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»[3].

ويدل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، ينزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[4] ويقول أيضاً: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم»[5] وعن معاذ، قلت: « يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويبعدني عن النار؟ ثم قال رسول الله ﷺ في آخر الحديث: وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم»[6].

---

(1) رواه البخاري (1/51، 52) ومسلم الحديث رقم 42

(2) الحديث رواه مسلم، رقم الحديث 48، وروى البخاري بعضه ـ مع فتح الباري ـ (10/373)

(3) رياض الصالحين، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤط ص 427

(4) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (11/265، 266) ومسلم 2988 ومالك (2/985) والترمذي 2315

(5) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (11/266، 267)

(6) رواه الترمذي الحديث 2619 وقال: حديث حسن صحيح ورواه أحمد (5/231) وابن ماجة 3973

القاعدة الثالثة: الحقوق المتقابلة:

تقوم العلاقات بين المسلمين على الحقوق المتقابلة، فليس في الإسلام شخص له حق دون أن يكون عليه واجب، ولا آخر يكون عليه واجبات، وليس له حقوق، فهذا هو المجتمع الإسلامي المتوازن الذي يتحمل كل واحد ما عليه مهما كان صغيراً أو كبيراً، فقيراً أو غنياً، حاكماً أو محكوماً، راعياً، أو رعية، فلا يكون بمنأى عن هذا المنهج المتوازن، وهذا التوازن لا يوجد في المجتمعات الأخرى، فالمجتمع الرأسمالي قائم على غلبة الحقوق، والمجتمع الاشتراكي يقوم على غلبة الواجبات، أما المجتمع الإسلامي فهو مجتمع الحقوق والواجبات، وإن كل مسلم يجب أن يؤدي واجبه قبل أن يطالب بحقه، فكل مؤمن مطالَب أولا بالواجب في حين أن الإنسان في المجتمعات الأخرى يطالب بحقه أولاً، ثم يؤدي واجبه ثانياً، ولذلك تكثر فيها النزاعات في حين أن النزاع قليل في المجتمعات الإسلامية الملتزمة بشرع الله تعالى.

وبناءً على ذلك فلا يقوم المجتمع الإسلامي على الإيثار المجرد والتطوع، وإنما الإيثار زيادة خاصة بالمجتمعات الإسلامية لتقوية المجتمع وتماسكه حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر: 9) فأساس المجتمع الإسلامي هو الحقوق المتقابلة، وأما الإيثار فزيادة فضل وتمايز.

ويترتب على ذلك وجود التنافس في الخير، والتسارع نحو الأفضل، والتسابق نحو مزيد من الكسب والبناء والحضارة والتقدم، حيث يتميز من خلال ذلك الصالح من الطالح، والقوي من الضعيف، والحسن من الشين، وهكذا. وهو يؤدي با لإضافة إلى أن ذلك يؤدي إلى عدم استغلال أحد لآخر فيجب أن يأخذ كل واحد حقه ما دام قد أدى ما عليه من واجب.

القاعدة الرابعة: قاعدة المساواة:

فمن أهم القواعد التي أرساها الإسلام هي قاعدة المساواة بين المسلمين مساواة في الحقوق والواجبات، ومساواة في الأحكام والمكانة والاعتبار، فالمسلمون متساوون كأسنان المشط، فلا فضل لواحد منهم على الآخر على أساس العرق، أو اللون، أو الشكل، أو القومية أو القبيلة، أو الاقليم، بل البشرية في هذا كلهم سواء فكلهم من آدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض، ولا... ولا... إلاّ بالتقوى، علماً بأن التقوى هي في

الصدر لا يعلم بها إلاّ الله تعالى. لقد قضى الإسلام من خلال آيات وأحاديث كثيرة على كل مظاهر التفرقة على أي أساس كانت فهي مرفوضة في الإسلام. وكذلك المساواة أمام القضاء والمحاكم وفي تحقيق العدالة ووصول الحق إلى صاحبه مهما كان قوياً أو ضعيفاً كما قال أبو بكر رضي الله عنه «القوي عندكم ضعيف حتى آخذ منه حق الضعيف، والضعيف قوي عندي حتى آخذ له حقه من القوي».

القاعدة الخامسة: قاعدة العدل:

تسير العلاقات في الإسلام على قاعدة العدل الذي هو الأساس في هذا الدين، وعليه قامت السموات والأرض، ولا نجد شيئاً بعد العقيدة أولاه له الإسلام عناية كبيرة مثل العدل.

القاعدة السادسة: قاعدة الوحدة العقدية

لقد أوجب الله تعالى الوحدة في الاعتقاد، وحرّم الاختلاف في الثوابت، بل جعل ذلك من الكفر - وإن كان كفراً دون كفر - فالنصوص الشرعية في هذا المجال لا تعدّ ولا تحصى، ويكفي أن نقول: إن الإسلام كما هو دين التوحيد في العقيدة، فهو كذلك دين توحيد الأمة، فهو دين كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة. بل إن الإسلام ينطلق من توحيد الله المعبود بحق إلى توحيد العابدين، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ (الأنبياء:9) ولذلك وحد قبلتهم وأركان دينهم، ومرجعيتهم (الكتاب والسنة) وأمرهم بالاعتصام بحبل الله تعالى فقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: 103 - 105) بل سمى الله تعالى الفرقة كفراً - وإن كان كفراً دون كفر - حينما حاول بعض اليهود إثارة النعرة الجاهلية بين الأوس والخزرج، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٠١﴾ (آل عمران: 100 - 101)

وكذلك سمى الرسول ﷺ الفرقة كفراً في حجة الوداع فقال: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1].

(1) رواه الترمذي

القاعدة السابعة: البحث عن المشتركات بدل المفرقات، وضرورة قبول الآخر من خلال الاعتراف بالتعددية:

إن معظم المشاكل تأتي من خلال عدم اعتراف بعضنا ببعض إذا وجد اختلاف وحينئذ يؤدي إلى النبذ والافتراق، ثم القتال والشقاق، في حين أن المفروض أن يعترف بعضنا ببعض من خلال الاعتراف بالتعددية المشروعة، فحضارتنا الإسلامية وسعت تعددية في الفكر وحتى في بعض مجالات العقيدة، كما أنها وسعت صدرها تماماً للاختلافات الفقهية والمدارس المتنوعة دون حرج، حتى يكون الشيء الواحد حلالاً محضاً لدى مدرسة فقهية، وحراماً محضاً وباطلاً لدى مدرسة أخرى، إذاً لماذا لا نقبل بالتعددية السياسية والفكرية في ظل الثوابت المقررة.

فالأمة الإسلامية اليوم هي أحوج ما تكون إلى البحث عن المشتركات فيما بينها، وهي كثيرة جداً، فجميع المذاهب والطوائف الإسلامية تشترك في أصول العقيدة من الإيمان وأركانه الأساسية من (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى) والأركان الخمسة للإسلام من (الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج) وفي التوجه إلى قبلة واحدة، وإلى اعتماد مصحف واحد دون الخلاف عليه، وفي العدو المشترك والمصالح المشتركة، حيث إنهم جميعاً يتفقون على أن الصهيونية والصليبية والعلمانية والإلحاد والتحلل الجنسي أشد أعدائهم، وأنهم يعتبرون قضايا الأمة الرئيسية (كفلسطين والقدس) القضية التي هم جميعاً مستعدون للتضحية في سبيلها، وأنهم جميعاً يعرفون حق المعرفة أن أعداءهم لا يفرقون فيما بينهم، وهذا هو التقرير الأخير الصادر من معهد راند الاستراتجي الذي له دور كبير في صياغة القرار الأمريكي، ينص على أن جميع المسلمين (التقليدين، والأصوليين، والليبراليين، والصوفية، والشيعة والسنة...) لا يعتمد عليهم، ولا ينبغي للسياسة الأمريكية أن تتحالف معهم إلاّ تكتيكاً للقضاء من خلالهم على جماعة أخطر، فقد جعلهم كلهم في سلة واحدة، ثم اقترح إسلاماً جديداً سماه الإسلام الديمقراطي المدني الذي يقبل بجميع القيم الغربية[1].

أو ما تكفي كل هذه المشتركات بين المسلمين جميعاً ؟ أو ما تجمعهم الشدائد والمخاطر والأعداء الكثيرون الذين تداعوا على هذه الأمة كما تداعت الأكلة على قصعتها ؟

---

(1) تقرير معهد راند للعام 2003/2004 باسم: الإسلام الديمقراطي المدني

فقد جاءت نصوص الشريعة مركزة في نصوصها القطعية على الأسس والأركان التي ينى عليها هذا الدين، وتؤصل العقيدة الصحيحة، والقيم والأخلاق الراقية، وأسس المعاملات والتعامل مع الناس جميعاً تاركة التفاصيل في معظم الأشياء للأدلة الظنية، أو للاجتهادات الإنسانية في ظل المبادئ العامة والقواعد الكلية.

وبذلك جمعت الشريعة بين الثوابت التي لا تقبل التغير (أي بمثابة الهيكل العظمي للإنسان)، والمتغيرات التي تشبه أحوال الإنسان العادية القابلة للتغير وبذلك انسجمت الشريعة التي أرسلها الله تعالى للإنسان مع الإنسان الذي نزلت عليه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: 14).

فالإنسان ثابت في حقيقته وجوهره وأصل عقله وروحه ونفسه ومكوناته وضرورياته وحاجاته العامة إلى المأكل والملبس والمشرب (وإن كانت النوعيات مختلفة لكن الأصل العام لم يتغير منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا)، ولكن الإنسان متغير في معارفه، وفي إمكانياته للتسخير وعلومه، وفي أنواع ملابسه ومشاربه ومآكله ومساكنه فقد وصل إلى القمر ومع ذلك يظل بحاجة إلى الهداية الربانية والعقيدة التي تملأ فراغ روحه ونفسه، وإلى قيم وأخلاق ربانية تمنعه من الازدواجية والعنصرية والظلم والاعساف، وتدعوه إلى العدل والمساواة والإنصاف، وتردعه عن إذلال الإنسان وازدرائه وأكل حقوقه وأمواله[1].

وبهذه الصفة العظيمة الجامعة بين الاستفادة من النقل والعقل، وبين الثوابت والمتغيرات يجتمع في الإنسان خير الدنيا والآخرة، ويتحقق له التآلف والمحبة والتقارب الحقيقي، لأننا حينئذٍ نتعاون ونتحد فيما أجمعنا عليه من الثوابت، ويعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه، لأنه من المتغيرات الاجتهادية التي تقبل أكثر من رأي.

فالمقصود بالثوابت هنا الأحكام الإسلامية التي ثبتت بأدلة قطعية الدلالة والثبوت أو بالإجماع الصحيح الثابت الذي مضت عليه الأمة في قرونها الثلاثة الأُوَل.

وعلى ضوء ذلك فالثوابت تشمل أركان الإيمان الستة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى)، وأركان الإسلام الخمسة (الشهادة والصلوات الخمس، والزكاة والصوم والحج لمن استطاع إليه سبيلا)، وتشمل كذلك القيم والأخلاق الثابتة، والأحكام الأسس العامة لأحكام الأسرة في الإسلام،

(1) شيخنا القرضاوي: المدخل إلى دراسة الشريعة / ط. مكتبة الوهبة ص 257

والأحكام والمبادئ العامة للمعاملات والجهاد، والعلاقات الدولية، والقضاء ونحو ذلك، والخلاصة أن كل حكم من أحكام الإسلام في جميع مجالات الحياة إذا ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة أو بإجماع الأمة إجماعاً صحيحاً قائماً على الدليل وليس العُرف فهو من الثوابت التي يجب الالتزام بها، وعدم التهاون في حقها، إلا ما هو من قبيل الضرورات التي تبيح المحظورات.

وأما المتغيرات فالمقصود بها هنا هي الأحكام التي تثبت بدليل ظني (سواء أكانت الظنية في دلالة النص وثبوته، أم في أحدهما) أو باجتهاد قائم على القياس أو المصالح المرسلة، أو العرف، أو مقاصد الشريعة أو نحو ذلك.

فنطاق المتغيرات في الفتاوى والأحكام الفقهية الظنية واسع جداً وهو يشمل كل الاجتهادات الفقهية السابقة، إضافة إلى منطقة العفو التي تقبل التغييرات بشكل واضح حسب الاجتهادات الفقهية. يقول إمام الحرمين: «إن معظم الشريعة صادرة عن الاجتهاد، ولا تفي النصوص بعشر معشارها»[1].

وذلك لأن الاجتهادات الفقهية السابقة لفقهائنا الكرام ـ ما دامت ليست محل إجماع ـ تقبل إعادة النظر، بل ينبغي إعادة النظر فيها وغربلتها بكل تقدير واحترام من خلال الاجتهاد الانتقائي، والترجيح فيما بينها للوصول إلى ما هو الراجح، ثم تنزيله على قضايا العصر بكل دقة ووضوح.

بل يمكن إعادة النظر في فهم هذه النصوص الظنية مرة أخرى على ضوء قواعد اللغة العربية وأصول الفقه، والسياق واللحاق وحينئذٍ يمكن الوصول إلى معان جديدة وأحكام جديدة لم ينتبه إليها السابقون، أو لم يخترها الجمهور، بل ذكرها قلة قليلة من السابقين.

وأما منطقة العفو فيكون الاجتهاد فيها اجتهاداً إنشائياً لا بد من توافر شروط الاجتهاد وضوابطه في من يتصدى له.

ونطاق المتغيرات يشمل ما هو خارج عن الأصول والثوابت القطعية وخاصة فيما يتعلق بالعقائد والعبادات، وأكثره يظهر في عالم المعاملات الاقتصادية والمالية والقضايا السياسية والطبية، والعلاقات الدولية ونحوها، يقول الإمام الشاطبي: «مجال الاجتهاد

---

(1) البحر المحيط، ط.الكويت (472/4)

المعتبر هي ما ترددت بين طرفين وضح في كل منهما قصد الشارع في الإثبات في أحدهما، والنفي في الآخر فلم تنصرف البتة إلى طرف النفي ولا إلى طرف الإثبات»[1].
ويقول الغزالي: «المجتهد فيه كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي»[2].

الإشكالية في فقه التنزيل وليست في معيارية الوحي:

إذا اعتبرنا أن تنزيل النص على واقعة مستجدة هو اجتهاد وعمل المجتهد، وليس هو النص نفسه فحينئذٍ تتسع دائرة القبول، وميدان المتغيرات، وذلك لأن قيم الوحي هي قيم معيارية لضبط المسيرة وتأطيرها، وهي أدلة وموازين، ولكنها ليست برامجَ وخططاً في مجالات الحياة العادية، ومن هنا تصبح البرامج والخطط والتدابير الإدارية اجتهادات يمكن مناقشتها، والاختلاف فيها، ولا تعتبر ديناً لا يمكن مناقشته ونقده وتغيره، بل يدخل فيما ذكره الفقهاء من تغيير الفتاوى بتغير الزمان والمكان[3].
غير أن أهم إشكالية هي في الخلط بين النص نفسه، وبين تنزيله على واقع لم يرد في النص، وبين القيمة، والبرنامج، وبين المعيار والاجتهاد، وبين الدليل المعصوم، والاجتهاد القابل للخطإ، وبين المطلق والنسبي، والمجرد والمجسد[4].

الخلاف المشروع على ضوء الثوابت والمتغيرات

أ. تمهيد

يعتبر من ثوابت هذا الدين وقواطعه وجوب الاتحاد والوحدة والترابط بين المسلمين، وحرمة التفرق والتمزق فيما بينهم، فاتحاد الأمة فريضة شرعية يفرضها الدين الحنيف وضرورة واقعية يفرضها الواقع الذي نعيشه، حيث أصبحت بسبب تفرقها وتمزقها ضعيفة مهددة في وجودها وكيانها وسيادتها، طمع فيها الطامعون، وغلب على معظمها المستعمرون والحاقدون، ولا سيما في عالمنا اليوم الذي تكتلت فيه القوى وأصبح الإسلام الهدف الأساس لها.
ولا نجد ديناً ولا نظاماً أولى عنايته بالاتحاد وخطورة التفرق مثل الإسلام حيث توالت الآيات الكثيرة والأحاديث المتضافرة على وجوب التعاون والاتحاد، وحرمة التفرق

---

(1) الموافقات (519/2)
(2) المستصفى (354/2)
(3) إعلام الموقعين (3/3)
(4) عمر عبيد حسنة: تقديمه السابق

والاختلاف. فمنها قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾ (آل عمران: 103 - 105)

وقد نزلت هذه الآيات في الأوس والخزرج في الإسلام بعد أن بذل شاس بن قيس اليهودي جهداً كبيراً في إثارة نعرات جاهلية بينهم، حيث أرسل شاباً يهودياً يذكرهم بيوم بعاث، فأنشدهم الأبيات فتذكروا، فتنازعوا وتفاخروا حتى كاد القتال أن ينشب بينهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فقال: (يا معشر المسلمين الله الله فقال: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ أبعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر، وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟) فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم فألقوا السلاح، وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس، فأنزل الله تعالى هذه الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ (آل عمران: 100 - 102)

حيث دلت هذه الآيات على ما يأتي:

1 ـ أن أعداء الإسلام يبذلون كل جهودهم لتفريق الأمة الإسلامية وأنهم وراء ذلك وبالأخص الصهاينة والصليبيون، والاستعمار الذي رفع شعار (فرق تسد).

2 ـ أن اتباع هؤلاء الأعداء وطاعتهم في ذلك كفر ﴿ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ ﴾ (آل عمران: 100)

وهذا أعظم هجوم على التفرق وبالأخص إذا كان بسبب التبعية لأهل الكفر حيث سماه الله تعالى كفرا.

3 ـ هناك علامة تعجب واستغراب لمن يتفرق عن الجماعة المسلمة ويكفر مع وجود القرآن الكريم، والرسول في حال حياته، وسنته في حالة موته، وهذا يعني أن سبيل

هذه الأمة هو الاتباع للكتاب والسنة المطهرة، وان طريق الوحدة ميسور إذا توافرت الإرادة والعزيمة، حيث أن أسباب وحدة السلمين لا زالت قائمة.

4 ـ أهمية التقوى والاخلاص والتجرد عن الأهواء وخطورة التعصب والعصبية القومية، والقبلية والطائفية والمذهبية في إيجاد الاختلاف المذموم والتفرق المشئوم فهذه هي الأمراض القاتلة التي فتكت بالأمة، ونخرت في عظامها.

5 ـ العناية القصوى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح الناس وفعل الخير، والدعوة إليه، ونشر الإحسان والتكافل بين المسلمين، فهذه وسائل عظيمة لحماية الأمة وجمعها على الطريق المستقيم والهداية والفلاح.

6 ـ أهمية الاعتصام بحبل الله المتين، والانشغال بالدعوة والجهاد لتوحيد الأمة، حيث وردت بذلك آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (الأنعام: 159) ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأ نفال: 46).

وأما السنة النبوية فمنها ما رواه الشيخان بسندهما عن النبي ﷺ: « من فارق الجماعة شبراً فمات فيمتته جاهلية»[1].

ومنها ما رواه الشيخان أيضاً عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »[2]. والأحاديث في ذلك أكثر من أن نذكرها هنا [3].

هذا هو الاختلاف المذموم الذي يخالف الثوابت والقواطع وهو الخلاف الذي يكون في أصول الدين وثوابته، أو الذي يوجب البغضاء والمنكر والتفرقة.

أما الخلاف المشروع فهو الخلاف في الفروع، لا من الأصول، وفي الوسائل لا في المقاصد، وفي الآليات لا في الغايات، وفي تنوع السبل إلى الخير لا في الأهداف العامة للشريعة، وفي المناهج العملية، والآليات والأولويات لا في المرجعية والمنهجية العلمية العامة. فهذا الاختلاف مقبول ومشروع طبيعي جداً، وهو من الدين وليس خارجاً منه، لأن الدين الإسلامي ـ كما سبق ـ يستوعبه من خلال نصوصه المرنة ومبادئه العامة.

---

(1) صحيح البخاري كتاب الفتن مع الفتح (5/13) ومسلم (1477/3) الحديث 1849، واحمد (82/2، 92، 95، 123، 154)

(2) صحيح البخاري مع الفتح (413/10) ومسلم الحديث 2560

(3) يراجع: الشيخ القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ط. دار الوفاء (ص 34)

ب. اختلاف تنوع لا تضاد:

بما أن الثوابت متفق عليها بين جميع المسلمين فإن اختلافهم إذا كان نابعاً من الاجتهاد المنضبط فهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وقد جعل الشاطبي الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والتباغض من علامات كونه اختلافاً نابعاً من الهوى، غير مقبول في الإسلام حيث يقول: «ومن هنا يظهر وجه الموالاة والتحاب والتعاطف فيما بين المختلفين في مسائل الاجتهاد، حتى لم يصيروا شيعاً، ولا تفرقوا فرقاً، لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، فاختلاف الطرق غير مؤثر». ثم قال: «وبهذا يظهر ان الخلاف الذي هو في حقيقته خلاف ناشئ عن الهوى المضل، لا عن تحري قصد الشارع باتباع الأدلة على الجملة والتفصيل، وهو الصادر عن أهل الأهواء، وإذا دخل الهوى أدى إلى اتباع المتشابه حرصاً على الغلبة والظهور بإقامة العذر في الخلاف، وأدى إلى الفرقة والعداوة والبغضاء، لاختلاف الأهواء، وعدم اتفاقهما، وإنما جاء الشرع لحسم مادة الهوى بإطلاق»[1].

ومن المعلوم أن هذه الاختلافات الفقهية الكثيرة داخل الفقه الإسلامي دليل على يُسر الشريعة وسعتها ومرونتها وعظمتها، لأنها استوعبت نصوصها كل هذه الخلافات مرونة ورفعا للحرج. بل الخلافات الفقهية والفكرية والسياسية ضرورية ما دام الاجتهاد مشروعاً، فتكون الخلافات الفقهية ناتجة من ذلك فهي تدور معه وجوداً وعدماً، لاختلاف العقول والتصورات والأعراف والتأثيرات الخارجية والداخلية.

ومن هنا فالمسلمون عندما يكون لديهم هذا الوعي لا يؤدي الاختلاف إلى التباغض يقول ابن تيمية: « وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة»[2] وقد وسع شيخ الإسلام الدائرة لتسع بعض الفرق أو الأشخاص الذين تصدر منهم أقوال خطرة ومع ذلك لا يجوز تكفير شخص معين منهم حيث يقول: «وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفراً، ينطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله له لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة... وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد تكون قد عرضت له شبهات

---

(1) الموافقات للشاطبي ط.دار المعرفة (576/2)

(2) مجموع الفتاوى (173/24)

يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام»[1].

ج. عدم الإنكار في المسائل الخلافية:

ومن المعلوم شرعاً أن إنكار المنكر باللسان، أو باليد لمن له سلطان هو إنكار خاص بالمنكرات المتفق عليها، أما المختلف فيها (ضمن الاختلاف المشروع) فلا يكون فيها الإنكار، وإنما يكون فيها الحوار والنقاش والحكمة والموعظة الحسنة، والأسلوب الراقي الجميل، والجدال بالتي هي أحسن للإرشاد إلى ما هو الأفضل والأرجح أو الراجح.

ولذلك حينما شدد نبي الله موسى عليه السلام على أخيه هارون وأخذ بلحيته يجره، برر سكوته عما وقع لبني إسرائيل من اتخاذ العجل إلهاً فقال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه: 94) وحينئذٍ قبل قوله وسكوته وتبريره.

ومن شروط الخلاف المشروع أن تكون نية المخالف سليمة، خالصة متجردة عن الأهواء متجهة نحو الخير، متحررة من التعصب الأعمى للأشخاص والمذاهب والطوائف مع إحسان الظن بالآخرين، وترك الطعن والتجريح، والبعد عن المراء واللدد في الخصومة، وأن يكون الحوار بالتي هي أحسن[2].

د. الاختلاف في الفروع رحمة

وقد جرى هذا الشعار على ألسنة السلف الصالح، فقال عمر بن عبدالعزيز: « ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة»[3] وقد قال القاسم بن محمد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة حينما سئل عن قراءة الفاتحة بعد الإمام: «إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله أسوة، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله أسوة»[4] وقال يحيى بن سعيد: »ما برح أولو الفتوى يفتون فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه»[5].

---

(1) المرجع السابق (345/23 – 346)

(2) الشيخ القرضاوي: الصحوة الإسلامية ص 193

(3) فيض القدير (209/1)

(4) جامع بيان العلم (80/2)

(5) المرجع السابق

وقد نقل المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء: 59) عن الحسن البصري أنه قال: «وأما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم...»[1]، لأن هدفهم هو ا لوصول إلى الحق والصواب ما أمكن، وإظهار الصحيح في نظرهم حتى ولو على لسان غيرهم، فالرأي الذي لم تصنعه الأهواء لا يتعصب صاحبه له.

هـ. قرار معاصر من المجمع الفقهي:

لقد صدر قرار من المجمع الفقهي الإسلامي في دورته العاشرة في الفترة 24 – 28 صفر 1423هـ الموافق 17 ـ 20 اكتوبر 1987 نذكره بنصه لأهميته: « فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي قد نظر في موضوع الخلاف الفقهي بين المذاهب المتبعة، وفي التعصب الممقوت من بعض أتباع المذاهب لمذهبهم، تعصباً يخرج عن حدود الاعتدال، ويصل بأصحابه إلى الطعن في المذاهب الأخرى وعلمائها، استعرض المجلس المشكلات التي تقع في عقول الناشئة العصرية، وتصوراتهم، حول اختلاف المذاهب، الذي لا يعرفون مبناه ومعناه، فيوحي إليهم المضللون، بأنه ما دام الشرع الإسلامي واحداً، وأصوله من القرآن العظيم، والسنة النبوية الثابتة، متحدة أيضاً، فلماذا اختلاف المذاهب؟ ولم لا توحد؟ حتى يصبح المسلمون أمام مذهب واحد؟ وفهم واحد لأحكام الشريعة؟ كما استعرض المجلس أيضاً أمر العصبية المذهبية، والمشكلات التي تنشأ عنها، ولا سيما بين أتباع بعض الاتجاهات الحديثة اليوم، في عصرنا هذا، حيث يدعو أصحابها إلى خط اجتهادي جديد، ويطعنون في المذاهب القائمة التي تلقتها الأمة بالقبول من أقدم العصور الإسلامية، ويطعنون في أئمتها، أو بعضهم ضلالاً، ويوقعون الفتنة بين الناس. وبعد المداولة في هذا الموضوع، ووقائعه، وملابساته، ونتائجه في التضليل والفتنة، قرر المجمع الفقهي: توجيه البيان التالي، إلى كلا الفريقين المضللين والمتعصبين، تنبيهاً وتبصيرا:

أولاً: اختلاف المذاهب:

إن اختلاف المذاهب الفكرية، القائم في البلاد الإسلامية نوعان:

اختلاف في المذاهب الاعتقادية. واختلاف في المذاهب الفقهية.

---

(1) يراجع لتفسير الآية: تفسير ابن عطية، ط.قطر (108/4) وفتح القدير للشوكاني، ط.عالم الكتب (481/1 – 482) وتفسير الماوردي، ط. الكويت (400/1)

فأما الأول، وهو الاختلاف الاعتقادي، فهو في الواقع مصيبة، جرّت إلى كوارث في البلاد الإسلامية، وشقت صفوف المسلمين، وفرقت كلمتهم، وهي ما يؤسف له، ويجب أن لا يكون، وأن تجتمع الأمة على مذهب أهل السنة والجماعة، الذي يمثل الفكر الإسلامي، النقي السليم في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلافة الراشدة التي أعلن الرسول أنها امتداد لسنته بقوله: (عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ).

وأما الثاني، وهو اختلاف المذاهب الفقهية، في بعض المسائل، فله أسباب علمية، اقتضته، ولله سبحانه في ذلك حكمة بالغة، ومنها الرحمة بعباده، وتوسيع مجال استنباط الأحكام من النصوص، ثم هي بعد ذلك نعمة، وثروة فقهية تشريعية، تجعل الأمة الإسلامية في سعة من أمر دينها وشريعتها، فلا تنحصر في تطبيق شرعي واحد حصراً لا مناص لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحد الأئمة الفقهاء في وقت ما، أو في أمر ما، وجدت في المذهب الآخر سعة ورفقاً ويسراً، سواء أكان ذلك في شؤون العبادة، أم في المعاملات، وشؤون الأسرة، والقضاء والجنايات، وعلى ضوء الأدلة الشرعية.

فهذا النوع الثاني من اختلاف المذاهب، وهو الاختلاف الفقهي، ليس نقيصة، ولا تناقضاً في ديننا، ولا يمكن أن لا يكون، فلا يوجد أمة فيها نظام تشريعي كامل بفقهه واجتهاده ليس فيها هذا الاختلاف الفقهي الاجتهادي.

فالواقع أن هذا الاختلاف، لا يمكن أن لا يكون، لأن النصوص الأصلية، كثيراً ما تحتمل أكثر من معنى واحد، كما أن النص لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة، لأن النصوص محدودة، والوقائع غير محدودة، كما قال جماعة من العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ فلا بد من اللجوء إلى القياس، والنظر إلى علل الأحكام ، وغرض الشارع، والمقاصد العامة للشريعة، وتحكيمها في الوقائع، والنوازل المستجدة، وفي هذا تختلف فهوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات، فتختلف أحكامهم في الموضوع الواحد، وكل منهم يقصد الحق، ويبحث عنه، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، ومن هنا تنشأ السعة ويزول الحرج.

فأين النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبي، الذي أوضحنا ما فيه من الخير والرحمة، وأنه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعباده المؤمنين وهو في الوقت ذاته، ثروة تشريعية عظمى، ومزية جديرة بأن تتباهى بها الأمة الإسلامية.

ولكن المضللين من الأجانب، الذين يستغلون ضعف الثقافة الإسلامية لدى بعض الشباب المسلم، ولا سيما الذين يدرسون لديهم في الخارج، فيصورون لهم اختلاف المذاهب الفقهية هذا كما لو كان اختلافاً اعتقادياً، ليوحوا إليهم ظلماً وزوراً بأنه يدل على تناقض الشريعة، دون أن ينتبهوا إلى الفرق بين النوعين وشتان ما بينهما.
ثانياً: وأما تلك الفئة الأخرى، التي تدعو إلى نبذ المذاهب، وتريد أن تحمل الناس على خط اجتهادي جديد لها، وتطعن في المذاهب الفقهية القائمة، وفي أئمتها أو بعضهم، ففي بياننا الآنف عن المذاهب الفقهية، ومزايا وجودها وأئمتها ما يوجب عليهم أن يكفوا عن هذا الأسلوب البغيض الذي ينتهجونه، ويضللون به الناس، ويشقون صفوفهم، ويفرقون كلمتهم في وقت نحن أحوج ما نكون إلى جمع الكلمة في مواجهة التحديات الخطيرة من أعداء الإسلام، بدلاً من هذه الدعوة المفرقة التي لا حاجة إليها.
وصلى الله علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين».

و. قرار آخر من مجمع الفقه الدولي:

وقد صدرت عدة قرارات من مجمع الفقه الإسلامي الدولي حول أهمية الوحدة الإسلامية، وعدم إثارة الفتنة الطائفية والمذهبية، منها قرار رقم (89 11/1) حيث نص على:
« أولا: إن الوحدة الإسلامية واجب أمر الله تعالى به وجعله وصفا لازماً لهذه الأمة بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (آل عمران: 103)، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الأنبياء: 92)، وكذلك السنة النبوية قولاً وعملا، حيث قال النبي ﷺ « المسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد علي من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم» وقد حقق عليه الصلاة والسلام هذه الوحدة فعلا بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وقرر ذلك في أول وثيقة لإقامة الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة التي فيها وصف المسلمين بأنهم « أمة واحدة من دون الناس ».
إن هذه النصوص من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وما في معناها، تقتضي أن يجتمع المؤمنون تحت لواء الإسلام، مستمسكين بالكتاب والسنة، وأن ينبذوا الأحقاد التاريخية والنزاعات القبلية والأطماع الشخصية والرايات العنصرية. وحينما قاموا بذلك تحققت القوة لدولة الإسلام في عهد النبوة ثم في الرعيل الأول، وانتشر دين الإسلام ودولته في الشرق والغرب وقادت الأمة الحضارة الإنسانية بحضارة الإسلام التي كانت أعظم حضارة قامت على العبودية لله وحده، فحققت العدل والحرية والمساواة.

ثانيا: إن الوحدة الإسلامية تكمن في تحقيق العبودية لله سبحانه اعتقاداً وقولاً وعملاً، على هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والحفاظ على هذا الدين الذي يجمع المسلمين على كلمة سواء في شتى مناحي الحياة من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية. وما أن ابتعدت الأمة الإسلامية عن مقومات وحدتها حتى نجمت أسباب التفرق التي تعمقت فيما بعد بأسباب كثيرة منها جهود الاستعمار الذي شعاره (فرق تسد)، فقسم الأمة الإسلامية إلى أجزاء ربطها بأسس قومية وعرقية وفصل بين العرب والمسلمين، وانصبت معظم جهود المستشرقين إلى تأصيل التفرق في دراساتهم التي روجوها بين المسلمين.

ثالثا: إن الاختلافات الفقهية التي مبناها على الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية ودلالاتها، أمر طبعي في حد ذاته، وقد أسهمت في إغناء الثروة التشريعية التي تحقق مقاصد الشريعة وخصائصها من التيسير ورفع الحرج.

رابعا: وجوب الالتزام بحفظ مكانة جميع الصحابة رضى الله عنهم، ودعوة العلماء إلى التنويه بمنزلتهم وفضلهم في نقل الشريعة إلى الأمة والتعريف بحقهم عليها، ودعوة الحكومات إلى إصدار الأنظمة التي تعاقب من ينتقص من شأنهم في أي صورة من الصور، لما لذلك من رعاية حرمة الصحابة ﷺ واستئصال سبب من أسباب التفرق.

خامسا: وجوب الالتزام بالكتاب والسنة، وهدي سلف الأمة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ونبذ الضلالات، وتجنب ما يثير الفتن في أوساط المسلمين، ويؤدي إلى الفرقة بينهم، والعمل على توظيف الجهود للدعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه في أوساط غير المسلمين.

التوصيات:

لا يخفى أن عصرنا هو عصر التكتلات التي لها تطبيقاتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية تحت شعارات العولمة والعلمانية والحداثة وبسبب الانفتاح الإعلامي دون أي قيود أو ضوابط، مما يجعل العالم الإسلامي مستهدفا لإزالة خصوصياته وتذويب مقوماته ومعالم حضارته الروحية والفكرية، ولا تتم حماية أمتنا من هذه الأخطار إلا باتحادها وإزالة أسباب التفرق لا سيما أن أمتنا تملك العديد من مقومات الوحدة التي تشمل الوحدة الاعتقادية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والثقافية.

وعليه يوصي المجمع بما يلي:

أولاً: تأكيد قرار المجمع رقم: 48(5/10) بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وما تبعه من توصيات في الموضوع ذاته، وقرار المجمع رقم 69(7/7) بشأن الغزو الفكري في التوصية الأولى.
ثانياً: التأكيد على حكومات البلاد الإسلامية بدعم جهود كل من منظمة المؤتمر الإسلامي ومجمع الفقه الإسلامي الدولي باعتبارهما من صور الوحدة بين المسلمين سياسياً وفكرياً.
ثالثاً: تجاوز النزاعات التاريخية، فإن إثارتها لا تعود على الأمة إلا بإذكاء الضغائن وتعميق الفرقة.
رابعاً: التزام حسن الظن وتبادل الثقة بين المسلمين دولا وشعوبا، بتوجيه وسائل الإعلام إلى تنمية روح التآلف وإشاعة أخلاقيات الحوار واحتمال الآراء الاجتهادية.
خامساً: الاستفادة من القضايا المصيرية التي توحد الأمة الإسلامية وفي مقدمتها قضية القدس والمسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ لدرء الأخطار التي تهدد إسلاميتها، والتأكيد على أنها قضية المسلمين جميعا.
ويناشد المشاركون في المؤتمر حكومات البلاد الإسلامية مضاعفة اهتمامها بهذه القضية وأمثالها، والمبادرة إلى الإجراءات المناسبة، ومنها:
(أ) التنديد بما تتعرض له الأراضي الفلسطينية وأهلوها من سياسات التهجير والاستيطان والتهويد، وما يعانيه الإنسان الفلسطيني من احتلال وظلم وقمع وحرمان وقتل وتشريد وامتهان لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية.
(ب) الدعم المطلق لفلسطين المجاهدة وأرضها المباركة ومسجدها الأقصى أولى القبلتين، في معركتها الاستقلالية والوقوف بجانبها وجانب الشعب الفلسطيني في صموده.
(ج) إدانة الحركة الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي فيما يقوم به من ألوان التنكيل وصور العدوان البشع على الشعب الفلسطيني المناضل في سبيل حريته وتحرير مقدساته.
سادساً: الاهتمام بالآليات المطروحة التي لها أولوية في تحقيق الوحدة الإسلامية مرحليا مثل:

1. إعداد المناهج التعليمية على أسس إسلامية
2. وضع الاستراتيجية الإعلامية الإسلامية المشتركة.
3. إنشاء السوق الإسلامية المشتركة.
4. إقامة محكمة العدل الإسلامية.

سابعاً: قيام الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي بتكوين لجنة من أعضاء المجمع وخبرائه لوضع دراسات عملية قابلة للتطبيق تراعي واقع الأمة الإسلامية، وتشمل الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتضع آليات تحقيق الوحدة في هذه المجالات مع الاستفادة من الجهود القائمة حاليا في إطار المنظمات العربية والإسلامية، والاستعانة بالمختصين في المجالات المختلفة.

ولضمان جدية نشاط هذه اللجنة وتنفيذ نتائج دراستها، نوصي باعتماد تشكيلها ومهامها من منظمة المؤتمر الإسلامي.»[1]

ومنها القرار رقم 152(17/1) الذي أكد القرار السابق وأضاف قائلاً: « فالاعتراف بالمذاهب والتأكيد على الحوار والالتقاء بينها هو الذي يضمن الاعتدال والوسطية، والتسامح والرحمة، ومحاورة الآخرين ».

ثم دعاء إلى نبذ الخلاف بين المسلمين وإلى توحيد كلمتهم، ومواقفهم، وإلى التأكيد على احترام بعضهم لبعض، وإلى تعزيز التضامن بين شعوبهم ودولهم، وإلى تقوية روابط الأخوة التي تجمعهم على التحابّ في الله، وألاّ يتركوا مجالاً للفتنة وللتدخّل بينهم. فالله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات: 10).

الثبات والتغير أو التطور عند السلف، وأثر ذلك على الوحدة:

المقصود بالسلف هم أهل القرون الثلاثة الأولى من عمر هذه الأمة الإسلامية[2] ؛ اعتماداً على حديث عبدالله بن مسعود في الصحيحين: « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»[3] وقد بيّن العلماء أن الخيرية تعود إلى القرب من ينبوع النبوة وتربية الرسول ﷺ، والصفاء والنقاء، فالسلف ليس مذهباً معيناً، ولا حكراً على فئة معينة، وإنما أهل السلف هم أهل المذاهب والآراء المعتمدة في إطار الكتاب والسنة.

وقدشاء الله تعالى أن تكتمل العلوم في هذه القرون الثلاثة، وأن تنشأ المذاهب الفقهية على أيدي الأئمة المجتهدين الكبار، وأن تتقدم فيها الأمة، وتتحقق خلالها الحضارة

---

(1) مجلة المجمع (العدد الحادي عشر ج 3، ص 5).

(2) يراجع: لتفسير القرون: فتح الباري (3/7 –7) ود.محمد سعيد رمضان البوطي: السلفية مرحلة رمنية مباركة، لا مذهب إسلامي، ط. دار الفكر بدمشق ص 9

(3) صحيح البخاري مع الفتح (3/7)

الإسلامية العظيمة، فأصبحت الأمة خلال القرون الثلاثة الأولى أمة قوية البنيان مهابة الجانب، متقدمة في العلوم والثقافة والفنون حققت أعظم حضارة في وقت قصير، وغدت رائدة العالم وقائدته، وقد تطور السلف خلال القرون الثلاثة أكثر مما تطور الخلف في عصورهم الطويلة[1]، وتطور الفقه الإسلامي النظري والعملي تطوراً عظيماً حيث استطاع أن يستوعب كل الحضارات والأفكار من خلال صياغتها بما يتفق ومبادئ الإسلام وقواعده وأحكامه، فلم يعجز عن إيجاد أي حل فقهي لأية مسألة أو نازلة مهماكانت درجة حداثتها وتعقيدها، كما استطاع الفكر الإسلامي أن يبقى صامداً بثوابته، وأن يتطور من خلال البناء والرد على كل الأفكار المخالفة والزندقة، والسفسطه، مستعيناً بالنقل الصحيح والعقل السليم للوصول إلى القناعة الكاملة والاطمئنان التام، والأخذ بعنق النصوص وليها في سبيل دعم رأي معين.

ومن جانب آخر فإن القرون الثلاثة كانت تتسم بالبساطة واليسر في المسائل الفقهية، فكان منهجها قائماً على فقه التيسير المؤهل ـ بل كما يقول شيخنا القرضاوي ـ كان الرسول ﷺ قدوة الميسرين في الأحكام، والمبشرين في الدعوة إلى الله، «فما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلاّ أخذ بأيسرهما ما لم يكن إثماً»[2] ثم سار الصحابة والتابعون على هذا المنهج، وبالأخص الخلفاء الراشدون، ولكن كلما جاء جيل بعدهم أخذ بالأحوط، فالأحوط، حتى تجمعت لدينا مجموعة كبيرة من الأحوطيات[3].

وقد أثبت فضيلة الدكتور البوطي أن السلف تطوروا في عهدهم القصير أكثر مما تطور الخلف في عصورهم الطويلة، وأنهم التزموا بالثوابت واختلفوا في غيرها، لذلك اختلفت فتاواهم حتى في المناهج، فكان منها ما هو أقرب إلى الانضباط الحرفي بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة، ومنها ما كان أقرب إلى الاعتماد الأكثر على الرأي والاجتهاد إضافة إلى أن دائرة الاجتهاد تتسع كلما كثرت المستجدات والنوازل وذلك بعد أن حكم الإسلام بلاد الفرس والرومان وما كانت تفوز به من مظاهر المدنية والحضارة، وما تنطوي عليه من أصول المعايش والأنظمة والعادات الغربية[4].

ولأجل فقه الصحابة والتابعين بالثوابت والمتغيرات لم تكن مسألة تكفير المختلفين شائعة عندهم، فقد خرجت جماعة من جيش الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ عليه وكفروه ؛

---

(1) د. البوطي: المرجع السابق ص 9

(2) الحديث رواه البخاري ـ مع الفتح ـ (524/10) ومسلم (1813/4)

(3) كلمة فضيلته في افتتاح الدورة العاشرة للمجلس الأوربي للإفتاء والبحوث في الفترة 24—2003/1/27

(4) د. البوطي: السلفية مرحلة زمنية مباركة، لا مذهب إسلامي ص 32 ـ 84

لأنه احتكم إلى الحكمين في معركة صفين، ومع ذلك لم يحكم علي ـ كرم الله وجهه ـ ولا صحبه بكفر هؤلاء الخوارج[1] بل جعل لهم أحكاماً خاصة بالقتال تسمى أحكام البغاة[2].ومن جانب آخر فقد ظهرت من الفرق والجماعات مثل المعتزلة (بجميع فرقها التي تزيد على عشر) والجبيرية بفرقها، والخوارج بفرقها الكثيرة، والمرجئة وصنوفها الكثيرة، والشيعة وفرقهم المتعددة[3]، فإن علماء الأمة لم يحكموا بكفر هؤلاء بل فتحوا باب الرأي لحل المشكلات وفتحوا أبواب النقاش والحجاج ومجادلة المبطلين والمرتابين بالأساليب والموازين التي يعرفونها كمال قال علي رضي الله عنه: «كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[4].

علاقة فقه الثوابت والمتغيرات بتوحيد الأمة:

تظهر علاقة فقه الثوابت والمتغيرات بتوحيد الجماعات والمذاهب والأحزاب الإسلامية من خلال ما يأتي:

أولاً: أن تلك الثوابت القواطع بمثابة المبادئ المشتركة والمنهاج السليم، والشرعية المتفق عليها عند جميع الطوائف الإسلامية والجماعات الإسلامية، وبمنزلة الدين المشترك، وأن من لم يعترف بهذه الثوابت فهو خارج عن الإسلام مارق في الضلالة، وليس حديثنا مع هؤلاء الذين لا تجمعهم تلك الثوابت والقواطع، وإنما حديثنا مع من يلتزم بهذه الثوابت القاطعات في الإسلام ولكنه يختلف في الفروع والوسائل ونحوها، يقول ابن تيمية: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنه، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض... وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء...، والتنوع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب تارة أخرى...، فالمذاهب والطرايق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء

(1) الملل والنحل للشهرستاني (ت548هـ) ط.مصطفى الحلبي بالقاهرة (114/1) والكامل للمبرد، ط.الحلبي (919/3) وناصر السابعي: الخوارج والحقيقة الغائبة ط.عمان ص 139 ـ 188 ويراجع: د. نعمان السامرائي ط المنارة: التكفير ص 27

(2) يراجع: كتاب البغاة في كتب المذاهب الفقهية، ومصطلح (البغي) في الموسوعة الفقهية الكويتية

(3) الملل والنحل للشهرستاني (43/1 – 186)

(4) يراجع: د. البوطي: السلفية مرحلة زمنية مباركة، لا مذهب إسلامي ص 25، وأثر علي رواه البخاري موقوفاً عليه.

ليكونوا مستمسكين بالملة والدين الجامع... واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان بعد الاجتهاد التام - هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج للأنبياء، وهم مثابون...»[1].

فعلى ضوء ذلك تجتمع الأمة الإسلامية على هذه الثوابت، وتتعاون فيما بينها فتتعارف، وتتحد، وتجعلها قاعدة لانطلاقتها، وصخرة صلبة لتكوين علاقاتها عليها، فهي القاعدة المشتركة المتفق عليها، والمعترف بها، فإذا كانت أوربا الغربية اتحدت على قاعدة السوق المشتركة والمصالح الاقتصادية المشتركة، وخطت كل هذه الخطوات من أجلها، أو ما تكفي كل هذه الثوابت المشتركة مع المصالح المشتركة لتجميع الأمة الإسلامية وتدفعها نحو الوحدة العملية؟

ثانياً: من خلال فقه الثوابت والمتغيرات يتم اعتراف كل جماعة بالأخرى وكل طائفة بالثانية ما دامت الثوابت مشتركة، وما دامت المتغيرات مقبولة ومشروعة بل مطلوبة، وبالتالي يكون من الطبيعي أن يعذر بعضهم بعضاً، أو يقع السعي بالحوار والجدال الأحسن للوصول إلى الأحوط والأفضل، فأعظم المشاكل بين المسلمين أن بعضهم لا يعترف بالآخر، فإذا وجدت التوعية بفقه الثوابت والتغيرات اعترف بعضهم ببعض. ومن تلك المشاكل افتقاد المعرفة المتبادلة بآراء المذاهب بصفة مباشرة، وحمل كل طرف صورا مغلوطة عن الطرف الآخر، أو ناقصة أو غير دقيقة، كأن يُحمل رأي شاذ لشخص ما على كل المذهب الذي ينتمي إليه، أو ما شابه ذلك.

ثالثاً: أنه من خلال فقه الثوابت والمتغيرات يعلم أن الخلافات الكثيرة ما دامت في نطاق المتغيرات تكون مقبولة شرعاً.

وأخيراً فإن معرفة الثوابت المشتركة بين الجماعات والطوائف الإسلامية سوف تقربها فيما بينها، وتؤدي إلى التعاون البناء ورفض العداء والتوتر.

وقد بيّن الشيخ القرضاوي أهمية التعاون في القضايا المتفق عليها وضرورة تركيز البحوث عليها، وإقامة الدروس فيها، وإدارة الحوار في شأنها، فيقول: «وأنا لا أكره البحث في المسائل الخلافية بحثاً علمياً مقارناً. ولكن الذي أكرهه أن يصبح البحث في المسائل الخلافية أكبر همنا ومبلغ علمنا وأن نضخمها حتى تأكل أوقاتنا وجهودنا وطاقاتنا... وأن يكون ذلك على حساب الاشتغال بالقضايا الأساسية».

(1) مجموع الفتاوى (19/117 — 118 , 126 — 128)

ثم ذكر بعض الأمثلة حيث ألف أحدهم رسالة سماها: «نهي الصحبة عن النزول على الركبة» وهو أمر يتعلق بهيئة الصلاة... وأحدهم: (الواحة في جلسة الاستراحة).
فمشكلة الأمة في تضييع الأمور المتفق عليها من جميع مذاهبها ومدارسها وفي تعطيل الشريعة وانهيار الأخلاق وتجميد الفكر وأمانة الحقوق، فهي ليست فيمن يؤول آيات الصفات... وإن مذهب السلف أرجح وأسلم - بل في الذي ينكر الذات والصفات جميعاً من عبيد الفكر المستورد من الغرب أو الشرق، وليست فيمن يؤول آية الاستواء على العرش بل فيمن يجحد العرش ورب العرش معاً...
ومن هنا كان الواجب على دعاة الإسلام الواعين أن ينبهوا على التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء، فإن هذا التعاون فريضة شرعية يوجبها الدين، وضرورة واقعية يحتمها الواقع الذي تمر به الأمة.
وأعتقد أن ما نتفق عليه ليس بالشيء الهين ولا القيل، إنه يحتاج منا إلى جهود لا تتوقف، وعمل لا يكل، وإرادة لا تعرف الوهن يحتاج منا إلى عقول ذكية وعزائم قوية وأنفس أبية وطاقات بناءة... حرام على الجهات الإسلامية أن تعترك فيما بينها على الجزئيات وتدع تلك الثغرات الهائلة دون أن تسدها بكتائب المؤمنين الصادقين[1].
وحقاً فإن الثوابت لهذا الدين كثيرة وهي مشتركة بين جميع الجماعات والمذاهب الإسلامية، في مجال أصول العقيدة، والقيم والأخلاق، وفي أصول المعاملات والفروع، وفي عالم السياسة، وفي التحديات التي تواجه الأمة، مثل تحدي الإلحاد والكفر والعلمانية، وتحدي الغزو الثقافي والفكري، وتحدي التغريب والتمييع، وتحدي الاستكبار العالمي، والحروب الصليبية الجديدة، وتحدي الهجمات الصهيونية على المسلمين واحتلالها لفلسطين ودرتها القدس الشريف، والهجمات الوثنية في كشمير، والهجمات الصليبية والإلحادية في الشيشان وفليبين؟
فما أحوجنا إلى التوحد والتعاون والتكامل، وتوزيع الأدوار، وقبول بعضنا بعضا، والاجتماع على ما يجمعنا من الثوابت والمواقف السياسية، وعدم إثارة الاختلافات، وبالأخص في هذا العصر الذي تكالبت فيه علينا الأعداء وتداعت كما تداعت الأكلة على قصعتها.
فهل نستوعب الدرس؟ ونحسّ بخطورة الموقف؟ ونترك حظوظ النفس؟ وندع الحزبية الضيقة إلى ساحة الإسلام الواسعة، إلى منهج السلف في التيسير في الأحكام، والتبشير

---

(1) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص 145 – 157

في الدعوة، وفي الصبر على المخالفين منا، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن ؟
هذا ما أرجوه وأسأل الله تعالى أن يجمع هذه الأمة على كل ما يحقق عزتها وكرامتها وتقدمها وازدهارها.

القاعدة الثامنة: التجميع على أساس الإسلام دون الحزبية والفئوية:

إن الأمة الإسلامية بعدما تفرقت على أساس الأحزاب والجماعات، والطوائف، والمذاهب لا يمكن أن تجتمع إلاّ على أساس الإسلام وحده دون قيد ولا زيادة ولا نقصان، على أساس إسلام الكتاب والسنة الصحيحة، والاجماع الصريح الصحيح، بعيداً عن الحزبية، والطائفية والمذهبية، والفئوية، وذلك لأنه من الصعب جداً إزالة هذه الفوارق، لذلك فالعلاج ـ كما قلنا ـ هو الالتفاف حول اسم الاسلام الجامع للجميع وقبول الآخر مع اجتهاداته، أي التعاون فيما أجمعت الأمة عليه، وأن يتسامح، أو يعذر بعضنا البعض فيما نختلف فيه، وما على الأحزاب والجماعة الإسلامية إلا أن تكون وسائل لخدمة الأمة، وبرامج لتحقيق قوتها، ومناهج لتطويرها وتنميتها.

ثالثا : وجود مشروع استراتيجي متكامل قائم على التوازن بين القوة والرحمة

إن العالم اليوم تتحكم فيه بعض الدول والشعوب من خلال المشروعات الاستراتجية والفكر المنظم، لذلك يجب على الأمة أن تجتمع على مشروع استراتيجي واضح المعالم والخطوط من خلال علمائها وحكامها، وهذا المشروع الاستراتيجي يجب أن يكون واضحا قائما على البينات الواضحات والمقنعات، والداحضات بقوة للمشاريع المناهضة ويكون أهم معالمه ما يأتي :

1- التوازن بين القوة والرحمة، وبين الحقوق والواجبات، وبين الفرد والجماعة والدولة، وبين الحرب، والسلم، بل التوازن في كل شيئ، والعدل والوسطية في كل شيئ.
2- إعداد الامة وتربيتها لتصبح أمة القوة والقدوة في القيم والرحمة والخير للعالمين، ولتكون صالحة لحمل الأمانة بأن لا تكون جاهلة ظالمة، بل تكون عالمة عادلة.
3- تهيئة الجو المناسب للإبداع من خلال إصلاح النظام السياسي والتعليمي
4- التوريث، أي أن يقوم كل جيل بتوريث العلم والحضارة والابداع والقوة والخير الى الجيل الآخر الذي يجب عليه هو أيضا أن يزيد فيه، ثم يورثه للجيل اللاحق، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ (فاطر : 32)

وهكذا يظهر الجيل الذي يمسك بمفاتيح القوة والخير والرحمة بإذن الله تعالى، كما ظهر جيل صلاح الدين الذي بدأ الإعداد له منذ عصر حجة الاسلام الغزالي، والجيلاني، ثم نورالدين الزنكي، حيث قام الجيل الأول بوضع مشروع خالص لإعادة الأمة، وإحيائها، وإحياء علومها وحضارتها... على العقيدة والمبادئ والقواعد الصحيحة في الاسلام، ثم على بيان تهافت البنية الفكرية لجميع المشاريع المناهضة المضادة.

وهكذا وصلت أروبا من خلال توريث الأجيال، حيث قام الجيل الأول من الرواد بتهيئة الجو المناسب للابداع من خلال إصلاح النظام السياسي، والتعليمي، حيث قد ظهرت قيم تقديس العمل، واحترام الوقت، والإبداع الفردي.

وجاء الجيل الثاني فورث كل ما سبق، مع التطوير الخاص بتحويل الإبداع الفردي الى المؤسسة، وهكذا جاء الجيل الثالث فورث ما خلفه السابقون، مع الإضافة والتطوير الى أن بلغ الجيل الحالي الذي تبنى الخطط والاستراتيجيات، مع التركيز على أحسن السيناريوهات في مجال الصناعة والزراعة والتجارة، كما هو الحال في مجال السياسة والاقتصاد...

وقد أشار القرآن الكريم في سورة (اقرأ) الى أن الأمة تحتاج في نهضتها وسعادتها في الدنيا والآخرة الى أهمية القراءة والعلم، وإصلاح النظام التعليمي، وإصلاح النظام السياسي بل أن آخر سورة (الأنبياء) قد أوضحت لنا شروط النهضة والتمكين إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الانبياء 105 – 107). فقد أشارت هذه الآيات إلى ما يأتي:

1- أشارت الى أن هذا التمكين في الأرض يتم من خلال التوريث، وربما تظهر أن العلاقة بين ما ذكرته السورة من الأنبياء، وما ختمته برسول الرحمة للعالمين (محمد ﷺ) هو ذلك التوريث المطلوب للمصطفى، حيث يقول تعالى في آية أخرى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (فاطر 32) وبالتالي فإن خاتم الأنبياء المصطفين يرث كل تراث الأنبياء بدءا من علم آدم إلى صبر نوح وحججه، وعزم موسى وصفح عيسى، وفهم داوود وسليمان، وكذلك الحلول التي حمّلها الله تعالى لجميع الأنبياء، مثل الحلول للمشاكل الدينية، والسياسية، والأخلاقية والاقتصادية، ولذلك فهو يستحق أن يرث الأرض كلها.

2- الشرط الثاني للتمكين هو تحقق العبودية لله تعالى، وهي تتمثل في طاعة الله في جميع الأمور الدينية والدنيوية، وهذا شرط أساسي لتحقيق العدل المطلق، والالتزام بالقيم والأخلاق والسلوك الطيب.

3- الشرط الثالث: الاستعداد الكامل لحمل الأمانة، والصلاحية لتنفيذها، وهذه الأمانة هي الاستخلاف والتعمير على ضوء منهج الله تعالى من خلال الأخذ بسنن الله تعالى للنصر والقوة والحضارة...

4- الشرط الرابع: تحقق الرحمة للعالمين، فهذه الأمة هي أمة الدعوة الى الخير، وأمة الرحمة، وأمة الحياة قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ ﴾ (النحل: 30) وقال تعالى: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ ﴾ (الأنفال: 24)

بل إن الله تعالى أسسها بعد العبودية على خدمة الناس، وتقديم الخير لهم وبهذا نالت الخيرية ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: 110) أي أ خرجت لمنفعة الناس.

المحور الثاني

الأسس الفكرية والعقدية لقبول الآخر، والتعايش معه بسلام

• الاتفاق والمشاركة الطبيعية بين (الأنا المسلم) و(الآخر غير المسلم) مهما كان، ومقاصد الشريعة من ذلك
• الفروقات والاختلافات الطبيعية بين (الأنا المسلم) و (الآخر) ومقاصدها
• اعتراف الإسلام بكرامة الإنسان وحقوقه
• الاعتراف بوحدة الأديان السماوية ومنزلها الواحد
• الأصل في الاسلام السلام لا الحرب
• تقديم الصلح مع بعض الغبن على الحرب
• العدل للجميع
• الاعتراف بالاختلاف في الأديان والعقائد
• الحوار هو الأصل في حل المشاكل
• سنة التدافع
• موقف الاسلام من صراع الحضارات
• هل الصراع معدوم ؟

لقد بين الإسلام مجموعة من الأسس الفكرية والنظرية والعقلية، والدينية للمشاركة والاتفاق بين (الأنا المسلم) و(الآخر غير المسلم) وأصّلها تأصيلاً رائداً ورائعاً، تعتبر في غاية من الأهمية لقبول الآخر، كما بين مجموعة من الفروق والاختلافات الطبيعية والدينية، نذكرها هنا بإيجاز:

أولاً - الاتفاق والمشاركة الطبيعية بين (الأنا المسلم) و(الآخر غير المسلم)

1 - خلقنا الله تعالى جميعاً من أصل واحد، وهو التراب، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ (الحج: 5)

والآيات في هذا كثيرة، ثم من طين لازب ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال كالفخار، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ (الصافات: 11)
وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: 26) وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: 14).
وهذه المراحل لتكوين الإنسان من التراب إلى الطين، والطين اللازب، والحمأ المسنون، ثم الصلصال كالفخار، ثم نفخ الروح فيه لا يختلف فيها إنسان عن آخر.
2ـ أنا (المسلم)، والآخر (غير المسلم) خلقنا الله جميعاً من الماء سواء من حيث الأصل (وهو الماء)، أو من حيث الخلق المباشر (وهو المني) و(النطفة الأمشاج)
حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور: 54) ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (الفرقان: 54)
ويقول تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق: 5 - 6)
ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (السجدة: 8)
3 ـ أنا (المسلم)، والآخر (غير المسلم) نفخ الله تعالى فينا جميعاً من روحه، فأعطانا جميعاً هذه الكرامة، وميزنا بالعقل والإرادة واختصنا بالصفات الفاضلة، وأعطانا من الصفات ما نستطيع بها تعمير الكون فقال تعالى:
﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: 7 - 9). وهنا تأتي الكرامة لكل من فيه هذه الروح، فلا يجوز الاعتداء عليه، بل يجب احترامه وحماية حقوقه إلاّ في حالة الاعتداء، فحينئذ يكون الجزاء بالمثل والعدل دون تجاوز.
4ـ أنا (المسلم)، والآخر (غير المسلم) خلقنا الله جميعاً من آدم وحواء أي أن أبانا واحد، وأُمنا واحدة، وهذا ما دلت عليه الآيات الكثيرة، والأحاديث منها قول النبي ﷺ: «والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب»[1].
5ـ إن عقيدة المسلمين قائمة على أن البشرية جميعاً ربهم واحد وخالقهم واحد، ويشترك في هذه العقيدة جميع الأديان السماوية والمؤمنين بالله تعالى، وهذا ما أكده الرسول ﷺ.

(1) الحديث رواه أبو داود، والترمذي، وأحمد، انظر: سسن الترمذي، كتاب التفسير مع تحفة الأحوذي (155/9) وأحمد (261/2، 534)

6 ـ إن كل إنسان كامل عاقل (مكلف) يشترك مع الآخر في الهيكل والجسم بشكل عام، وفي المكونات الأساسية الخلقية وفي الأجهزة الفكرية والعقلية والنفسية بصورة عامة، وفي أصل العواطف والأهواء، والأحاسيس والمشاعر، فليس هناك إنسان من حجر، والآخر من حديد، والآخر من ذهب، وإنما الكل من أصل واحد مشترك في الثوابت الإنسانية خلقاً. ومهما حاول العنصريون إثبات شعب مختار بعرقه ودمه فإنهم لم تسعفهم العلوم والحضارة والتاريخ، حيث فشلوا في الاتيان على ذلك بدليل صحيح واحد.

آثار هذه المشتركات وفوائدها (مقاصد الشريعة منها):

لبيان هذه المشتركات في القرآن الكريم وتأصيله لها، وتأكيده عليها في أكثر من أية آثار كبيرة في نفسية المسلم الذي يقرأ هذه الآيات ويتعبد بتلاوتها وتطبيقها، حيث إنها تقربه من الآخر نفسياً (سايكولوجياً) فكما يثبت علم النفس كلما ازدادت الصفات المشتركة بين إنسان وآخر ازداد التقارب والتجانس والتعارف.

ومن هنا فإن ذكر هذه الآيات لم يأت عبثاً دون مقصد شرعي، بل إن من مقاصدها قبول الآخر باعتباره إنساناً، وباعتبار أن فيه جزءاً من روح الله تعالى التي نفخت فيه، إذن فهو أخوك في الإنسانية، إضافة إلى الاخوة في القرابة والنسب، ولذلك سمى الله تعالى النبي المرسل إلى قومه الكافرين بأخيهم فقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: 65) وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف: 73) وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف: 85) فالاخوة في الاسلام لا تنحصر في الاخوة الدينية، وإن كانت الأخيرة هي الأساس عند تعارضها مع غيرها.

ثانياً ـ الفروق والاختلافات الطبيعية:

مع كوننا جميعاً بشراً من آدم وحواء، فإنه توجد فروق جوهرية في عدة أشياء منها:

1 ـ أنا (بذاتي) مختلف عن غيري الآخر في ذاتيتي، وفي صفاتي الشخصية، وهذا ما أثبته العلم الحديث من خلال البصمة الوراثية التي بينت أن كل إنسان له ملفه الجيني الخاص الذي لا يشترك فيه مع شخص آخر، ولذلك عرفت الندوة الوراثية والهندسة الوراثية البصمة الوراثية بأنها: «البنية الجينية ـ نسبة إلى الجينات أي الموروثات ـ التي تدل على

هوية كل فرد»[1] وأقر المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الخامسة عشرة هذا التعريف، وأضاف بأن البحوث والدراسات تفيد بأنها من الناحية العلمية وسيلة تمتاز بالدقة لتسهيل مهمة الطب الشرعي، والتحقيق من الشخصية ومعرفة الصفات الوراثية المميزة للشخص. فالبصمة الوراثية أثبتت بشكل قاطع أن كل إنسان له شخصيته الجينية الخاصة به التي لا يشترك معه فيها أحد على مستوى مليارات البشر.

2- ومع أن هذا الإنسان له مشتركاته الخاصة مع أسرته وقبيلته وشعبه[2]، لكنه يختلف كذلك في الجوانب الآتية:

أ) الجانب الخلقي، حيث نحن مختلفون في البنية والأشكال والصور والألوان والألسنة، والقدرات المادية.

ب) الجانب المعنوي، حيث يختلف في القدرات العقلية والفكرية، وفي مقدار الأحاسيس والمشاعر والعواطف ونحو ذلك.

ويظهر لي أن من مقاصد الشريعة في ذكر هذه الاختلافات والفروقات الطبيعية، التمهيد النفسي والديني لقبول الاختلاف، واعتباره أمراً عادياً، إضافة إلى الاستفادة من هذه الفروقات للتكامل والتنوع، وتوزيع الأدوار.

ثالثاً. الاختلافات الفكرية والدينية والعقدية:

إن من سنن الله تعالى أن الناس (الأنا والآخر) مختلفون في الأديان والأفكار والأيدلوجيات والتصورات، فهناك العشرات بل المئات بل الآلاف من الأفكار والأديان والتصورات والمذاهب الفكرية والتوجهات المختلفة في مختلف جوانب الحياة.

وهذا الاختلاف هو من إرادة الله تعالى ومن سننه الماضية حيث جعل الناس مختلفين في قضائه الأزلي، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم: 22)

وفي نطاق الاختلاف في الأديان والمذاهب والآراء يقول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ

---

(1) الندوة الوراثية والهندسة الوراثية التي عقدت بالكويت برعاية المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الفترة 23 ـ 25 جمادى الآخرة 1419هـ الموافق 15 اكتوبر 1998م

(2) يراجع: د. علي القره داغي: البصمة الوراثية، وآثارها الفقهية، بحث قدم إلى الدورة الخامسة عشرة للمجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ص 10 وما بعدها، ومراجعه العلمية

بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (البقرة: 213) وبين الله تعالى أن سننه تقضي وجود هذا الاختلاف حيث يقولً الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (هود: 118 - 119)

ثم كرر ذلك في سورة النحل فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (النحل: 93)

وفي سورة الشورى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الشورى: 8)

ويقول تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾ (المائدة: 48) حيث تدل هذه الآيات بوضوح على أن هذا هو شأن الإنسان، كما يفهم منه قبول هذا الاختلاف مع السعي لتقليله.

ولكن هذه الاختلافات تقل أو تكثر، تضعف أو تشتد، تصغر أو تكبر حسب نسب مختلفة وفئات متنوعة بين (الأنا) والآخر:

أ ـ فأنا مع الشخص الذي لا يؤمن بأي دين، تكون المسافة بيني وبينه أكبر بكثير من غيره، ولكن تجمعنا الصفات المشتركة السابقة، بالإضافة إلى كوننا نشترك في البحث عن الحقيقة.

ب ـ وأنا مع الشخص الذي يؤمن بالله تعالى مطلقاً تكون الفوارق بيني وبينه أقل من فئة الذين لا يؤمنون، ولكنها أكبر من فئة أهل الكتاب.

ج ـ وأنا مع من هو من أهل الكتاب، تكون الفوارق أقل بالنسبة للفئة السابقة، وأكبر بالنسبة للفئة اللاحقة، ثم إن داخل أهل الكتاب تكون المسافة والفوارق بيني وبين النصارى أقل من المسافة والفوارق بيني وبين اليهود.

د ـ وأنا (المسلم) مع غير المسلمين المحاربين تكون العلاقة بهم تحكمها ظروف الحرب ولكن مع المبادئ والأخلاق الإسلامية التي تحكم الحرب في الإسلام، وأما مع غير المسلمين (الذميين والمعاهدين) فالعلاقة تقوم على الحقوق الكاملة لهم على ضوء المبادئ الإسلامية العظيمة في هذا المجال.

وكذلك فإن علاقتي (أنا المسلم) في ظل دولة غير إسلامية بيني وبينها ميثاق، وقامت بالواجب نحوي، تختلف عن غير ذلك، حيث إن علاقتي بها أكثر من العلاقات السابقة.

وأنا المسلم مع غير المسلمين المسالمين تكون العلاقة معهم هي علاقة الدعوة والإحسان والبر، والحفاظ على العقود والمواثيق.
هـ ـ وأنا مع المسلمين على مختلف مذاهبهم وطوائفهم أعتبر واحدا منهم، ولكن لست نسخة طبق الأصل لأي واحد منهم، بل بيننا مساحة ولو كانت صغيرة حسب عناصر الاتفاق والاختلاف داخل المذاهب الإسلامية والطوائف الإسلامية.

مقاصد الشريعة في بيان هذه الاختلافات:

يظهر لي أن من مقاصد الشريعة لبيان هذه الفروقات الدينية والعقدية بين المسلم والآخر هو ما يأتي:

1- معرفة هذه الحقائق لقبولها والتعامل معها بشكل صحيح.
2- أن يطبق على كل حالة من الحالات السابقة ميزانها الخاص، فالميزان الخاص بعلاقة المسلم بالكافر الملحد يختلف عن ميزان التعامل مع أهل الكتاب، كما أن ميزان الحرب هو غير ميزان السلم، وميزان الأقلية هو غير ميزان الأكثرية.
3- أن الاختلاف سنة من سنن الله تعالى، ومفهوم في ظل طبيعة الإنسان، حيث منحه الله تعالى العقل، والإرادة الحرة والاختيار، وبالتالي يكون من الطبيعي اختلاف إنسان مع آخر في فكره وعقيدته وتصوراته

رابعاً – الاعتراف بكرامة الإنسان وحقوقه:

اعترف الإسلام بكرامة الإنسان باعتباره إنساناً مع قطع النظر عن فكره وعقيدته، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: 70). كما جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض وزوده الإرادة والاختيار فقال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: 30) حينما تدخلت الملائكة لبيان الحكمة من ذلك أثبت لهم أنّ الإنسان أعلم منهم في مجال الاستخلاف والتعمير.
وقد أكرم الله تعالى الإنسان بالحرية في مجال العقيدة فقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256) وحرره من رق العبودية لغير الله، وحث على إعتاق العبد ومنع المثلة والتعذيب وحتى الترويع، وأعطى منزلة عظيمة لحرمات الإنسان وخصوصياته وحقوقه، وممتلكاته، وساوى بين جميع البشر إلاّ من خلال العمل الصالح فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: 13) وجعل المسؤولية شخصية فقال تعالى:

﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: 39). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ (الأنعام: 164).

خامساً: وحدة الأديان السماوية: وحدة المنزل والأصول

يُرجع الإسلام الأديان السماوية كلها إلى أصل واحد وهو الوحي الإلهي، وأن شرائع الله تعالى قد انبثقت من مشكاة نور واحد، ولذلك يدعو الإسلام أتباعه إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين، والكتب السماوية، والكتب المنزلة السابقة، فقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ (البقرة: 285)

وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ (البقرة: 136)

ويبين الله تعالى أنه شرع لهذه الأمة كل الشرائع الأساسية التي شـــرعها لبقية الأنبيـاء ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (الشورى: 13).

وقد ذم الله تعالى الذين فرقوا دينهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ (الأنعام: 159)

بل إن القرآن الكريم يدعو أتباعه إلى اتباع سنن المرسلين فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام: 90)

وأكثر من ذلك فإن القرآن الكريم جعل لفظ الإسلام اسماً مشتركاً لجميع الأديان السماوية السابقة وعلى ألسنة أكثر الأنبياء فيقول في شأن إبراهيم: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 131). وقال في شان يعقوب: ﴿ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: 133) ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ (آل عمران: 19)

وينتج عن ذلك:

1 ـ الاعتراف بالأديان السماوية الحقة، وبجميع الرسل والأنبياء الذين ذكرهم القرآن أو الذين لم يذكرهم، وفسح المجال لأصحاب الأديان أن يعيشوا في ظل الإسلام.

2 ـ التعامل مع غير المسلمين بالتسامح دون الإكراه والاعتداء، فقد قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256) وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ ﴾ (الغاشية: 21)

وقال تعالى محدداً وظيفة الرسول ﷺ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ (المائدة: 99) وقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾ (الشورى: 15) وقال تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ (الكافرون: 109) وقد أكد الله تعالى هذه المعاني في الآيات التي نزلت بالمدينة مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (آل عمران: 20)

ومن الناحية العملية كانت وثيقة المدينة التي تعتبر بمثابة دستور يحكم أهل المدينة الذين كانوا مختلفين من حيث الدين (الإسلام والشرك واليهودية) ومن حيث الجنس (القحطانيون والعدنانيون واليهود) حيث سوّت بين الجميع في الحقوق العامة والواجبات من حسن الجوار والتناصر وما يسمى في عصرنا الحاضر بحقوق المواطنة.

وقد ظلت الدولة الإسلامية تحافظ على حقوق الذميين والمعاهدين بالكامل، فكانت لهم مكانتهم، وبعض المناصب العليا حتى من الوزارات ونحوها[1]، يقول (لول ديورانت): «لقد كان أهل الذمة بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفلوا بكنائسهم ومعابدهم»[2].

سادساً ـ احترام النفس الإنسانية حية أو ميتة ولو كانت غير مسلمة

فقد دلت النصوص الشرعية على احترام الإنسان من حيث هو إنسان، كما دلت النصوص على احترام الإنسان وهو ميت أيضاً حتى ولو كان غير مسلم، فقد روى البخاري ومسلم بسندهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد، قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من

(1) د.يوسف أبو هلالة: تعامل المسلمين مع غيرهم ط. دار الضياء 2002 ص 55
(2) لول ديورانت: قصة الحضارة (131/13)

أهل الأرض ـ أي من أهل الذمة ـ فقالا : إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له إنها جنازة يهودي ! فقال : أليست نفساً »[1].

ويلحق بذلك عدم إكراه أحد على الاسلام ولو كان ولداً لأبيه المسلم، فقد ذكر الطبري والسيوطي بسندهما عن ابن عباس : «أن أبا الحصين الأنصاري كان له ابنان قد تنصرا قبل الهجرة ولحقا بالشام، ثم عادا إلى المدينة فلزمهما، وأراد إجبارهما على الإسلام فأبيا، ثم احتكم إلى رسول الله ﷺ ليكرهمها على الاسلام وكان حجة والدهما قوله : « يا رسول الله أيدخل بعضي النار، وأنا أنظر ؟ » فأنزل الله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة : 256) فخلّي سبيلهما»[2].

سابعاً : الأصل في الإسلام هو السلام لا الحرب :

الحرب في الإسلام لا يلجأ إليها إلاّ في حالة الضرورة، فهي ليست محبوبة من حيث المبدأ بل هي مكروهة في نفوس المؤمنين إذ قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة : 216) وهو ما يؤكده قوله تعالى : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ ﴾ (الممتحنة : 60)

وقد منّ الله على رسوله محمد وصحبه بأنه منعهم من الوقوع في الحرب فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ ﴾ (الفتح : 24)

وقال تعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥ ﴾ (الأحزاب : 25)

وتدل هذه الآية بوضوح على أن الإسلام دين سلام وعقيدة، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وهذا الرجاء من الله تعالى معناه القطع بتحققه، وهذا ما تحقق فعلاً حيث أسلمت قريش ومعظم القبائل المحيطة، ووقف الجميع تحت لواء واحد، وطويت الثارات والمواجد.

---

(1) صحيح البخاري، الحديث 1250، ومسلم الحديث 961

(2) تفسير الطبري ط.بيروت، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (3/20 ـ 22) وفي بعض الروايات : اسم الوالد هو " الحصين " والدر المنثور ط. دار الكتب العلمية / بيروت 2004م (1/582 ـ 585)

ثامناً: تقديم الصلح على الحرب حتى ولو كان الصلح فيه بعض الغبْن:

وقد أطلق الله تعالى الخير على الصلح فقال: ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ ﴾ (النساء: 128) وقال تعالى: ﴿ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: 224)

ولم يقل بين المؤمنين فقط، بل عمم الصلح والإصلاح بين الناس جميعاً، فذلك الخير والأنفع، قال تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ (النساء: 114)

وقد بين الإسلام خطورة الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح فجعله من الكبائر المحرمات الموبقات فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة: 205) وقال تعالى في وصف الكفرة المجرمين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (الشعرآء: 152).

والإصلاح هو رسالة الأنبياء، قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (هود: 88)

وقد جعل الله التوفيق حليف من يريد الإصلاح دائماً فقال تعالى: ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ (النساء: 35)، وربط الله تعالى بين الهلاك والإفساد وبين النجاة والإصلاح فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ (هود: 117)

وليس الصلح والإصلاح في الإسلام مجرد شعار، وإنما طبقه الرسول ﷺ في سيرته العطرة حيث حينما جاء للعمرة ومعه عدد كبير من صحبه الكرام منعهم قريش على الرغم من أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الهدف الأساس هو أداء العمرة، ولذلك أتوا محرمين، وساقوا الهدي حتى وصلوا حديبية، حيث بركت ناقته القصواء. ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إياها»[1] ثم حاول الرسول صلى الله ﷺ دخول مكة، ولكن قريش منعته، فأرسل رسله تترى لبيان موقفه لهم، حيث أرسل خراش بن أمية الخزاعي، فأرادت قريش قتله لولا أن منعهم الأحابيش، ثم أرسل عثمان بنٍ عفان فأبلغهم رسالة النبي ﷺ بأن الهدف هو زيارة الكعبة وتعظيمها، غير أن قريشاً أخرته حتى ظن المسلمون أنها قتلته، فدعا الرسول ﷺ

---

(1) رواه البخاري مع فتح الباري (329/5)

إلى البيعة تحت الشجرة[1] فبايعوه جميعاً على الموت سوى الجد ابن قيس (وكان منافقاً) ثم انتهى الأمر بالصلح الذي في ظاهره تنازل من طرف المسلمين لصالح المشركين، فمثلاً كتب علي بن أبي طالب عقد الصلح، وسطر بأمر النبي ﷺ وثيقة الصلح بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترض ممثل قريش سهيل بن عمرو فقال: « أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلاّ باسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: « اكتب باسمك اللهم. ثم اعترض سهيل على عبارة: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»حيث قال سهيل: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبدالله » فاعتذر علي بن أبي طالب عن مسح كلمة (رسول الله) فأخذ الرسول ﷺ الكتاب، فمحاها بيده[2].

ثم اعترض سهيل على بند: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به) حيث قال: «والله لا تحدث العرب أنا أخذنا ضغطة»[3] أي فرض علينا ذلك بالقوة.

ثم اشترط شرطاً تعسفياً غير عادل وهو: «أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلاّ رددته إلينا» في حين أن من عاد من المسلمين إلى قريش فإنها لا ترده[4].

ومع ذلك قبل الرسول ﷺ هذه الاتفاقية مع تذمر المسلمين منها حيث ضاقوا ذرعاً ببنودها، وأسلوب الإملاء والصياغة، حتى قال عمر له: «ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى، قلت فلِم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»[5].

ومما زاد الطين بلة أنه أثناء الاتفاقية جاء أبو جندل بن سهيل وهو مرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: «والله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً»، ففي صحيح البخاري: «وأبا سهيل أن يقاضي

(1) يراجع: فتح الباري شرح صحيح البخاري (439/7) وصحيح مسلم كتاب الإمارة (1409/3) ويراجع للمزيد: أ.د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ط.قطر (434/2 — 453)

(2) صحيح مسلم، كتاب الجهاد (1410/3 — 1411)

(3) مصنف عبدالرزاق (343/5)

(4) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ المغازي (453/7)

(5) صحيح مسلم (1412/3)

رسول الله ﷺ إلاّ على ذلك، فكره المؤمنون ذلك وامَّعضوا، فتكلموا فيه، فلما أبى سهيل... كاتبه رسول الله ﷺ... ورد أبا جندل إلى أبيه... ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلاّ رده في تلك المدة وإن كان مسلماً...»[1].

وقد غضب المسلمون نفسياً من رد المسلمين الفارين بدينهم حتى قالوا: يا رسول الله تكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»[2].

هذا الصلح الذي أنجزه الرسول ﷺ بهذه الشروط وفي ظل حنق المسلمين وغضبهم إن دل على شيء فإنما يدل على مدى أهمية الصلح لدى الرسول ﷺ بل لدى الإسلام حيث نزلت الآيات من فوق سبع سموات سمته بالفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) حتى قال الرسول ﷺ: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ ﴾ (الفتح: 1)

وحقاً كان هذا الصلح فتحاً عظيماً للقلوب حيث دخل في الإسلام من بعد الصلح عام ست من الهجرة إلى عام فتح مكة في ثمان آلاف مؤلفة، حيث جاء الرسول ﷺ في صلح حديبية ومعه حوالي 1500، في حين جاء في فتح مكة ومعه ثمانية آلاف.

وقد كان الرسول ﷺ من أشد المتمسكين بتنفيذ بنود العقود معه ـ كما سبق ـ والمحافظين عليه، حتى إن بعض شباب قريش الطائشين أرادوا أخذ معسكر المسلمين غرة، وكان عددهم ثمانين شاباً، لكنهم أسروا، فعفا عنهم الرسول ﷺ وأطلق سراحهم[3] مع أنه كان بالإمكان أن يجعل ذلك سبباً لنقض الاتفاقية، كما عفا عن سبعين أسيراً أسرهم المسلمون بعد الصلح، وعن أربعة حاولوا الإيقاع بالرسول فأخذهم سلمة بن الأكوع[4].

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسللين يريدون غرّة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سَلَماً ـ أي أسرهم ـ مسلماً فاستحياهم، فانزل الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (الفتح: 24)

---

(1) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ كتاب المغازي (453/7)

(2) صحيح مسلم (1412/3)

(3) صحيح مسلم، الجهاد (1442/3)

(4) انظر: تفصيل بنود الصلح في صحيح مسلم (1433/3 – 1441) الحديث 1807، والسيرة الصحيحة (446/2)

وفي هذه الآية دلالة أخرى على أهمية الصلح وعدم الوقوع في الحرب حيث إن الله تعالى امتن بذلك على المؤمنين، مما يدل على أنه من النعم الكبرى، وأن الحرب من حيث هي ليست محببة في الإسلام. يقول الشيخ محمد عبدالله دراز: «ومن هنا نرى أن الحرب في نظر الإسلام شرّ لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح»[1].

تاسعاً: مبدأ العدل والقسط للجميع [2]

يعتبر هذا المبدأ في الإسلام من أعظم المبادئ التي تقوم عليها الشريعة، بل تقوم عليه السموات والأرض، ولذلك تكرر لفظ العدل ومشتقاته في القرآن الكريم ثمان وعشرين مرة، كما ذكر رديفه (القسط) في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة تناول القرآن الكريم خلالهما أهمية العدل والقسط، حيث أمر بالعدل والإحسان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ (النحل: 90) وقال تعالى: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ (المائدة: 8) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ ﴾ (الأنعام: 152)

وقال تعالى: ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ ﴾ (الشورى: 15) وشدد في حرمة عدم العدل مع المخالفين ولو كانوا أعداء فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ (المائدة: 8) وأمر المسلمين أن يكون حكمهم قائماً على العدل بين الناس جميعاً، بل جعل العدل أساساً، بل جعل العدل أساساً للحكم الإسلامي، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (النساء: 58)

---

(1) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبدالله دراز، ط. دار القلم بالكويت عام 1979 ص 142

(2) يقول أبو البقاء العكبري في الكليات، ط.مؤسسة الرسالة ص 150: (الاعتدال هو توسط حال بين حالين في كم وكيف) ويقول في ص 639: (العدل ضد الجور..؛ والعدالة لغة الاستقامة، وفي الشريعة عبارة عن الاستقامة على الطريق الحق بالاختيار) وذلك بالاجتناب عن الهواء، ويقول في ص 733: القسط بالكسر العدل، وبالضم الجور) والقسطاس هو الميزان الدقيق للاحتراز عن الزيادة والنقصان، وجاء في معجم الوسيط، ط. قطر. ص 588: (العدل: الانصاف، وهو إعطاء المرء ماله، وأخذ ما عليه) وفي ص 734: (القسط: العدل، وهو من المصادر الموصوف بها، يوصف به الواحد، والجمع، يقال: (ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط... والقسطاس: أضبط الموازين وأقومها)

وشدد الإسلام في استنكار اتباع الأهواء والرغبات والمصالح الشخصية لما يؤدي إليه ذلك من ترك العدل فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ (النساء: 135)

وأمر بالعدل حتى مع البغاة الخارجين على الدولة المقاتلين فقال تعالى: ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا وَأَقْسِطُوٓا۟ بِٱلْعَدْلِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجرات: 9)

بل إن الله تعالى نهى عن التعدد بين النساء إذا أدى إلى الجور وعدم العدل فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ (النساء: 3) وجعل العدل شرطاً في قبول الشهادة والحكم ونحوهما فقال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (الطلاق: 2)

وتكرر لفظ (القسط) ومشتقاته في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة، حيث أمر الله تعالى فيها بالقسط مطلقاً أي العدل فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (النساء: 135) وبالقسط في الحكم فقال تعالى ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: 42) وبالقسط في النزاعات حتى مع الخارجين عن القانون فقال تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات: 9)

وجعل الله مصير هؤلاء الذين يقتلون العادلين إلى النار والعذاب الأليم فقال تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (آل عمران: 21)

وامر ان يكون الوفاء في الكيل والوزن في الماديات والمعنويات بالقسط والعدل فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ (الأنعام: 152) وقال تعالى: ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (الشعراء: 182)

ومن الناحية العملية شهدت السيرة النبوية العطرة وتعامل الرسول ﷺ مع الناس جميعاً أروع الأمثلة في العدل والقسط، وكذلك سيرة خلفائه الراشدين.

عاشراً: الاعتراف بالاختلاف والتنوع:

من واقعية الإسلام اعترافه بالاختلاف في العقائد والأفكار والألوان والأطياف، على الرغم من أنه ينشد وحدة الأمة ويريد لهم الخير كله، حيث يقول القرآن: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (البقرة: 213)

أي بعد ذلك اختلفوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة: 213)

وبعد أن ذكر الله تعالى اليهود والنصارى واختلافهم قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ (المائدة: 48).
وقد أكد القرآن الكريم أن الاختلاف أحد المقاصد المعتبرة للابتلاء، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: 118 - 119)
وهذه الآيات الكثيرة ومثلها من الأحاديث النبوية تهيئ نفوس المسلمين لقبول الآخرين المختلفين معهم عقدياً وفكرياً وأصولياً وفرعياً، والتعايش معهم بأمن وأمان، وهذا ما حدث طوال التأريخ الإسلامي، حيث عاش غير المسلمين في أكناف الدولة الإسلامية القوية، وهم يتمتعون بكامل حقوقهم بل تقلدوا مناصب رفيعة في ظلها، ولم يحدث مثل ذلك في ظل الإمبراطوريات الدينية الأخرى مثل الدولة الرومانية التي كانت تضطهد اليهود، وغير النصارى، ثم لا ينسى التأريخ ما فعل الصليبيون بالمسلمين واليهود في الأندلس.

حادي عشر: الحوار لا الصراع هو الأصل في حل المشاكل، والتعامل:

يركز القرآن الكريم على تعويد الأمة على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالحوار، والجدال بالتي هي أحسن، دون القهر والاستبداد والصراع، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل: 125).
ويؤكد القرآن الكريم ذلك مرة أخرى بالنهي عن الجدال مع أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن فيقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: 46)
ولم يستعمل القرآن الكريم لفظ الصراع، وإنما استعمل لفظ الدفع والدفاع والمدافعة بدل الصراع[1] فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الحج: 38)وقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 251)

---

(1) لم يرد في القرآن الكريم لفظ: صرع، ولا الصراع، ولا مشتقاته إلاّ لفظ: صرعى في سورة الحاقة الآية 7: (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ﴾ (الحج: 40)

حيث تدل هذه الآيات على سنة التدافع، وأنها من سنن الله تعالى حيث يدفع الله الظالمين ولكنها لا تدل على تأصيل فكرة الصراع في قلوب المسلمين بأن يتخذوا الصراع منهجاً في تعاملهم، كما هو الحال بالنسبة لسنة الخلاف والاختلاف فهي سنة، ومع ذلك لا ينبغي للمسلمين أن يتخذوه منهجاً لهم في التعامل.

وإنما الذي أكد عليه القرآن لهذه الأمة في كيفية التعامل مع المخالفين في غير حالة الحرب هو منهج الدفع بالتي هي أحسن ما دام ذلك ممكناً، فقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (المؤمنون: 96) وفي سورة فصلت: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: 34- 35)

ثاني عشر: ثناء الإسلام على الأديان السماوية وكتبها وأنبيائها، ثناءً عاطراً

لقد أولى القرآن الكريم عناية قصوى بالثناء على سيدنا إبراهيم الذي هو جد جميع أنبياء بني اسرائيل (اليهودية والنصرانية) وبأولاده وذرياته، وبسيدنا موسى حيث ذكره القرآن الكريم قصصه في عدة سورٍ حتى بلغ تكرارها موجزاً ومختصراً أربع عشرة مرة، كما أثنى القرآن الكريم ثناءً عاطراً على آل عمران وسمى سورة باسمهم، وعلى مريم التي أيضاً سميت باسمها سورة خاصة، وعلى السيد المسيح (عليهم السلام جميعاً) في عدة آيات وسورٍ، فسماه القرآن: كلمة الله، ووصفه بأوصاف عظيمة، بل إن الله تعالى أثنى ثناءً عاطراً على بني اسرائيل عندما كانوا يحملون الدعوة إلى الله تعالى حتى فضلهم على أهل زمانهم فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 47) كما أثنى على النصارى بصورة عامة فقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (البقرة: 82)

وكذلك ذكر القرآن الكريم التوارة والانجيل بأوصاف جميلة وعظيمة فقال تعالى في وصف التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ (المائدة: 44)

وقال في حق الانجيل ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: 46)

بل إن الاسلام يشترط لصحة العقيدة واكتمال أركان الإيمان أن تؤمن بجميع الرسل فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: 285)

كل ذلك حتى يؤدي إلى كسب اليهود والنصارى، وإبعادهم عن شبه الصراع، ولكنهم لم يولوا العناية المطلوبة لكل ما جاء في القرآن العظيم حول ما جاء عن الأديان السابقة، وكتبها ورسلها، وحول بني اسرائيل، والنصارى...

ثالث عشر: دقة القرآن في عدم تعميم الحكم على الآخرين

ومن أعظم الوسائل المقربة أن القرآن الكريم ترك مجالاً كبيراً للحوار والتعايش مع الآخرين، حيث لم يحكم عليهم حكماً عاماً في سوء التعامل أو عدم الصلاح، وعدم الأمانة، فمثلاً قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران: 113 - 114)

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ (آل عمران: 75)

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (آل عمران: 110) فهذه الآيات تهيئ الأجواء المناسبة للتعايش والتحاور، والتعاون.

رابع عشر: توسيع دائرة المشاركة بين المسلمين (نحن) وغيرهم (الآخر) لتشمل الجميع حتى الملحدين

فإذا كان الإسلام أعطى هذه المساحة الكبيرة المشتركة للعلاقة بين المسلمين (نحن) وأصحاب الديانات السماوية (اليهود والنصارى) فإن هذا لا يعني أن الإسلام أعلن الحرب مطلقاً على غيرهم من الملحدين أو المشركين، والوثنين، ونحوهم، بل إنني أستطيع القول: إن سياسة الإسلام هي توسيع دائرة التعايش لتشمل الجميع ـ ما عدا المعتدين ـ.

ومن هذا الباب فإن الله تعالى يدعو جميع المخالفين ـ بمن فيهم الملحدون والوثنيون والدهريون...، إلى قاعدة مشتركة بين بني البشر جميعاً، وهي البحث عن الحقيقة فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ ﴾ (سبأ: 24 - 25).

فهذه الآية الكريمة دعوة صريحة للجميع بدون استثناء للبحث عن معرفة الحقيقة والهداية، والباطل، والضلالة، ولذلك لم يحكم القرآن عند الجدال بأن الإسلام هو الصحيح (مع أنه كذلك)، ولا على باطل المشركين وشركياتهم بأنه ضلالة (مع أنه كذلك) بل ترك الباب للحوار والنقاش.

ومن بديع هذا الأسلوب المعجز أنه دعا الرسول ﷺ وصحبه الكرام إلى وصف ما عندهم من الحق بفرضية وصف الإجرام، ووصف ما عند الكفرة بالفعل العادي حتى لو كان باطلاً وإجراماً لأنهم هم الذين يتحملون مسؤوليتهم، في حين لم يستعمل هذا الوصف بالمقابل للمقابل للدلالة على أن المحاور يجب عليه أن يحترم ما لدى الآخر، فلا يحكم عليه في البداية، وفي اعتقادي أن هذه الآية تعتبر أعظم قاعدة وأوسعها وأرقها وأعذبها، وأحكمها وأشملها في باب الحوار والتعايش.

والتحقيق أن الإسلام يعترف بمجموعة من دوائر الارتباط والوشائج وإن كان قد جعل وشيجة العقيدة والأخوة الإيمانية هي الأساس، حيث يريد من خلال التوسع في هذه الدوائر إيجاد أرضيات مشتركة للتقارب والتعايش والتعاون، والدعوة، وتلك الدوائر هي:

أ ـ دائرة الإنسانية حيث ينحدر الجميع من آدم وحواء؛ ولذلك يجيء الخطاب بـ: يا أيها الناس.

ب ـ دائرة القومية، حيث عبر القرآن عنها بالأخوة أيضاً ـ كما سبق ـ.

ج ـ دائرة من هم أهل الكتاب
د ـ وأخيراً دائرة الباحثين عن الحق مطلقاً.

خامس عشر: الجهاد لأجل الحرية الدينية

أن إعلان الإسلام الجهاد في أول آية تنزل فيه ؛ لأجل الحرية الدينية، والمعابد مطلقاً لا بدّ أن يأخذ حيزاً كبيراً في التعامل، حيث يقول الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (ا لحج: 39 ـ 40)

سادس عشر: القتال هو آخر مراحل الجهاد

أن في تركيز الإسلام ـ على أن الجهاد في سبيل الله ليس القتال فقط، بل القتال هو آخر المطاف بشروطه وضوابطه ـ إعطاءً لفرص أخرى من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ونحوها.

سابع عشر: مقصد الاختلاف هو التعارف لا الجهاد

أن مقاصد الشريعة في الاختلاف هو التعارف، وليس الصراع، والتناحر بنص القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: 13)

الخلاصة

إن هذه الأسس الفكرية والعقدية الكثيرة تؤثر بلا شك في نفسية المؤمنين للاندفاع نحو السلم والتعارف والتعايش وقبول الآخر، والتفاعل الحضاري الايجابي لخير الجميع، وهذا ما حدث في تأريخنا الإسلامي.

المحور الثالث:

علاقة المسلمين بغيرهم في حالة السلم

- السيرة والتأريخ
- ثلاثة مبادئ عظيمة موجزة في العلاقات الدولية في الإسلام
- الوثيقة أول دستور على مرّ التأريخ يعطي حق المواطنة للآخر
- التطبيقات العملية للعلاقات الدولية في حالة السلم
- حقوق غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية

السيرة والتأريخ: (نبذة من سيرة الرسول القائد ﷺ) مع الآخر في المدينة

نزل الإسلام لتنظيم علاقة الإنسان بربه، وبأخيه الإنسان مسلماً أو غير مسلم، وبالكون الذي حوله، ووضع لذلك منهجاً متكاملاً، ومبادئ عامة، وقواعد كلية صالحة لكل زمان ومكان، لما لها من قابلية للتطوير والمعاصرة مع الحفاظ على الأصالة والثوابت.

وفي الفترة المكية لم تكن هناك دولة، وإنما كانت العلاقة فردية، يدعو الرسول ﷺ الناس جميعاً إلى الدخول في دين الله والاهتداء بصراطه المستقيم، وإلى التوحيد، وبناء الإنسان على العقيدة الصحيحة، والتربية السليمة الشاملة لجوانب الإنسان الروحية والنفسية البدنية والاجتماعية...

وقد تحمل الرسول ﷺ وصحبه الكرام الكثير والكثير من الأذى النفسي والبدني في سبيل تبليغ الدعوة الحقة، وكان شعارهم ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (النساء: 77) والدعاء لهؤلاء المشركين الذين يؤذونهم: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وتأسست دولة الإسلام الأولى سعى الرسول ﷺ إلى تقوية المجتمع المدني والجبهة الداخلية من جانبين أساسين:

أ ـ الجانب الخاص بالمسلمين حيث قام بتوحيد أواصر الاخوة الحقيقية فيما بينهم من خلال المؤاخاة بين المهاجرين، ثم بين المهاجرين والأنصار حيث أشرك الأنصار حقاً إخوانهم المهاجرين في أموالهم، وفي نخيلهم وثمارهم [1].

ب ـ الجانب العام الشامل لكل من يعيش على أرض المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من خلال الوثيقة التي كانت الدستور لتنظيم العلاقة بين أهل المدينة على أساس المساواة في المواطنة في الحقوق والواجبات والدفاع عن المدينة ونحوها [2].

العلاقة مع قريش والدول المحيطة بها

1ـ كانت العلاقة بين الدولة الإسلامية الفتية وقريش، والقبائل المحيطة بها علاقة هجوم وحرب من قبلهم عليها، وكان موقف الرسول ﷺ موقف الدفاع عن الإسلام ودولته مع حرصه الشديد على نشر الدعوة أولاً والتصالح معهم، ولكنهم كانوا لا يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم.

2ـ موقف الرسول ﷺ مع الدول المحيطة بالجزيرة هو أن الرسول ﷺ دعا رؤساءها من خلال رسائل إليهم إلى الدخول في الإسلام، وحينئذٍ يبقون على حكمهم مع إجراء الإصلاحات والعدالة التي يقتضيها الإسلام، وكانت رسالة الرسول ﷺ هي توصيل الدعوة إلى العالم أجمع لتحقيق الرحمة العامة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء 107)

الدعوة العالمية، والاخوة الإنسانية حتى في حال الشدة والمحنة، أو النصر والقوة...

لم يغب عن بال الرسول ﷺ أن دعوته عالمية إنسانية، وأن رسالته رحمة للعالمين، وأن البشر جميعاً تجمعهم الأخوة الإنسانية، والمساواة في الأصل الواحد والكرامة، وأكد على هذه المبادئ والمعاني في حال الشدة والمحنة، وفي حال النصر والظفر والقوة، فقد قال في خطبة الوداع: «... والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب»[3] ثم قال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجمي، ولا لعجمي على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلاّ بالتقوى»[4].

قال ذلك الرسول ﷺ وهو في قمة انتصاراته وفتوحاته التي يتوقع من الإنسان العادي أن تدفعه نشوة النصر إلى التباهي والتفاخر، والخروج عن التوازن، فإذا به ﷺ يضمن هذه

---

(1) يراجع: أ.د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة ط.قطر (240/1)

(2) المرجع السابق (272/1 – 289)

(3) رواه الترمذي في سننه، تفسير سورة الحجرات (155/9 ـ 156) وأحمد: 361/2

(4) رواه أحمد: 411/5

المبادئ السامية في خطبة الوداع ووصيته الأخيرة ليتبين أن هذه الرسالة من عند الله تعالى نزلت رحمة للعالمين أجمعين، وأنها تريد الخير والمصالح والمنافع لهم جميعاً حتى يعيشوا في أمن وأمان ورفاهية وسلام، ويكون لهم حسن ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، وحتى الذي لا يريد الآخرة فالإسلام أعطاه أن يعيش في دنياه في أمن وأمان ما دام لا يظلم ولا يعتدي، ولا يفسد في الأرض.

الواقع العملي فيما فعله غير المسلمين مع المسلمين على مرّ التأريخ:

إن علاقة المسلمين بغيرهم ليست جديدة، بل نشأت منذ نشاة الإسلام في مكة المكرمة، حينما بعث الله رسوله الخاتم محمداً إلى الناس أجمعين، ولكنه كان وحيداً ثم آمن به أفراد معدودون من كل الفئات، فأوذوا في سبيل الله فصبروا حتى تمكنوا من الجزيرة، ثم من معظم الأرض بفضل الله.

وكانت العلاقة بين الرسول ﷺ وصحبه الكرام من جانب وبين المشركين في مكة المكرمة علاقة اضطهاد وظلم وإيذاء بالغ، ثم حرب ضروس، ومحاولة للقضاء التام والتصفية من قبل المشركين على الإسلام وأهله، وطمس معالمه، فقد قتلوا بالتعذيب عدداً من الصحابة الكرام، وحاولوا قتل الرسول ﷺ نفسه حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، ولم يتركوا رسول الله ﷺ فيها أيضاً، فجهزوا الجيوش للقضاء عليه تماماً، في بدر الكبرى، ثم في الأحزاب وغيرهما.

إذن كانت العلاقة بين المشركين وبين الإسلام في مكة وغيرها من الجزيرة علاقة حرب استئصالية ـ بكل ما تعني هذه الكلمة ـ وكان بينهما حرب لا يعترف فيها المشركون بأية مبادئ أو أخلاقيات وقت الحرب، وكان الرسول ﷺ وصحبه الكرام في موقع الدفاع عن النفس، وعن الحرية الدينية، وعن منع الفتنة في الدين.

ومع كل ذلك التزم الرسول ﷺ أن يجعل المدينة المنورة دار سلم وتعايش بين أهلها جميعاً، فأعطى الحرية الدينية الكاملة، فقام بوضع أول دستور في العالم يقر حقوق المواطنة لليهود من خلال الوثيقة ـ التي سنتناولها فيما بعد ـ ولكنهم نقضوا العهد، وحاولوا اغتيال الرسول ﷺ ولم يكتفوا بذلك بل خانوا فاتصلوا بالأعداء المشركين بل شجعوهم على الحرب، وساهموا معهم بالتأييد والتحريض، ثم بالفعل في محاولة القضاء المبرم على الرسول ﷺ وصحبه الكرام في غزوة الأحزاب، وارتكبوا بذلك الجريمة الكبرى التي تستحق أقصى العقوبات.

ومع هذه الأجواء المتوترة المشحونة بالظلم والقهر وإرادة الإبادة تنزل الآيات القرآنية الآمرة بالعدل والقسط وعدم الاعتداء إلاّ بمثله، بل الدفع بالتي هي أحسن، وبيان أن الكافرين ليسوا سواء.
ثم لما تكونت دولة الخلافة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ حافظت على مبدأ الحرية الدينية، وكرامة الإنسان وحقوقه.
فلم يسجلٍ التأريخ طوال فترة الحكم الإسلامي حالات الإكراه وإدخال الغير في الإسلام قهراً، وأكبر دليل على ذلك أن دولة الخلاقة الراشدة، ثم الأموية، والعباسية، والعثمانية حكمت معظم العالم عدة قرون، ومع ذلك بقيت فيها جميع الأديان، فلا يزال النصارى في العالم العربي (مصر والشام والعراق) ينعمون بحريتهم الدينية وكذلك اليهود إلى أن اختاروا الذهاب إلى فلسطين المحتلة، فلو كانت الدولة الإسلامية تستعمل العنف والإكراه للدخول في الإسلام لما بقوا فيها أو لأكرهوا على الإسلام، كما حدث مثل ذلك عكسياً في الأندلس حيث حكمها المسلمون ثمانية قرون، ومع ذلك بقي فيها المسيحيون بكثرة، ولما حكمها الصليبيون لم يتركوا مسلماً واحداً، أو يهودياً واحداً إلاّ أمام أحد الخيارات الثلاثة: القتل والتحريق، أو التنصير، أو الخروج فوراً، ولذلك صفيت لهم الأندلس خلال فترة وجيزة، ولم يبق فيها المسلمون حتى كأقلية، بل ولا أفراد.
وحتى في العصر الحديث فلننظر ماذا فعل الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي السابق، وفي يوغسلافيا بالمسلمين، وماذا فعل الصربيون بالمسلمين في البوسنة والهرسك، قتلوا منهم مئات الآلاف، واعتدوا على أعراض نسائهم بالعشرات...
ونحن هنا نذكر بإيجاز اضطهاد أهل الأديان بعضهم لبعض قبل الإسلام، وحقيقة الجزية التي أثيرت حولها الشبهات، ومصطلح الذمة التي هي تدل على أسمى المعاني، ولكن الإعلام المغرض صنع حولها حساسيات، واشكاليات، ثم العروج نحو ذكر بعض العهود التي كتبها الرسول ﷺ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

اضطهاد وحروب إبادة بين الأديان بعضهم لبعض قبل الإسلام:

وقد ذكر المؤرخون الصراعات الدينية، والاضطهادات التي وقعت بين الأديان السابقة، فقال توماس أرنولد: "يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطهم منذ أن صاروا رعية للمسلمين. وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى؛ إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة، وخضعوا لمعاملة خشنة

قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء قد مكنهم من أن يسيروا قدماً في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منهم إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي. وفي العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا، حتى إذا جاء القرن الحادي عشر كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار. وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على السواء، وكانت فضلاً عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضاً. وفي القرن الخامس الميلادي كان (برصوما) وهو أسقف نسطوري قد أغرى ملك الفرس بأن يدبر اضطهاداً عنيفاً للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلى مبادئهم.
ويقال أن عدداً يبلغ (7800) من رجال الكنيسة الأرثوذكسية مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا في هذا الاضطهاد، وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين. ولكن مبادئ المسلمين على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكيتهم لها."
"ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام – في مصر – لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد، وما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطريركية تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية ومنحوا امتيازات معينة)[1].

---

(1) أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم ورفاقه ط3 القاهرة مكتبة النهضة 1971م ص 79، ويراجع الدكتور عماد الدين خليل، بحثه الموسوم: المسلم والآخر: رؤية تأريخية، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة العدد 33 ـ 34 2003

ونضيف إليه أن المؤرخين يقولون: «إن الرومان هم الذين أكرهوا أهل مصر (الأقباط) على النصرانية، حيث يقول غوستاف لويون: « لقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط، والبؤس والشقاء الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان أهل مصر يقتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ...، ويحقدون على الروم، وينتظرون ساعة تحريرها من براثن القياصرة الظالمين »[1].

ولنذكر جزءاً مما ذكره الشيخ الحكيم العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله، في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

محارق المسلمين (هولوكست الأول) في الأندلس:

وأما ما فعله الصليبيون بالمسلمين عندما احتلوا الأندلس فيندى له جبين الإنسانية، فيكفي ما ذكره الأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه القيم: نهاية الأندلس وتأريخ العرب المنصرين، حيث وثق جرائمهم التي تجاوزت ما يسمى حرب الابادة بالوثائق العلمية[2] وما ذكره الأستاذ في كتاب الأمة، حيث نقتطف من هذين الكتابين بعض الوقائع البشعة والجرائم الارهابية والوحشية التي ارتكبت بحق المسلمين الذين عاشوا في الأندلس حوالي ثمانية قرون ونشروا العلم والحضارة والأنوار في أوروبا، وسمحوا للنصارى بالبقاء في الأندلس مع تمتعهم بكامل حريتهم، فلننظر ماذا فعلوا بالمسلمين عندما انتصروا عليهم.

فعندما انتصر فريديناند مع زوجته المتعصبة ايسابير على غرناطة (897هـ/1492م) كان القسيسون يطلبون منه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد في اسبانيا، وأن يخيرهم بين التنصير، أو التهجير إلى المغرب، وأنهم برروا له بأن ذلك ليس فيه نقض لعهوده المقطوعة منه لهم، بل حفاظ لحياتهم، إذ لا يمكن أن يعيشوا مع النصارى[3].

ولكن فرديناند الذي قطع الوعد للمسلمين بمنحهم حريتهم الدينية كان ينظر لتحقيق هذا الهدف القضاء المبرم على الثورات الإسلامية الداخلية ولذلك أعلن سياسته الخاصة بالتنصير عنفاً وإكراهاً مع بداية عام 1500م بدعم كبير من الكنيسة وكرادلتها، فأغلقت المساجد، ثم حولت الى كنائس، وجمعت عشرات الآلاف من الكتب الإسلامية

(1) لويون غوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ط. دار احياء الكتب العلمية بالقاهرة 1956 ص 336

(2) طبع القاهرة عام 1958

(3) د. عنان: المرجع السابق ص 297 — 300

وأضرمت فيها النيران في ميدان باب الرملة ـ أعظم ساحات غرناطة ـ وكذلك فعلوا في أنحاء مملكة غرناطة، حتى عمها التنصير بالقوة والتحريق، ومع ذك حدثت ثورات من المسلمين لكنها لم تكن متكافئة، فقام الجنود الصليبيون بقتلهم بوحشية وسبي نسائهم، وتنصير أطفالهم[1].

وفي 1501/06/20م أعلن هو وزوجته عن أن الله تعالى اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، ولذلك يحظر وجود المسلمين فيها، ثم لما تنصر المستضعفون بعد قتلٍ معظم الأقوياء وكان عددهم كثيراً خاف أن يقوموا بثورة في غرناطة، لذلك أصدر أمراً بمنعهم من الدخول في غرناطة، ومنعهم من السكنى فيها والإيواء إليها، ومن فعل ذلك عوقب بالموت والمصادرة[2].

وقد وصف صاحب: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر[3]، أحوالهم بكلمات مؤثرة مثيرة للشجون فقال: «ثم بعد ذلك دعاهم ـ أي ملك قشتالة ـ إلى التنصير، وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، إلاّ من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً وينطرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيالها من فجيعة ما أمرّها، ومصيبة ما أعظمها».

ثم بعد ذلك بدأت محاكم التفتيش للقضاء المبرم عليهم، واستئصال شأفة الإسلام في الأندلس كلها كالآتي:

1- الوشاية بمن يظن أنه بقي على الإسلام إلى القس الذي يحقق في الموضوع فيكتب تقريره القائم على الاعتراف أو الشهود، أو قناعته الشخصية بثبوت التهمة. وقد يتم

---

(1) المرجع السابق ص 301 ـ وما بعدها

(2) المرجع السابق نفسه

(3) بتحقيق ميللر غوتتغن ص 54 — 56 المشار إليه في: د. عماد الدين خليل: الدكتور عماد الدين خليل، بحثه: المسلم والآخر: رؤية تأريخية، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة العدد 33 ـ 34 2003

ذلك من خلال التحريات السرية التي تفرض من قبل القسيسين الحاقدين على الإسلام.

2- بعد وصول التقرير يصدر ديوان التحقيق (الكنسي المقدس) الأمر بالقبض على المتهم، فيزج في سجن الديوان السري الذي يوصف بأنه كان غاية في التعذيب والشناعة، ويوضع في الاغلال، وتصادر جميع أملاكه.

3- وفي هذا السجن يوعد السجين بالرأفة إذا اعترف، وينذر بالشدة والنكال إذا أنكر، لأن الديوان المقدس معصوم. وهي طريقة غادرة محيرة، فإذا اعترف قضى عليه بالعقوبة المناسبة إلاّ إذا اعترف بأنه مسلم فحينئذ يحكم عليه بالموت على الرغم من الوعد بالتخفيف، وإذا لم يعترف يحال إلى التعذيب المهين إلى أن يعترف، أو يموت به، وقد وصف لمورتني ـ أحد المؤرخين الغربيين ـ ذلك بقوله: «إن هذا التعذيب لا يمكن وصفه، حيث تلوث كثير من القضايا فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً، وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى تستعمل في محاكم التحقيق، ومنها ربط ساقي المتهم وذراعيه مع خفض رأسه إلى أسفل، ثم توضع في فمه من زلعة جرعات كبيرة، وهو يكاد يختنق... إضافة إلى استعمال الأسياخ المحمية للقدم والبطن...»[1].

4- بعد انتهاء التعذيب ـ إن عاش ـ يحمل ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التي وجهت إليه، ثم يقرر مصيره الأحبار والقسس دون تبليغه بالحكم الذي في الغالب هو الاعدام حرقاً في حالة ثبوت الكفر (أي الإسلام) ويتم الإعدام حرقاً مع مجموعات كبيرة في ميدان كبير، وحفلة كبيرة يشهدها الملك فرديناند الكاثوليكي الذي كان من عشاق هذه الاحتفالات الرهيبة.

5- كان قضاء محاكم التفتيش بطيئاً، وكان أعضاؤها يتمتعون بحصانة خارقة، ولذلك كانوا يمارسون اغتصاب البنات والزوجات دون أن تمسهم يد أو ينالهم عقاب[2].

ما حقيقة الجزية ؟

الجزية لغة: هي الجزاء، والجزاء هو المقابل[3].

والمقصود بها في عرف الفقهاء: المال الذي يؤخذ من أهل الذمة.

---

(1) د. عنان: المرجع السابق ص 304 — 322

(2) د. عنان: المرجع السابق

(3) القاموس المحيط، ولسان العرب، والمصابح المنير مادة " جزى "

فقد عرفها الشافعية بأنها : « المال المأخوذ بالتراضي لإسكاننا إياهم في ديارنا ، أو لحقن دمائهم وذراريهم وأموالهم ، أو لكفنا عن قتالهم »[1].

وبمثله أو قريب منه قال جمهور الفقهاء[2] وهذا المعنى قريب من معناه اللغوي.

وخلاصة التعاريف تدل على أن هذا المال يؤخذ من غير المسلمين الذين يعيشون في بلاد الإسلام في مقابل توفير الأمن والأمان ، ويمكن أن نقول : « إنه في مقابل حقوق المواطنة ، فكما أن الزكاة تؤخذ من أموال المسلمين المواطنين ، وصدقة الفطر على رؤوسهم ، فكذلك تؤخذ الجزية على الرأس ، والخراج من الأرض من غيرهم ، ويدل على ذلك أن بعض النصارى (بنو تغلب) لم يقبلوا باسم الجزية ، ورضوا بدفع الزكاة أو مضاعفتها ، فقبل منهم الخليفة الراشد عمرٍ بن الخطاب رضي الله عنه»[3].

ومن جانب آخر فإن دفع الجزية كان دليلاً واضحاً على الاعتراف بالدولة الإسلامية وسلطانها السياسي ، وكان في ذلك نوع من الاطمئنان من الطرفين.

وقد اختلف العلماء في بداية تشريع الجزية ، فذهب بعضهم إلى أنها كانت في السنة الثامنة من الهجرة ، وبعضهم إلى أنها كانت في السنة التاسعة[4] ، حيث أخذت من نصارى نجران ، ومجوس هجر ، ثم من أهل أيلة ، وأذرح ، وبعض القبائل اليهودية في تبوك ، وكانت في حدود : دينار (أي أربعة غرامات وربع من الذهب) على كل بالغ ذكر عاقل سنوياً ، فهي لا تؤخذ من الأطفال ، ولا من غير العقلاء ، ولامن الرهبان ، ولا النساء ، فقد روى أبو عبيدة وغيره أن كتاب الرسول ﷺ إلى أهل اليمن جاء فيه : « من محمد إلى أهل اليمن... ، وأنه من أسلم من يهودي ، أو نصراني فإنه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته ، أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية »[5].

هل الجزية أتاوة أم ضريبة المواطنة ؟

إن الدولة مهما كانت طبيعتها (دينية أو مدينة) فلها حقوق وعليها واجبات من تحقيق حفظ الأمن والأمان ، والتكافل الداخلي ، ونحو ذلك ، كما أن لها حقوقاً على المواطنين

---

(1) حاشية القليوبي على شرح المحلى (228/4)

(2) الفتاوى الهندية (244/2) وجواهر الاكليل (266/1) والمغني (495/8)

(3) يراجع : الأموال لأبي عبيد ص 541 ، والخراج لأبي يوسف ص 143 ، ويراجع : فقه الزكاة للشيخ القرضاوي (118/1) ط. وهبة 2006م

(4) زاد المعاد لابن القيم (88/2) وتفسير ابن كثير (347/2)

(5) الأموال ص 37 ط. قطر

بدعمها بالموارد البشرية والمالية لتحقيق أهدافها التي يجني ثمارها الجميع، وأن الفوضى الأمنية والسياسية والاقتصادية تدمر كل شيء، ولا تبقي ولا تذر، وهذه حقيقة تاريخية، كما نشاهدها في عالمنا الإسلامي في العراق وغيره.

ومن هنا فالدولة الإسلامية شأنها في ذلك شأن جميع الدول القديمة والمعاصرة، والمتقدمة ـ فرضت حقوقاً مالية ـ لصالح أمن الفرد والجماعة ولصالح تكافل مواطنيها، غير أنها فرقت بين نوعين من الحقوق الواجبة:

أحدهما: الحقوق المالية التي فيها معنى التعبد (مثل الزكاة) فهذه فرضها الإسلام على المسلمين تعبداً وتكافلاً، حيث تحتاج هذه ـ من حيث المبدأ والقاعدة العامة ـ إلى النية التي لا تصح إلاّ ممن آمن بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

فلذلك يكون من الطبيعي أن يكون لهذا النوع خصوصية من حيث التطبيق ومقدار الواجب، والواجب عليه، ومع ذلك لو قبل به غير المسلم بدلاً من النوع الثاني الآتي لرحبت الدولة الإسلامية به، لأنه أكثر من الثاني.

النوع الثاني: الحقوق المالية التي لا ينظر فيها إلى معنى التعبد أصلاً، ولذلك يختلف من حيث المصرف، والمقدار ونحو ذلك، وإنما يراعى فيه اعتباران، هما:

1- الاعتراف بالدولة الإسلامية اعترافاً تترتب عليه الحقوق والواجبات من الطرفين (الدولة ومن يعيش على أرضها) وهذا هو ما فسر به كثير من الأئمة منهم الشافعي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: 29)

أي مستسلمون، راضون قابلون بما فرضه الله عليهم من دفع جزء من الأموال إلى الدولة الإسلامية

2- المساهمة في تحمل جزء من أعباء الدولة الإسلامية في تحقيق الأمن والأمان لجميع المواطنين والدفاع ضد المتربصين بها من كل جانب، أي المساهمة في المجهود الأمني والحربي، إضافة إلى المساهمة في تحقيق التنمية، والتكافل والضمان الاجتماعي للمحتاجين، حيث إن مصرف هذا المال هو بيت المال (الفيئ) الذي يصرف في التنمية الشاملة، والبنية التحتية، وفي التكافل والضمان الاجتماعي لكل من يعيش داخل الدولة الإسلامية من المواطنين سواء كانوا مسلمين، أم ذميين.

إذن فالجزية هي من الناحية اللغوية بمعنى الجزاء الذي يشمل ما ذكرناه، وليست كلمة تحمل في طياتها سوءاً لأحد، ولكن الهجمات الإعلامية عليها أدت إلى إثارة شيء من الحساسية نحوها، ولذلك فلا مانع أن يسمى ما يؤخذ من غير المسلم، ضريبة، أو نحو ذلك بل لو سيمت زكاة لم ترتكب مخالفة شرعية، بل لها سابقة في عصر عمر رضي الله

عنه حينما أبى بنو التغلب (العرب النصارى) أن يدفعوا هذا الحق تحت اسم الجزية بل قالوا له: نحن ندفع الضعف على أن تسمى زكاة فوافق على ذلك عمر ـ كما سبق ـ.
إذن فالتسمية ليست مهمة بقدر أن يؤخذ هذا الحق ويصرف في صالح الدولة والوطن والمواطن.

مصطلح الذمة:

وكما أثيرت الحساسية أمام (الجزية) فقد أثيرت أمام كلمة جميلة رقيقة تحمل معاني عظيمة ودلالات إنسانية كبيرة، وهي كلمة (الذمة) حيث إن المقصود بها لغة: الرقبة، والنفس، أو العهد، وفسرت في النصوص الشرعية الثابتة، بذمة الله تعالى، وذمة رسوله، وأن الله تعالى ورسوله قد أعطيا لصاحبها العهد والأمان والجوار.
والحق أن قبول الإسلام ـ ومعه القوة والدولة ـ بدين آخر والتعايش معه دون إكراه ولا عنف بل مع كامل الحقوق لأصحابه يعتبر انقلاباً في مفاهيم العصور السابقة على عصر الرسالة، حيث لم يسجل التاريخ أن ديناً قبل التعايش مع دين آخر ولو كان يتدين به شق ذات القوم، فلم يقبل اليهود دين المسيح عليه السلام، بل اضطهدوه وأصحابه وحوارييه أشد الاضطهاد وقتلوا منهم من قتل، حتى حاولوا قتل المسيح عليه السلام وصلبه، لكن الله رفعه ونجاه من بين أيديهم، وكذلك حينما أصبح للنصارى دولة وقوة قاموا باضطهاد اليهود مرات عديدة قبل الإسلام وبعده، وقتلهم وتعذيبهم، وتشريدهم شر تشريد.

ثلاثة مبادئ عظيمة في العلاقات الدولية في آيات الممتحنة:

ويمكن تلخيص العلاقة الدولية في حالة السلم، وفي حالة الحرب في الآيات الثلاث في سورة الممتحنة وهي:
﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة: 7 - 8 - 9)
فالآية الأولى تبين أن الإسلام يتطلع إلى إزالة العداوة، وتحقيق المودة بكل الوسائل المتاحة، وأما الآية الثانية فتبين العلاقة بين المسلمين وغيرهم في حالة السلم وعدم الاعتداء حيث تقوم على ما يأتي:

1 ـ البر والإحسان 2 ـ والعدل والميزان.
وأما الآية الثالثة فتبين العلاقة مع غير المسلم في حالة الحرب والعداوة حيث تقوم على أن يتحد المسلمون ويكون ولاؤهم لله تعالى وللمؤمنين بالمحبة والنصرة، وأن لا تكون نصرتهم لهؤلاء الكفرة المحاربين، ومع ذلك فإن هذه العلاقة يجب أن تقوم على العدل والإنصاف حتى في حالة الحرب.
والعظيم في هذه الآية أنها جاءت في سورة تبدأ بما فعله أعداء الله تعالى مع المسلمين، وما يريدون أن يفعلوه معهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ ﴾ (الممتحنة: 1)
ثم يقول الله تعالى: ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ (الممتحنة: 2)
ومع ذلك أمر الله تعالى فيها بالعدل وعدم الظلم، كما أكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ (المائدة: 2)
والأعظم من ذلك أن سورة الممتحنة نزلت بعد سورة البراءة مما يبعد كل البعد مسألة النسخ ونحوه، حيث برهنت السورة على أن هؤلاء المشركين كانوا لا يرعون عهودهم، بل إنهم قد خانوا الله وخانوا المؤمنين، ومع ذلك تؤكد هذه الآيات على أن يتعامل المسلمون مع غيرهم على قواعد العدل في جميع الأحوال، وعلى قواعد البر والإحسان أيضاً إذا لم يمارسوا ضد المسلمين الظلم والإخراج والقتل والإرهاب، فالقاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية هي جعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان وفيما عدا ذلك تكون العلاقة هي البر والإحسان، فالإسلام ليس براغب في الخصومة والمقاطعة، بل يريد أن تبقى أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة انتظاراً لليوم الذي تجتمع فيه النفوس على المحبة والسلام.
يقول سيد قطب: «وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي، من وراء كل اختلاف وتنويع، وهي أساس شريعته الدولية، التي

تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً هي الحالة الثابتة، لا يغيرها إلاّ وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء ؛ أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين.
ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصور الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها ؛ ويجعل القيمة التي يضن بها المؤمن ويقاتل دونها هي قضية العقيدة وحدها، فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلاّ حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإعلاء كلمة الله.
هذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصد الناس عنها، ولم يحل بينهم وبين سماعها، ولم يفتن المؤمنين بها، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه.
إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته، ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله، فلا خصومة على مصلحة، ولا جهاد في عصبية من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب، إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة»[1].
فالإسلام لم يحمل السلاح لفَرض عقيدته بالقوة والإكراه فقد قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256)، كما أن فكرة الهيمنة والاستعلاء فكرة مرفوضة في الإسلام إذ قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ ﴾ (القصص: 83) فالحرب في الإسلام هو للدفاع عن العدل ورفع الظلم، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾ (الحج: 39)
وأنها للدفاع عن المستضعفين، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ﴾ (النساء: 75)

---

(1) في ظلال القرآن / سيد قطب، ط.دار الشروق بالقاهرة 1406هـ (6/3544 – 3545)

الوثيقة أول دستور يعطي حق المواطنة للآخر:

وقد تشكلت أول دولة إسلامية في المدينة المنورة فقامت على قاعدة المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وانهم أمة واحدة من دون الناس، وأنهم كجسد واحد، وأن يدهم واحدة ضد من عاداهم، وعلى قاعدة العدل والمواطنة والحقوق والواجبات المتقابلة لغير المسلمين، حيث كتب الرسول ﷺ صحيفة ووثيقة يتعلق عدد كبير من بنودها بحقوق اليهود تضم حوالي 47 بنداً منها:

1 ـ أن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس.

2 ـ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

3 ـ وأن تسلم المسلمين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم.

4 ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضا.

5 ـ وأنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله، وإلى محمد.

6 ـ وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

7 ـ وأن على يهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم.

8 ـ وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

9 ـ وأنه لا تجار حرمة إلاّ بإذن أهلها.

10 ـ وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه.

11 ـ وأن بينهم النصر من دهم يثرب.

12 ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلاّ من حارب في الدين.

13 ـ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

14 ـ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلاّ على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة، وأبرّه.

15 ـ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برّ واتقى...[1]

كما أكدت الوثيقة على الحرية الدينية بكل وضوح فنصت على أن للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم، وحتى حينما حاول بعض الأنصار أن يجبروا بعض أبناء عشيرتهم الذين تهودوا على العودة إلى الإسلام أنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: 256)

حيث نصت إحدى مواد الصحيفة على أن: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وانفسهم إلاّ من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه...»[2] كما أكدت الوثيقة على المسؤولية الشخصية تأكيداً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ (الأنعام: 164).

غير أن اليهود لم يحافظوا على هذه الوثيقة ومحتواها، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ فأصابهم ما أصابهم بظلمهم ونقضهم العهود.

وأما القبائل (وعلى رأسها قريش) وأهل الأديان المحيطة بهذه الدولة فلم تقبل بوجود هذه الدولة، بل قاومتها بكل وسائل البطش والعدوان، وبذلت كل جهودها للقضاء عليها قضاءً مبرماً، ولذلك لم تكن العلاقة فيما بينهم وبين الدولة الإسلامية علاقة ود وتعاون بل كانت علاقة تخاصم وحرب وعداء، ومع ذلك استطاع الإسلام أن يربي أتباعه على اتباع العدل والقسط، فكان من الطبيعي أن تدافع هذه الدولة العقدية عن نفسها، حيث نلاحظ هذه الروح الدفاعية في أول آية نزلت بخصوص تشريع الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ (الحج: 39)

ثم بينت الآية الثانية بأن مبررات الجهاد والقتال هو أنهم ظلموا وأنهم أخرجوا من ديارهم، وبالتالي فهم يدافعون عن أنفسهم، وعن درء الظلم، والدفاع عن العقيدة وأماكن العبادة حتى لغير المسلمين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ

---

(1) يراجع نص الوثيقة في: الأستاذ محمد حميد الله في مجموعة الوثائق السياسية، ط.دار الإرشاد ببيروت 1389هـ، ص 41 ـ 47، وأستاذنا الدكتور أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ط.مركز بحوث السنة والسيرة بقطر 1411هـ ص 282 ـ 285 حيث خرج بنودها من المصادر المعتمدة، وتسمى في كتب السنة والسيرة والتأريخ: الصحيفة

(2) المراجع السابقة

وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج : 40)

ولذلك فالحرب في نظر الإسلام ضرورة لا يلجأ إليها إلاّ عندما تضيق السبل، وتنسد الطرق على الدعوة وقبول الإسلام، أو الاعتراف بدولته من خلال ما يسمى بالجزية التي هي مشاركة من غير المسلم في تحمل أعباء الأمن والمواطنة، كما يتحمل المسلمون أكثر من ذلك من الواجبات المالية من الزكاة ونحوها ولذلك لا يبدأ المسلمون بالحرب ضد غيرهم بل بعرض الدعوة عليهم أولاً، فإن قبلوها فبها ونعمت، وإلاّ فالجزية، أي المسالمة والصلح.

ويدل على هذه الروح في أسمى معانيها صلح حديبية حيث قبل رسول الله ﷺ بمجموعة من الشروط التي في ظاهرها إجحاف واعتساف، ومع ذلك قال ﷺ: «والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها»[1] وأعظم من ذلك سمى الله تعالى هذا الصلح بالفتح المبين، نزلت فيه سورة سميت بسورة الفتح. وقد أكد القرآن الكريم على هذا المنهج في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال: 61)

ومن الناحية الفقهية فإن جماهير الفقهاء (الحنفية، والمالكية في قول، والشافعية والحنابلة)[2] يقولون: بوجوب الدعوة إلى الإسلام قبل بدء الحرب استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء: 15) وكان منهج الرسول ﷺ ووصيته لصحبه الكرام عندما يرسلهم في مهمة حتى مع المشركين «... وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث، أو خلال، فأيهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام...»[3].

بل حسم ابن عباس (ترجمان القرآن وحبر الأمة) هذه المسالة بصيغة الحصر فقال: «ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً قط حتى يدعوهم إلى الإسلام»[4].

وقد أجيب عن إغارة الرسول ﷺ على بني المصطلق بأنهم هم بدؤوه بالقتال خلال إعدادهم القوة للإغارة على المدينة المنورة[1] بالإضافة إلى أنهم قد بلغتهم الدعوة.

---

(1) رواه البخاري مع فتح الباري (329/5)

(2) يراجع: مجمع الأنهر (635/1) والشرح الكبير مع الدسوقي (176/2) وروضة الطالبين (239/10) والمغني لابن قدامة مع الشرح الكبير (379/10)

(3) صحيح مسلم، كتاب الجهاد (1357/3)

(4) مسند أحمد (231/1) والسنن الكبرى (107/9)

نماذج من عهد الرسول ﷺ للنصارى واليهود:

وبالاضافة إلى الوثيقة التي أقرها الرسول ﷺ لبيان العلاقة بينه وبين اليهود، وهي تمثل حالة السلم، وأقرت بجميع حقوق المواطنة المشروعة، فإن الرسول ﷺ كتب بعض العقود والمواثيق بينه وبين اليهود والنصارى، منها:

العهد الذي كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران بعد عودته من غزوة تبوك عام 9 هـ، الذي يدل على قمة العدل، والسماحة والحرية، حيث أعطاهم الحرية الدينية، والحماية والجوار، ولم يفرض عليهم إلاّ جزية عينية متواضعة[2]، وقد جاء فيه: «... ولنجران وحاشيتهم جوار الله... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصّف غير ظالمين ولا مظلومين...، ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر، وعلى ما فيه هذه الصحيفة جوار الله، وذمة النبي ﷺ أبداً حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم »[3].

وقد أعطى الرسول ﷺ العهد والأمان لليهود حتى بعدما حدث منهم في المدينة يوم الأحزاب، حيث كتب لعدد من التجمعات اليهودية في شمال الجزيرة بعد غزوة خيبر بفترة، ومن ذلك أنه كتب إلى بني جنبة بمقنة القريبة من أيلة على خليج العقبة: «أما بعد فقد نزل عليّ رسلكم راجعين إلى فريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم...، ولا ظلم عليكم ولا عدي، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه... وأن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم... فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله ﷺ أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم أمير إلاّ من عند أنفسكم، أو من أهل رسول الله... »[4].

وهكذا فعل مع بني غاديا، وأهل حرباء، وأذرح من اليهود[5]، « وبذلك تمكن الرسول من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية،

---

(1) يراجع: صحيح مسلم، كتاب الجهاد (1356/3) وسيرة ابن هشام (228/3)

(2) أ.د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ط.دار النفائس بيروت 1997

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق إدوار سخاو، وآخرين (36/1/2، 84 — 85) وفتوح البلدان للبلاذري، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. مكتبة النهضة بالقهرة 1957 (76/1 — 78) وتأريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صالح بحر العلوم ط. المكتبة الحيدرية بالنجف 1964 (71/2 — 72) الدكتور عماد الدين خليل، بحثه الموسوم: المسلم والآخر: رؤية تأريخية، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة العدد 33 ـ 34، سنة 2003

(4) طبقات ابن سعد (28/2/1 — 30)

(5) المصدر السابق، ويراجع الدكتور عماد الدين خليل، بحثه السابق الاسشارة إليه

يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية، ويحتمون بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها...، وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على أن الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى أنه أوصى عامله معاذ بن جبل: "بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم"، وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم »[1].

والتحقيق أن الإسلام كان ينطلق من سنة حتمية الخلاف ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: 119) إلى قبول الآخر والحفاظ عليه، وأن الجزية ما هي في حقيتها إلاّ قبول الآخر والاعتراف بحق مواطنته، وتكليفه بأداء حقوقه المالية ونحوها في مقابل توفير الأمن والأمان له، يقول السير توماس أرنولد الذي سنعتمد على عدد من شهاداته بهذا الصدد في كتابه المعروف: "الدعوة إلى الإسلام" "The Preaching to Islam": الذي يتضمن تحليلاً مدعماً بالوثائق والنصوص للصيغ الإنسانية التي اتبعها الإسلام في تعامله مع أبناء المذاهب الأخرى.

(...لما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة (أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم)، وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا».

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر: لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم.

فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن وكتب إلى الناس يقول: "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم"، وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون

---

(1) الدكتور عماد الدين خليل، بحثه الموسوم: المسلم والآخر: رؤية تأريخية، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة العدد 33 ـ 34 سنة 2003، وكتابه دراسة السيرة ص 358 ومصادره المعتمدة

بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: "ردكم الله علينا ونصركم عليهم – أي على الروم – فلو كانوا هم لم يردوا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا."

الدعوة بالحكمة والموعظة تشمل الجميع:
فهذه الرسالة في نظر الإسلام هي رسالة السعادة وحسنيي الدنيا والآخرة، ورسالة الرحمة للعالمين أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: 107).
ولذلك فالمؤمنون مأمورون بتوصيلها إلى الآخرين ليس بالاكراه والعنف إذ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256) وإنما بالتبشير والموعظة الحسنة، والحكمة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل: 125)
ولكن الله تعالى خص أهل الكتاب بأن يكون الجدال معهم حول أمور الدين بالتي هي أحسن: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ (العنكبوت: 46).
بل إنه من الناحية العملية قد أمر الله تعالى نبيه موسى، وهارون، أن يقولا قولاً ليناً هيناً حكيماً لفرعون الطاغية فقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: 43 – 44).
وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: 22) وخاطبه بأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة.

التطبيقات العملية للعلاقات الدولية في حالة السلم:

يحرص الإسلام كل الحرص على الحفاظ على الأمن والأمان، والسلام، وعلى العهود والمواثيق التي تمت بين دولة الإسلام، أو المسلمين، وبين غيرهم دولاً وأفراداً، فجاءت مجموعة من النصوص الصريحة تأمر بالوفاء بالعهود والعقود والمواثيق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة: 1) وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: 34)
وجعل الوفاء بالعهود والمواثيق من صفات المؤمنين، ونقضها من صفات الكفرة والمنافقين، قال تعالى في وصف المؤمنين المصلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون: 8)

بل إن القرآن الكريم لا يجيز للدولة المسلمة نقض العهد مع دولة غير إسلامية تربطها بها عهود ومواثيق ما دامت لم تنقض عهدها.
وقد تضمنت الآيات العشرون (55 — 75) من سورة الأنفال التي هي من أواخر السور التي نزلت على الرسول الكريم صورة واضحة للعلاقات الخارجية بين الدولة المسلمة وما حولها من الدول والطوائف والمعسكرات، حيث تقرر إمكان إقامة عهود تعايش بين المعسكرات المختلفة ما أمكن أن تصان هذه العهود من النكث بها مع إعطاء هذه العهود الاحترام الكامل والجدية الحقيقية[1] وذلك من خلال المفاهيم الآتية:

1 ـ وجوب الحفاظ على العقود: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة: 1) وضرورة صون العهود والمواثيق من النقض والنكوث حيث سمى الله تعالى الناكثين بشر الدواب فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال: 55 - 56)

2 ـ أن الدولة المسلمة التي لها عهد مع أناس آخرين إذا خافت من خيانتهم فإنها تنبذ إليهم عهدهم، وتخبرهم بذلك، ولا تخونهم، لأن الله تعالى لا يحب الخائنين، فالإسلام يريد من العهد الصيانة، ومن العقد الحفاظ عليه، ومن المواثيق الالتزام بها، فإذا وجد المقابل لا يحافظ على عهد، ولا يفي بعقده بل من طبعه الخيانة والمكر، فإن المسلمين لا يجوز لهم أن يقابلوا خيانتهم بخيانة، وغدرهم بغدر، بل يصارحونهم، وينبذون إليهم عهدهم، أو يعطونهم فرصة أخرى، ولذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، ويرتقي بهم إلى آفاق الأمن والطمأنينة والاستقرار، وعدم الخوف من الإغارة والخيانة.

3 ـ ضرورة إعداد القوة حتى لا يطمع الأعداء في الدولة الإسلامية، وهذه تسمى في الوقت الحاضر نظرية القوة الرادعة لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ﴾ (الأنفال: 60)

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، ط.دار الشروق (1539/3)

4 ـ وأنهم إذا جنحوا للسلم للسلم فعلى الدولة الإسلامية أن تختار خيار السلام مع التوكل على الله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال: 61)

5 ـ أن لا يكون التعامل على أساس الشك والريبة، ولذلك شدد القرآن الكريم على ضرورة الأخذ بالسلام العادل والجنوح له حتى ولو مع الخوف من الخيانة ما دامت الأمة قوية قادرة على ردع العدوان، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (الأنفال: 62)

6- ضرورة توفير الهيبة لهذا الدين، والإرادة القوية، والاستعداد الدائم المستمر لحماية الأمة، وليس للاعتداء لأن الله لا يحب المعتدين.

7 ـ ضرورة التأكيد على مبدإ الموالاة بين المؤمنين بالمحبة والنصرة في مقابل موالاة الكافرين بعضهم لبعض، فلا ينبغي للأمة المسلمة أن تبقى متفرقة ممزقة، وعدوها متحد يرميها من قوس واحدة، وأن الفتنة كل الفتنة هي أن لا يستوعب المسلمون قضية الولاء ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنفال: 73).

8 ـ هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم وشرورهم، جزاؤهم تخويفهم، والضرب على أيديهم بشدة حتى يتركوا هذا الصنيع الفاحش.

9 ـ وجوب قيام العلاقات على الصراحة وحماية العهود والمواثيق، ونبذ الخيانة، والميكافيلية، يقول سيد قطب: «إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف، فلا تبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة، إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود، ومن ثم يجب على لمسلمين أن لا يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، وليس مسلماً كاملاً من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية»[1].

10 ـ من دلائل حفاظ المسلمين على عهودهم مع غيرهم أن بعض المسلمين الذين لم ينضموا إلى الدولة الإسلامية لو استنصروا بها في الدين فعليها النصرة على شرط ألا

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن (1542/3)

يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع المعسكر الآخر حتى ولو كان هذا المعسكر معتدياً على أولئك الأفراد في دينهم وعقيدتهم فقال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأنفال: 72).

حقوق غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية:

على ضوء المنهج الذي اخترته، وهو منهج " فقه الميزان " فإن غير المسلمين في ظل ميزان الحرب تختلف حالهم وحقوقهم فيما لو كان الميزان المطبق هو ميزان السلم، فعلى ضوء ذلك نقول:

أولاً: إن غير المسلمين اليوم الذين يعيشون في بلاد الإسلام والمسلمين منذ القدم هم مواطنون لهم حقوق المواطنة، وعليهم الواجبات، ولا يستثنى من ذلك إلاّ ما نص على استثنائه نصا صحيحا صريحا قطعي الدلالة، أو ما يتعلق بالحقوق الخاصة الناشئة من دين الأكثرية، أو الأقلية.

إن هذا الاستثناء معقول حتى في ظل النظم المعاصرة التي يشترط بعضها، أو أكثرها في أوروبا والغرب أن يكون رئيس الدولة ممن يدينون بالمسيحية مثلاً، ولذلك فاشتراط أن يكون الرئيس من دين الأكثرية أمر مقبول ومعقول ومطبق حتى في عالمنا الذي يدعي الديمقراطية، وذلك لأن مثل هذه الشروط لن تؤثر في جوهر المساواة في الحقوق والواجبات، ولن تتغير حقوق المواطنة في أركانها وجوهرها.

ويدل على ذلك ما يأتي:

1) أن الوثيقة، أو الصحيفة، ـ أو ما يسمى بدستور المدينة الأول ـ أعطت حقوق المواطنة والحرية الدينية، وحق التحالف إلاّ مع الأعداء[1] كما سبق.

2) إن القاعدة العامة في حقوق أهل الذمة هي: « أن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»حيث قال علي رضي الله عنه: « إنما قبلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا »[1].

---

(1) وقد عبر الأستاذ عبدالقادر عودة عن أن أهل الذمة من حاملي " الجنسية الإسلامية " في كتابه: التشريع الجنائي الإسلامي (307/1) ويراجع: أ. د. عبدالكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص 63 — 66، وأ. د. جعفر عبدالسلام: علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى، بحث مقدم إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته 17 ص 5.

وهناك نصوص كثيرة في الحفاظ على حقوقهم وحمايتهم ـ كما سيأتي ـ.
3) إن ما فرضه الإسلام على أهل الذمة من الجزية، والخراج هو من حقوق المواطنة ايضاً ـ كما سبق ـ.
ومن الجدير بالتنبيه عليه أن مصطلح " أهل الذمة " يعني أنهم أهل عهد وذمة الله ورسوله.
ثانيا: إن تفاصيل هذه الحقوق قد ذكرها علماؤنا قديماً وحديثاً، وفصلتها كتب الفقه في المذاهب المعتبرة، وممن ذكرها بالتفصيل والتأصيل من المعاصرين الأستاذ الدكتور عبدالكريم زيدان، والعلامة الشيخ يوسف القرضاوي[2] معتمدين على نصوص كثيرة من الكتاب والسنة نذكرها بإيجاز:
1) وجوب حماية الدولة لهم من الاعتداء الخارجي، والدفاع عنهم، ووجوب إنقاذ أسراهم، بل نقل الاجماع على أنه يجب الخروج لقتال من يحاربهم حتى ولو كانوا في بلاد منفردين[3]، يقول القرافي: « إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا، وخفارتنا، وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الاسلام، وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الاجماع له: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا ان نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ »[4].
وقد حدث كثيراً أن الدولة الإسلامية لم تقبل بإطلاق الأسرى المسلمين إلاّ مع إطلاق الأسرى الذميين[5].
2) حماية ضرورياتهم الست، وحاجياتهم، حالهم في ذلك حال المسلمين، حيث اتفق الفقهاء على ذلك، وعللوا ذلك بأنهم أصبحوا بعقد الذمة من أهل دار الإسلام، وعلى ذلك يجب توفير الحماية لنفوسهم، وأعراضهم، وأموالهم، بل أكثر من ذلك، فإن

---

(1) بدائع الصنائع (111/6) والقوانين الفقهية ص 105 والمذهب للشيرازي (256/2) والاحكام السلطانية للماوردي ص 247 والمغني (445/8)
(2) أ. د. عبدالكريم زيدان: المرجع السابق، والعلامة القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ط. مؤسسة الرسالة ص 9 وما بعدها
(3) مطالب أولى النهى (2/ 602 – 603)
(4) الفروق ط. دار المعرفة / بيروت (3/ 14 – 15)
(5) د. القرضاوي: المرجع السابق ص 10

الدولة يجبٍ عليها حماية ما يعتبرونه مالاً ـ مثل خمورهم، وخنازيرهم ـ مع أن ذلك لا يعتبر مالاً لو كان لدى المسلم بل يجب اتلافه، بل لو قام مسلم بإتلاف خمورهم وخنازيرهم وجب عليه التعويض عند الحنفية[1].

فعلى الدولة أن تحمي حريتهم الدينية، وتحافظ على أموالهم، وأعراضهم وشأنهم في ذلك شأن المسلمين، فقد قال النبي ﷺ: « من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً »[2].

ولذلك ذهب جماعة من الفقهاء منهم الحنفية إلى: أن المسلم يقتل إذا قتل ذمياً، وهذا رأي: الشعبي، والنخعي، وابن أبي ليلى، وعثمان البتي، وهو مروي عن الخليفة عليّ ابن أبي طالب، وعمربن عبدالعزيز "رضي الله عنهم"، وهو الذي كان عليه العمل في معظم عصور الخلافة العباسية، وفي الدولة العثمانية، وذهب المالكية إلى: أنه يقتل به في حالة الغيلة (أي الخديعة)[3].

3) التعامل معهم بالعدل، وحمايتهم من الظلم بجميع أنواعه وأشكاله، حيث يدل على ذلك جميع النصوص العامة الدالة على وجوب الحكم والتعامل على أساس العدل، وحرمة الظلمِ، وبعض النصوص الخاصة بأهل الذمة، منها قول النبي ﷺ: « ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة »[4].

ولذلك اشتدت عناية الخلفاء الراشدين ومن بعدهم بدفع الظلم عنهم، حتى ان الخليفة عمر رضي الله عنه كان يسأل القادمين من البلاد الإسلامية عن أهل الذمة، فكان جوابهم: «ما نعلم إلاّ وفاءً »[5] وقد روى البخاري في صحيحه عن جويرية بن قدمة التميمي قال: « سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قلنا: أوصنا يا أمير المؤمنين،

---

(1) يراجع: بدائع الصنائع (143/5) وجواهر الاكليل (470/1) وحاشية الجمل (481/3) والاحكام السلطانية للماوردي ص 145 والاحكام السلطانية لأبي يعلى ص 143 والمغني (223/5)

(2) رواه أحمد والبخاري في صحيحه، كتاب الجزية، مع فتح الباري (269/6) وأحمد (46/5، 277، 283) ورواه غيرهما

(3) يراجع: حاشية ابن عابدين (249/3) والبدائع (236/7) والمهذب (185/2) والخرشي (3/8 — 6) والمغني (652/7)

(4) رواه أبو داود في سننه (3 /437) الحديث رقم 3052 قال العراقي: إسناده جيد، كما في تنزيه الشريعة (2 /182) ط. مكتبة القاهرة، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (205/5)

(5) تأريخ الطبري (218/4)

قال: « أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم...»[1] وفي رواية عمرو بن ميمون بلفظ وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله: أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا إلاّ طاقتهم »[2].

4) تحقيق التكافل الاجتماعي لهم في حالات الفقر، والعجز والشيخوخة، فإذا أصبح المواطن (غير المسلم) فقيراً، أو عاجزاً أو شيخاً مسناً فإن الدولة لا تتركه يتعرض للاهانة والضياع، بل تنصفه، وتحميه، وتقرر له العيش الكريم، وليس هذا الحكم جديداً ومعاصراً، بل حدث ذلك في عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث كتب خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق وكانوا نصارى ما نصه: « وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام »[3].

وروى أبو يوسف وغيره أن عمر رضي الله عنه مرّ بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، فقال: « من أيّ أهل الكتاب أنت ؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى ؟، قال: اسأل الجزية، والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده فذهب به إلى منزله بشيء، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم... »[4].

وقد تكرر ذلك في عصر عمر بن عبدالعزيز، مما يمكن تسميته بالاجماع على أن الضمان الاجتماعي مبدأ عام يشمل أبناء المجتمع جميعاً: مسلمين، وغير مسلمين، فلا يجوز أن يبقى فيه إنسان محروما من ضروريات الحياة وحاجياتها[5] فقد نص فقهاء الشافعية على أن دفع الضرر عن المسلمين من فروض الكفاية، وأن ذلك يشمل أهل الذمة، حيث إن دفع الضرر عنهم واجب، وأن المراد بدفع الضرر هنا هو: تحقيق الكفاية من المعيشة والمسكن والدواء والغذاء، وليس ما يسد الرمق على أصح القولين عندهم[6].

---

(1) صحيح البخاري ـ مع فتح الباري ـ (267/6)

(2) فتح الباري (267/6)

(3) الخراج لأبي يوسف، بتحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا ط. دار الاصلاح ص 290

(4) الخراج لأبي يوسف ص 259

(5) د. يوسف القرضاوي: المرجع السابق ص 17

(6) نهاية المحتاج شره المنهاج (46/8)

5) احترام عهودهم وعقودهم مع المسلمين: فقد ذكر أبو يوسف (ت182هـ) أن أبا عبيدة رضي الله عنه صالحهم بالشام على شروط في مقابل أن يوفر لهم الأمن والحماية من الأعداء، وحدث أن الروم قد جمعوا جمعاً كبيراً خاف أبو عبيدة أن لا يكون قادراً على حمايتهم، فكتب إلى ولاته على المدن يأمرهم: أن يردوا على أهل المنطقة ما جبي منهم من الجزية والخراج، وأن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم ؛ لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك... ونحن لكم على الشرط وما كتب بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم، فلما قالوا لهم ذلك، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قالوا: « ردكم الله إلينا، ونصركم عليهم، قالوا: فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً »[1]. يقول أبو يوسف رحمه الله: « فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم، وحسن السيرة فيهم صاروا أشدّ على عدو المسلمين من المسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة، ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريد أن يصنع...»[2].
6) حماية حريتهم الدينية: فقد أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على الحرية الدينية وعلى عدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام فقال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: 256) ويقول: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (الكهف 29) ويقول: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ (يونس 99)
وقد سبق مزيد من التفصيل حول هذه المسألة، ولكن الذي نريد بيانه هنا هو: أن العهود والمواثيق التي تمت بين المسلمين وغيرهم عند عقود الصلح والجزية ومافيها من شروط ما هي إلا لأجل أن يراعي غير المسلمين مشاعر المسلمين، وحرمة دينهم[3] وعدم إثارتهم، وعدم إثارة الفتنة.
وقد شهد المنصفون من المستشرقين والمفكرين الغربيين بهذه الحرية الدينية التي لم يشهد لها التأريخ مثلها، يقول غوستاف لوبون: « رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفاً: أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو

(1) الخراج لأبي يوسف ص 282 ـ 283
(2) المصدر السابق 282
(3) يراجع: العهود والمواثيق في كتاب الخراج لأبي يوسف ص 281 وما بعدها، والدكتور القرضاوي: المرجع السابق ص 20

الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سننه، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا... »[1].

7) حرية العمل والمعاملات والعقود والأنكحة حسب معتقدهم: إن القاعدة العامة أن أهل الذمة في المعاملات، وحرية العمل والاكتساب مثل المسلمين إلاّ أن لهم التعامل في بعض المحرمات في ديننا، يقول الجصاص الحنفي: «إن الذميين في المعاملات والتجارات كالبيوع وسائر التصرفات كالمسلمين »[2] وصرح الكاساني بذلك بقوله: « كلما جاز من بيوع المسلمين جاز منه بيوع أهل الذمة، وما يبطل، أو يفسد من بيوع المسلمين يبطل ويفسد من بيوعهم إلاّ الخمر والخنزير »[3]، واستثناء الخمر والخنزير عند الحنفية مقيد بما إذا تم التعاقد عليها فيما بينهم، أما إذا تم التعاقد بينهم وبين المسلمين فإن العقد باطل أو فاسد[4] وأما جمهور الفقهاء[5] فلم يستثنوا ذلك، قال الشافعي: « تبطل بينهم البيوع التي تبطل بين المسلمين كلها، فإذا مضت واستهلكت لم تبطلها، فإن جاء منهم رجلان تبايعا خمراً ولم يتقابضاها أبطلنا البيع، وإن تقابضاها لم نرده، لأنه قد مضى »[6].

غير أن الفقهاء ـ حتى غير الحنفية ـ صرحوا بأن الدولة الإسلامية لا تتعرض إلى عقودهم الواردة على الخمور والخنزير ما دامت فيما بينهم، لأن مقتضى عقد الجزية لغير المسلمين تركهم وما يعتقدون جوازه[7]، وإنما الخلاف بين الجمهور والحنفية في أن الخمر والخنزير مال متقوم في حقهم وبالتالي يجب على متلفهما المسلم التعويض والضمان مستدلين بما كتبه عمر إلى عماله بالشام، حيث منعهم من أخذ الميتة والخنزير والخمر، فقال عمر: « لا تفعلوا، ولكن ولّوا أربابها بيعها، ثم خذوا الثمن منهم »[8]. وهم يقرون على أنكحتهم فيما بينهم حسب معتقداتهم، إضافة إلى جواز أن يتزوج المسلم من كتابية بنص القرآن الكريم: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة: 5)

---

(1) حضارة الغرب، ترجمة عادل، هامش ص 128

(2) الاحكام للجصاص (346/2) وحاشية ابن عابدين (276/3)

(3) البدائع (174/4)

(4) المبسوط (84/10)

(5) جواهر الاكليل (52/2، 181) و (470/1) وحاشية الجمل (481/3) والاحكام السلطانية للماوري ص 145 والمغني 223/5)

(6) الأم (211/4)

(7) المصادر السابقة، ويراجع: الموسوعة الفقهية الكويتية (132/7)

(8) الخراج لأبي يوسف ص 260، وكتاب الأموال لأبي عبيد ص 61 ـ 62 ط. قطر

8) تولي وظائف الدولة: لأهل الذمة الحق في تولي وظائف الدولة إلاّ ما تغلب عليه الصبغة الدينية، أو ما يقتضيه دين الأغلبية، كما سبق، وقد أجاز الفقهاء أن يتقلدوا (وزاة التنفيذ)[1] وهو مصطلح في مقابل (وزارة التفويض) التي تعني أن يفوض الإمام أمر الحكم إلى الوزير ليديره حسب رأيه، وهذه سلطة شبه مطلقة، أما وزارة التنفيذ فيعنى بها تنفيذ أوامر الإمام، فهي على ضوء ذلك تشمل جميع الوزارات السائدة في وقتنا الحاضر، بل تشمل رئاسة الوزراء، وذلك لأنها اليوم مقيدة بالقوانين واللوائح المعتمدة من مؤسسات الدولة وأن مرجعها إلى رئاسة الدولة. يقول الماوردي: «وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف، وشروطها أقل، لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسط بينه وبين الرعايا والولاة يؤدي عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وتجدد من حدث ملم...» ثم قال: «ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة»[2].

وقد شهد التأريخ الإسلامي أمثلة كثيرة من تولي الوزارة والمناصب العامة لغير المسلمين، فقد تولى الوزارة في عصر العباسيين عدد غير قليل من النصارى، مثل نصر بن هارون (ت369هـ) وعيسى بن قسطورس (ت380هـ)[3] يقول المؤرخ الشهير آدم ميتز: «من الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال " الولاة وكبار الموظفين والمتصرفين" غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين شكوى قديمة... »[4].

يقول السيوطي: «وكان أبو سعد التستري اليهودي يدير الدولة (أي العبيدية) فقال بعض الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغـــوا	غاية آمالهم وقد ملكـــوا
المجد فيهم والمال عندهُـــمُ	ومنهم المستشار والملـــكُ
يا أهل مصر إني نصحت لكم	تهودوا، قد تهود الفلـــك»[5]

(1) الاحكام السلطانية للماوردي ص 27

(2) الاحكام السلطانية للماوردي ص 27 — 28

(3) حسن المحاضرة ط. عيسى الحلبي 1387هـ (201/2)

(4) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية (118/1)

(5) حسن المحاضرة (201/2)

وقد ذكر السيوطي عدداً من الوزراء وهم باقون على ديانتهم اليهودية ، أو النصرانية مثل : بهرام الأرمني النصراني ، فتمكن من البلاد (أي مصر ونحوها في الدولة العبيدية) وأساء السيرة[1] .

واجبات غير المسلمين الذين يعيشون في بلاد الاسلام :

لقد ذكرنا في السابق واجبات الدولة والمسلمين تجاه غير المسلمين (أهل الذمة) فما هي واجبات غير المسلمين أمام حقوقهم السابقة ؟

إن واجباتهم تكمن فيما يأتي:

أولاً : أداء الواجبات المالية (الجزية على الرأس ، والخراج على الأرض ، والعشور على التجارة) ، ويمكن تسميتها بالضرائب ، أو حتى بالزكاة ـ كما سبق ـ[2] .

سقوط الجزية : وهذه الجزية يمكن أن تسقط في الحالات الآتية :

1- عدم قدرة الدولة على حمايتهم ـ كما سبق ـ

2- مشاركتهم الفعلية في القتال والدفاع عن الوطن ، يقول فضيلة العلامة القرضاوي : «وتسقط الجزية أيضاً باشتراك أهل الذمة مع المسلمين في القتال والدفاع عن دار الإسلام ضد أعداء الإسلام ، وقد نص على ذلك صراحة في بعض العهود والمواثيق التي أبرمت بين المسلمين وأهل الذمة في عهد عمر رضي الله عنه[3] حيث ذكر أن رسول أبي عبيدة صالح جماعة " الجراجمة " المسيحين أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وعيوناً على عدوهم في مقابل أن لا تؤخذ منهم الجزية »[4] .

واليوم يشارك المسيحيون في بلادنا بواجب الدفاع عن وطنهم ، وحينئذ فلا مجال للحديث عن الجزية في هذا الشأن

ثانياً : الالتزام بالقوانين الإسلامية الصادرة في البلاد الإسلامية إلاّ ما استثنى منها لهم فيما يتعلق بأحكام الأسرة ، والخمر والخنزير ـ كما سبق ـ.

وهذا المبدأ يسمى : اقليمية القانون ، وهو مطبق في جميع العالم اليوم ، بل تعتبره الدولة الحديثة القوية من أركان السيادة والقوة ، لذلك لا تسمح بتطبيق قانون غير قانونها الوطني ، حتى في نطاق الأحوال الشخصية والأسرة ، ولذلك تعاني الأقليات المسلمة في

---

(1) المصدر السابق (205/2)

(2) يراجع الدكتور عبدالكريم زيدان : المرجع السابق ص 155

(3) الشيخ القرضاوي : المرجع السابق ص 35

(4) فتوح البلدان للبلاذري ط. بيروت ص 317

معظم البلاد غير الإسلامية معاناة شديدة في مجال أحكام الأسرة، حيث تطبق عليها قوانين البلد وهي ليست قوانين الشريعة.
لكن الشريعة الإسلامية سمحت لغير المسلمين (أهل الذمة) باستثناء ما يتعلق بأمور الحلال والحرام، والعبادات، والأحوال الشخصية، بل إن جماعة من الفقهاء أجازوا لهم تطبيق جميع قوانينهم إن أرادوا ذلك[1] اعتماداً على قوله تعالى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ ﴾ (المائدة: 42) فحمل الشافعي آية التخيير على الموادعين أي مثل يهود المدينة الذين وادعهم الرسول ﷺ على غير جزية، ولم يقروا بأن يجري عليهم الحكم كما تدل الآية 43 من السورة نفسها: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ (المائدة: 43) وكما تدل على ذلك أسباب نزولها، وأما الآية 49 فهي في أهل الذمة قال الشافعي: « وليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذي يجري الحكم إذا جاؤوه في حد الله عزوجل بل عليه أن يقيمه وكذلك إذا أبى بعضهم على بعض ما له حق عليه فأتى طالب الحق إلى الإمام يطلب حقه، فحق لازم للإمام أن يحكم له على من كان عليه حق منهم وإن لم يأته المطلوب راضياً بحكمه، وكذلك إن أظهر السخط لحكمه... ولا يجوز أن تكون دار الإسلام دار مقام لمن يمتنع من الحكم في حال... فكان ظاهر ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة: 49) أن يحكم بينهم » ثمّ فرع الشافعي على هذه الآية أحكاماً فقال: « فإن جاءت امرأة تدّعي بأنه طلقها... حكمت عليه حكمي على المسلمين... وتبطل بينهم البيوع التي تبطل بين المسلمين... »[2].
وقال ابن العربي: « إن أهل الكتاب... إن رفعوا أمرهم إلينا فلا يخلو إما أن يكون ما رفعوه ظلماً لا يجوز في شريعة كالغصب والقتل ونحوهما لم يمكن بعضهم من بعض فيه، وإن كان مما تختلف فيه الشرائع فإن الإمام مخيّر »[3].
والخلاصة أن الفقهاء قد اختلقوا في هذه المسألة فذهب جمهورهم (الحنفية ـ ما عدا أبا حنيفة ـ والشافعية وأحمد في رواية والظاهرية) إلى: أن الشريعة الإسلامية تطبق في حقهم، وأن القاضي ينفذ الحكم عليهم وهذا الرأي مروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وذهب أبو حنيفة والمالكية وأحمد في رواية إلى: أن الإمام بالخيار، غير أن المالكية خصّ التخيير بشيء لم يكن متفقاً عليه تحريمه بين الأديان، أما المتفق عليه

(1) يراجع لمزيد من الفتصيل: د. علي محيى الدين القره داغي: مبدأ الرضا في العقود (52/1 — 53) ومصادره المعتمدة
(2) أحكام القرآن للشافعي (78/2)
(3) أحكام القرآن لابن العربي (617/2)

كحرمة الزنا مثلاً فإن الإمام ينفذ حكم الله على مرتكبه، والراجح هو القول الأول ؛ لأن أهل الذمة ما أعطي لهم الذمة إلاّ بعد رضائهم بأن يحكمهم الإسلام، ولا تعارض بين الآيتين حيث آية التخيير في الموادعين المتصالحين معنا من غير عقد الذمة كاليهود الذين وادعهم الرسول ﷺ حينما نزل بالمدينة، وآية الحكم فيها عامة للمعاهدين الذين رضوا أن يدفعوا الجزية إلينا، ولذلك إذا رفع إلى الحاكم من أهل الذمة من فعل محرماً يوجب عقوبة ينفذ عليه العقوبة، وكذلك بخصوص أحكام التعامل غير أنهم ترك لهم مسائل أنكحتهم وبعض المعاملات التي هي حلال في دينهم وقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: أن رسول الله ﷺ رجم يهوديين في المدينة ثبت عليهما الزنا[1]. قال ابن حزم الأندلسي (ت456هـ): «فمن ترك أهل الذمة وأحكامهم فقد اتبع أهواءهم وخالف أمر الله تعالى »[2].

ثالثا: احترام شعور المسلمين وهيبة الدولة الإسلامية، حيث يمنعون من سبّ الإسلام ورسوله، وكتابه وثوابته جهرة، وترويج العقائد والأفكار وشرب الخمر وأكل الخنزير، والأخلاق المتناقضة مع الإسلام بين المسلمين[3]

آداب راقية شرعها الإسلام للتعامل مع الغير:

إن الإسلام لا يعتمد على التشريعات الملزمة والقوانين الصارمة في تنفيذ لحقوق والواجبات بين المسلم وغيره فحسب، وإنما يعتمد في الأصل على الجانب الأخلاقي والعقدي، حيث يغرس في فلب المسلم حسن الخلق، وطيب الكلام، وطلاقة الوجه، وروح التسامح، والرحمة والرفق والحلم والشفقة، والمحبة للخير والبر والإحسان إلى الجميع والعفو والإعراض عن الجاهلين، واحتمال الأذى، بل الدفع بالتي هي أحسن،

---

(1) يراجع: أحكام القرآن للشافعي (78/2) وأحكام القرآن لابن العربي (617/2) وأحكام القرآن للجصاص (434 – 437) وتفسير الطبري (177/6) والأم للشافعي (130/4) وفتح القدير (502/2) وبداية المجتهد (435/2) والغاية القصوى (927/2) والمغني لابن قدامة (214/8)

(2) المحلي لابن حزم (69/13 – 72)

(3) يراجع لهذه الواجبات التي ذكرها الفقهاء والتي تعتبر معظمها من الاجتهادات، مع ملاحظة ما لعصرهم من خصوصية وظروف: البناية على الهداية (840/4) والبدائع (113/7) وجواهر الاكليل (268/1) ومغني المحتاج (256/4) وكشاف القناع (126/3) والاحكام السلطانية للماوردي ص 140 والاحكام السلطانية لأبي يعلى ص 144، والموسوعة الفقهية الكويتية (135/7) والدكتور القرضاوي: المرجع السابق ص 41 – 42

ومقابلة الاساءة بالإحسان مع القدرة والعزة، قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فصلت: 34 - 35)، ويحث على ذلك من خلال الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى لهؤلاء الرحماء المحسنين ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: 134) ناهيك عن وجوب العدل في كل شيء. علماً بأن هذه الأخلاقيات، والعدالة ليست خاصة بالمسلمين، بل هي عامة لجميع الناس، بل للحيوانات والبيئة، فقد دلت النصوص الشرعية الصحيحة على أن أرملة دخلت النار بسبب حبسها لهرة حتى ماتت[1]، وأن امرأة فاجرة دخلت الجنة بسبب سقيها كلباً عطشان[2].

وسائل مساعدة للتسامح والتراحم:

أ) من أهم الوسائل المساعدة على التسامح والتراحم أن الإسلام أجاز للمسلم أن يتزوج من نساء أهل الكتاب، وبالتالي تصبح الكتابية زوجته، وأم أولاده، وإخوانها نسائبه، وأخوال أولاده، وأمها بمثابة والدته وهي جدة لأولاده، وأبوها جد لهم، وهكذا، فيصبح بين المسلمين وأهل الكتاب مصاهرة وقرابة لها حقوق ونفقات وتكافل، وقد أمر القرآن الكريم بالإحسان إلى الوالدين حتى ولو جاهدا على إضلال أولادهما فقال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (لقمان: 15)

ب) وكذلك فرض الإسلام حقوقاً حتى للجار غير المسلم، وبالتالي فإن جميع النصوص الواردة في حقوق الجوار المطلق تشمل الجار غير المسلم[3].

ج) الالتزام بالآداب الراقية عند الجدال حيث خصّ الله تعالى الجدال مع أهل الكتاب بأن يكون بالأحسن صورة وشكلاً وأسلوباً ولغة ومنطقاً، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (العنكبوت: 46)

---

(1) رواه البخاري، الصحيح مع فتح الباري: 356/6 ومسلم الحديث رقم 2619

(2) رواه البخاري في الصحيح، كتاب المظالم وكتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم في صحيحه حديث رقم 2245، وفي بعض الروايات الصحيحة أيضاً أنه كان رجلاً، وقد ختم الحديث بقوله ﷺ : "في كل كبد رطبة أجر".

(3) يراجع لهذه النصوص: رياض الصالحين ص 126

د) تطبيق الأخلاقيات الراقية في التعامل، فقد طبق الرسول ﷺ ذلك في حواراته معهم، وفي تعامله معهم، حيث كان يزورهم ويحسن إليهم ويعود مرضاهم، بل يسمح لهم أن يصلوا صلاتهم في مسجده عرضاً، فقد روى علماء السيرة بسندهم: « أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ « دعوهم » فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم »[1].

وقد علق على ذلك ابن القيم فقال: « ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وفيها تمكينهم من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضاً...»[2].

ثم قال: « والمقصود أن رسول الله ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي، وكذلك أصحابه من بعده، وقد أمر الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية... وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصرا للحجة...»[3].

بل أكثر من ذلك فإن الرسول ﷺ قد قبل هدايا أهل الكتاب واحترمهم حتى كان يقف عندما تمر جنازة أحدهم، وعندما سئل عن ذلك قال: « أليست نفساً » فقد روى البخاري ومسلم بسندهما عن جابر بن عبدالله، قال: « مرّ بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ فقمنا به، فقلنا: يا رسول الله: إنها جنازة يهودي، قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا »[4] ورويا كذلك عن سهل بن حنيف، وقيس بن سعد: أن النبي صلى الله مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: « أليست نفساً ؟»[5]، قال الحافظ ابن حجر: « ومقتضى التعليل بقوله " أليست نفساً " أن ذلك يستحب لكل جنازة »[6] وذهب جماعة

---

(1) انظر: ابن هشام (573/1، 584) والسيرة لابن كثير (100/4، 108) وتفسير ابن كثير (367/1، 371) وطبقات ابن سعد (357/1) وزاد المعاد بتحقيق سعيب، وعبدالقادر الأرنؤط ط. الرسالة / بيروت (629/3)

(2) زاد المعاد (638/3)

(3) المصدر السابق (642/3)

(4) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (179/3) ومسلم، كتاب الجنازة (659/2) الحديث رقم 960

(5) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (179/3 — 180) ومسلم (661/2) الحديث رقم 961

(6) فتح الباري (181/3)

مـن الفقهـاء إلى وجـوب ذلـك، لـورود الأمـر بهـا في عـدة أحاديـث في الـصحيحين[1]، والراجح هو الاستحباب لحديث علي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قام، ثم قعد»[2] حيث حمل قعوده لبيان الجواز فقط[3].

---

(1) يراجع: المصدران السابقان، وفتح الباري (181/3)
(2) صحيح مسلم (662/2) الحديث رقم 962
(3) فتح الباري (181/3)

المحور الرابع:

علاقة المسلمين بغيرهم في حالة الحرب

- الجانب التأصيلي للجهاد
- بيان مجموعة من المبادئ المهمة أثناء الحرب
- بعد أن تضع الحرب أوزارها
- المبادئ الإسلامية والقانون الدولي

الجانب التأصيلي للجهاد في الإسلام:

التعريف بالجهاد لغة وشرعاً:

الجهاد في اللغة من الجَهْد، وهو استفراغ ما في الوسع والطاقة من فكر، أو فعل[1]. ومن المفارقات الطيبة أن يكون لفظ الجهاد، والاجتهاد من أصل واحد، فالأول في مجال محاربة الأعداء، والثاني في محاربة الجهل والتخلف، وتحقيق العلم والابداع، فهما متكاملان[2]. وقد تكرر لفظ الجهد ومشتقاته في القرآن الكريم (41) مرة وتكرر أكثر في السنة المشرفة[3]، ومما يمكن استنباطه مما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حول الموضوع هو ما يأتي:

1- أن معنى (الجهاد) لا ينحصر في القتال، وإنما يمثل الجهاد بالمال، والعلم، والقلم والبيان، والحجة والبرهان، والقوة بجميع معانيها، وأنواعها، بل إن القرآن الكريم ذكر الجهاد بالمال مقدماً على الجهاد بالنفس في معظم الآيات الكريمة.

---

(1) لسان العرب، القاموس المحيط، والمعجم الوسيط مادة "جهد".

(2) يراجع الشيخ القرضاوي، ط وهبة القاهرة ص 7 ولمزيد من التفصيل: أ.د. علي محيى الدين القره داغي: نظرات في القوة والجهاد، بحث منشور في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ع10 سنة 1422هـ ص 270 – 272

(3) أ. د القره داغي المرجع السابق نفسه

2- أن الجهاد لا ينحصر في الجهاد ضد الكفرة المعتدين فحسب بل يشمل الجهاد ضد جميع الأعداء من النفس الأمارة بالسوء، والشيطان، فهو مراتب، يبدأ بجهاد النفس والشيطان، وينتهي بقتال الأعداء المتربصين، ولذلك عرفه ابن تيمية بقوله: «الجهاد: حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله... ودفع ما يبغضه الله... »[1].
3- كما أن لجميع الفرائض الإسلامية شروطا وضوابط ومراحل، فإن الجهاد أيضاً له شروطه وضوابطه ومراحله.

حكم الجهاد:

وبما أن الجهاد متنوع وله مراتب، فإن حكمه يختلف حسب نوعه، ومرتبته، ومراحله، ونحن نتحدث عن حكم الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله، وهو على نوعين اثنين:

النوع الأول: جهاد الدفع، أي دفع الأعداء المحتلين لبلاد الإسلام، حيث اتفق الفقهاء على أن هذا فرض واجب على كل قادر، كل حسب قدرته، ودوره، وعلى هذا تضافرت أدلة الشرع من الكتاب والسنة، والإجماع[2]، بل والشرائع والأنظمة الوضعية والقوانين الدولية، وتقتضيه الفطرة السليمة، والعقل السليم.

النوع الثاني: جهاد الطلب، أي جهاد طلب الكفار، وهذا فيه خلاف كبير بين الفقهاء قديماً وحديثاً، ونحن هنا لا نخوض في غمار هذه الآراء وأدلتهم[3]، ولكن الذي يظهر لنا رجحانه هو ما يأتي:

1) أن الجهاد ـ بمعناه الشامل ـ واجب وماض إلى يوم القيامة، فلا يجوز تركه، وإذا تركته الأمة ذلت وضعفت، ولكن الجهاد الذي هو فرض وواجب (عينياً أو كفائياً) هو الجهاد الشامل لإعداد القوة (بمعناها الشامل للقوة المعنوية والمادية) والشامل للجهاد بالمال، والقلم والعلم والبيان والإعلام إضافة إلى الجهاد بالنفس عند توافر شروطه وضوابطه، فهذا الجهاد ليس عدوانا واعتداء على الآخرين، بل لدرء وردع المعتدين

2) إن الجهاد ـ بمعنى القتال ـ هو في حقيقته للدفاع عن الأمة الإسلامية دينها، وكرامتها، وديارها، وثرواتها وسيادتها، وهيبتها.

---

(1) العبودية ص 104

(2) بدائع الصنائع (4301/9) والشرح الكبير (172/2) والغاية القصوى (945/2) والروضة (214/1 – 217) والمغني (345/8)

(3) يراجع لمزيد من التفصيل: أ. د. علي محيى الدين القره داغي: نظرات في القوة والجهاد، بحث منشور في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ع10 سنة 1422هـ ص 289 وما بعدها

3) إن القوة في الإسلام ليست للإعتداء والظلم والعدوان، بل لحماية العدل والحريات الدينية، وأماكن العبادة، والمستضعفين، ودلت على ذلك النصوص الكثيرة، فقد رأينا أن القرآن الكريم يبين أن إعداد القوة الإسلامية لأجل عدم الوقوع في الحروب، وهذا ما يسمى بنظرية الردع الاستراتيجي ـ كما سبق ـ، وكذلك جاءت الآية الأولى في الجهاد تحمل في طياتها معنى الدفاع عن العدل وأماكن العبادات، والحريات، ودرء الظلم والظلمات، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج: 39 - 40)

4) إن جميع الأمم والحضارات القديمة والمعاصرة ـ بما فيها الحضارة المعاصرة ـ لم تقم إلاّ من خلال قوة تحميها، ولن تبقى إلاّ من خلال القوة التي تحافظ عليها، وتمدها، فلم يسجل التأريخ أبداً الحضارة العالمية والتمكين لأمة ضعيفة غير قادرة على حماية نفسها ومكتسباتها، فهذه هي أمريكا اليوم تنفق على قوتها العسكرية مئات المليارات، وعلى قوتها العلمية الأكثر، وهكذا، بل إنها كانت في صراع دائم مع الاتحاد السوفيتي السابق حتى تغلبت عليه بالعلم والاقتصاد، والتكنولوجيا وحرب النجوم... لذلك فإن تبني الإسلام للقوة أمر طبيعي، ولا سيما فإن الإسلام هو دين الله القائم على العدل والانصاف والشهود الحضاري.

5) إن الجهاد ـ بمعنى قتال الدفع ـ ليس باباً مفتوحاً يلجه كل من أراد، وإنما له شروط ومن أهم شروطه: أن يقرّه أهل الرأى والمشورة والحكم والسياسة الشرعية، يقول ابن تيمية: «الواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا»[1].

6) إن الجهاد الإعلامي ـ دفاعاً، ونصرة وبياناً وحجة وبرهاناً ـ من خلال نشر الإسلام بالوسائل الإعلامية المعاصرة اليوم (مثل الصحافة والمجلات، والإذاعة، والتلفاز والانترنيت) هو من أهم أنواع الجهاد في عصرنا الحاضر، بل هو الجهاد الذي سماه الله تعالى: جهاداً كبيراً، فقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: 52).

والخلاصة أن مفهوم الجهاد في الإسلام واسع جداً يشمل كل جهد يبذل في سبيل رفعة الإسلام، ونصرته، وتأييد شريعته، ونشر دعوته، ورد الأعداء وإفشال مخططاتهم

(1) الاختيارات الفقهية ص 309 – 311

العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو التربوية، أو الاجتماعية، أو الفكرية، بجميع الوسائل المتاحة المشروعة.

كل ذلك في نظر الإسلام جهاد، وقد سبق ما أوردناه من الأدلة المعتبرة الدالة على شموليته لكل هذه الأنواع، وعلى الأمة الإسلامية أن تكون أمة مجاهدة في جميع المجالات المادية والمعنوية حتى تكون قادرة على النهوض، وعلى تعمير الكون على ضوء منهج الله، وتطهير المجتمع الإنساني من الظلم، والفساد، حتى تعم الرحمة والعدل، وتنتفي الفتنة، ويكون الدين كله لله تعالى.

ثم إن لكل نوع من أنواع الجهاد وسائله الخاصة لأدائه على أتم وجه، وأكمل صورة، فوسيلة الجهاد العسكري القوة المادية والإعداد المادي، والصناعة العسكرية المتطورة، والأسلحة المتطورة إضافة إلى قوة الجانب الروحي والمعنويات القوية، وأما وسائل الجهاد الفكري فتكمن في الثقافة الواسعة، والإعداد العلمي بالإضافة إلى الاستعداد، والمواهب الشخصية، والقدرات الذهنية، ثم الوسائل المعبرة عن ذلك من خلال الكتب والأبحاث والمقالات، ووسائل الإعلام المختلفة المرئية والمقروءة والمسموعة وهكذا...

وقد أشار النبي الكريم ﷺ إلى هذا التوسع في وسائل الجهاد فقال: « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »[1] بل عدّ ﷺ الجهاد بالكلمة من أعظم الجهاد ـ كما سبق ـ كما رأينا أن المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢ ﴾ (الفرقان: 52) بجهاد الحجة والبيان والبرهان.

والواقع أن التكامل لأية أمة إنما يتحقق إذا أخذت بجميع وسائل الجهاد المختلفة المادية والمعنوية، والعسكرية والعلمية والتكنولوجية، ومن هنا نرى عظمة الإسلام حيث اختار هذه الكلمة (الجهاد) التي تشمل كل هذه الأنواع، وهي نفسها التي اشتقت منها كلمة (الاجتهاد) التي تعني قمة التطور الفكري الذي يتكون لصاحبه القدرة على الاستنباط والاستخراج، والابداع في شتى أنواع العلوم المختلفة، وبهذين الأمرين معاً يتم تعمير الكون على ضوء منهج الله تعالى، وتعم رحمته للعالمين أجمعين.

(1) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم عن أنس، وقال صحيح، وأفرده كما في التيسير للمناوي (1485/1)

المبادئ المهمة أثناء الحرب وبعدها:

إن الإسلام حصر القتال المشروع في الجهاد في سبيل الله تعالى بضوابط وشروط، وبالتالي أبطل كل قتال ليس في سبيله، مهما كان هذا السبيل، فمنع القتال لأجل الغنائم، ومتاع الدنيا، أو السيطرة والهيمنة القومية أو القبلية، أو لتحقيق مكاسب استعمارية أو اقتصادية أو نحو ذلك، ونحن نتحدث عن هذه المبادئ أثناء الحرب الدائرة، وبعد أن تضع الحرب أوزارها، كالآتي:

أولاً. أثناء الحرب واشتعالها:

فقد دلت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، والسيرة النبوية العطرة، والتطبيقات العملية للخلافة الراشدة على ما يأتي:

1- عدم قتل أحد سوى الذي يقاتل فقال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ (البقرة: 190)

2- نهى عن الاعتداء حتى في حالة الحرب وأثناء الحرب فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة: 190)

3- تصديق من يعلن إسلامه ولو كان في ساحة القتال وهو منهزم وقد قتل من المسلمين، حيث قال النبي ﷺ: «أمرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإيمان، وحسابهم على الله»[1] وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (النساء: 94)

4- وبقبول المقاتل مسلماً يعصم دماء ذريته الصغار أيضاً[2].

5- عدم جواز قتل الرسل والرهائن مهما كانت طبيعة الدولة التي أرسلتهم، فقد روى الحاكم وصححه، وأبو داود بسندهما عن نعيم بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لرسوليْ مسيلمة حين قرأ كتاب مسيلمة: ما تقولان أنتما، قالا نقول كما قال، فقال ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم».

6- عدم قتل النساء والأطفال وكبار السن والرهبان والفلاحين والعمال والحراثين، ونحوهم ممن لم يشاركوا في القتال، قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: 190) وقد ترجم الإمام مسلم في صحيحه: باب تحريم قتل

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، مع فتح الباري (1)

(2) المغني مع الشرح الكبير (413/10)

النساء والصبيان في الحرب، ثم روى بسنده عن عبدالله أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر ﷺ قتل النساء والصبيان[1]. وروى أبو داود بسنده أن رسول الله قال: «لا تقتلوا فانياً ولا طفلاً صغيراً»[2] وروى أحمد بسنده عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا بسم الله... ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »[3]، وجاء في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان: «إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله تعالى فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له»[4]. وروى ابن ماجه بسنده عن النبي ﷺ قال: « لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً»[5] أي أجيراً.

7- كراهة قتل الوالدين وذوي الأرحام إلاّ في حالة الضرورة أو الحاجة وهذا رأي الحنفية والشافعية والزيدية[6] وذلك للأدلة المعتبرة، أما الوالدان فلقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ (لقمان: 15)

8- وذكر الإمام محمد بن حسن الشيباني في كتابه العظيم أن: «حنظلة بن أبي عامر وعبدالله بن عبدالله بن أبي سلول استأذنا رسول الله ﷺ في قتل أبويهما فنهاهما» ثم ذكر بعض روايات قتل الابن أباه في الحرب وسكت عنه رسول الله ﷺ مما يدل على أن الابن إذا لم يقصد قتل أبيه، ولكن إذا اقتضته الضرورة، أو الحاجة الحربية فلا يأثم بقتله[7].

9- عدم التحريق والاغراق وقطع الأشجار ونحوها إلاّ إذا اقتضتها ضرورة الحرب، أو يترتب على ذلك الإقلال إراقة الدماء[8].

10- عدم استعمال أسلحة الدمار الشامل التي يترتب عليها أضرار بغير المقاتلين من النساء والأطفال والحيوانات والأجيال اللاحقة، حيث إن الأدلة الشرعية على عدم جواز ذلك متضافرة من الكتاب والسنة إلا من باب الردع الاستراتيجي. وقد نص بعض الفقهاء منهم المالكية على عدم جواز استعمال السمّ في قتال الأعداء[9].

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الجهاد (1364/3)

(2) سنن أبي داود، كتاب الجهاد (371/3)

(3) مسند احمد (300/1)

(4) معرفة السنن والآثار للبيهقي (249/13)

(5) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد (948/2)

(6) يراجع: النتف للسغدي (710/2) ونهاية المحتاج (64/8)

(7) كتاب السير الكبير، ط. مطبعة الاعلانات الشرقية (106/1)

(8) أما للردع ومنع العدو من الاعتداء فهي مشروعة بل مطلوبة.

(9) مواهب الجليل (352/3)

11- عدم قتل الحيوانات، وقد كانت وصية أبي بكر لمن يرسلهم إلى القتال: «لا تعقرن شاةً ولا بعيراً إلاّ لمأكله»[1].

12- عدم الاضرار بالبيئة مثل عدم قطع الشجر ونحوه إلاّ إذا اقتضته ظروف الحرب، حيث جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه: «لا تحرقن شجراً، ولا تقطعن شجراً مثمراً»[2].

13- الأمان والاستجارة، حيث أعطى الإسلام الحق لكل مؤمن أن يعطي حق الأمان لأي كافر من حيث المبدأ، حيث يدل على ذلك عدد كبير من الأحاديث والآثار الدالة على ذلك منها قوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم»[3] وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ (التوبة: 6) وقد أفاض الإمام محمد الشيباني في هذا الموضوع إ فاضة رائعة[4].

14- الصلح والهدنة ـ حيث ذكرنا أهمية ذلك في نظر الإسلام، وتطبيقه في صلح الحديبية.

ثانيا: حالة انتهاء المعركة وانتصار المسلمين

يتدخل الإسلام في كيفية التعامل مع المهزومين وبالأخص مع الأسرى، فيأمر بالإحسان إليهم، وتوفير حاجياتهم الأساسية من المأكل والمشرب والمسكن، حيث جعل الله تعالى إطعام الطعام للأسير من أفضل القربات إلى الله تعالى فقال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ (الإنسان: 8 - 9) وكذلك يتدخل الإسلام بفرض إكرام جثث القتلى بدفنهم، وعدم جواز أخذ المقابل للتسليم، أو الدفن أو نحوهما.

ومن أروع الأمثلة في هذا المجال موقف الرسول ﷺ من أهل مكة الذين آذوه وعذبوا أصحابه، وفعلوا ما فعلوا طوال أكثر من عشرين سنة، ومع ذلك لم يلجأ إلى الشماتة والتشفي، بل قال لهم قولته المعروفة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثالثاً ـ المبادئ الإسلامية والقانون الدولي الإنساني:

يقصد بالقانون الدولي الإنساني: مجموعة القواعد والمبادئ التي تضع قيوداً على استخدام القوة في وقف النزاع المسلح وذلك من اجل:

---

(1) معرفة السنن للبيهقي (249/13)

(2) المرجع السابق

(3) سبق تخريجه

(4) السير الكبير (420/2)

أ) الحد من الآثار التي يحدثها العنف على المقاتلين بما يتجاوز القدر اللازم الذي تقتضيه الضروريات الحربية.

وهذا المبدأ مؤصل في الكتاب والسنة حيث دلت نصوص كثيرة على حرمة التجاوز والاعتداء حتى في حالة الحرب واعتداء العدو فقال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: 190) وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة: 2) وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة: 194) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (المائدة: 87)

ب) تجنيب الأشخاص الذين لا يشتركون بشكل مباشر في الأعمال الحربية[1]. وقد ذكرنا وصايا النبي ﷺ وخلفائه من بعده في هذا المجال.

ج) احترام العقود والعهود والمواثيق حتى في حالة الحرب وبعد انتهائها، وقد ذكرنا فيما سبق النصوص الكثيرة الدالة على ذلك، بل أن الإسلام يزيد على ذلك بالتشجيع الكبير على التوسع من دائرة من له حق إعطاء العهد والإجارة، ولنذكر لذلك بعض النصوص:

فمن الكتاب:

- قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: 6)
- وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (التوبة: 4)

ومن السنة النبوية:

- قوله ﷺ: « قدر أجرنا من أجرت يا أم هانئ »[1] حينما أجارت عمته أم هانئ بنت أبي طالب، رجلاً أو رجلين من المشركين، حيث أعطى هذا الحق للجميع بمن فيهم النساء.

---

(1) أ. د. جعفر عبدالسلام: القانون الدولي الإنساني، بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، العدد الثاني 1406هـ ص 166

• وقوله ﷺ: « إذا آمن الرجلُ الرجلَ على نفسه، ثم قتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً »[2].

• وقوله ﷺ: « ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[3].

وقد اتفق الفقهاء على أن الأمان يصح من كل مسلم حر بالغ عاقل مختار، ذكراً كان أو أنثى، ما دام الأمان للأفراد، بل ذهب الحنفية إلى: أن أمان غير الإمام أيضاً يصح حتى ولو لجماعة كثيرة[4].

القانون الدولي الانساني في الحرب والفقه الاسلامي:

إن مصطلح القانون الدولي الإنساني حديث النشوء حيث استخدم أول مرة من جانب اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الوثائق التي قدمتها إلى مؤتمر الخبراء الحكوميين الذي عقد في دورته الأولى بجنيف عام 1971 والسبب في استخدام هذا المصطلح الجديد هو إبراز الطابع الإنساني الخالص للقواعد الحربية [5].

ولم نجد في الفقه الإسلامي هذا المصطلح، ولا مصطلح القانون الدولي، ولكن كما رأينا أن الفقه الإسلامي قد سبق القوانين الوضعية بوضع الأسس والمبادئ للعلاقات الدولية والقانون الدول الإنساني، ولكنه استعمل مصطلح الجهاد، أو السير، وكان للأئمة الكرام، وبالأخصِ الإمامٍ محمد بن حسن الشيباني المولود في 132هـ والمتوفى في 189هـ الذي ألف سفراً عظيماً في خمسة أجزاء في السير أو بعبارة دقيقة في القانون الدولي، والقانون الدولي الإنساني، حيث يعتبر أول رائد من رواد التأليف في القانون

---

(1) الحديث متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن الحديث رقم 300 ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، الحديث رقم 336

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم 18203 في كتاب السير باب: (الأسير يؤمنّ) (142/9) ط. 1414هـ / 1994، مكتبة دار الباز بمكة المكرمة، تحقيق محمد عبدالقادر عطا،

(3) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الجزية: باب (اثم من عاهد ثم غدر) برقم 3009، ومسلم في كتاب الحج برقم 1371

(4) يراجع: بدائع الصنائع (107/7) وفتح القدير (298/4) والفتاوى الهندية (198/2) وحاشية الدسوقي (186/2) ومغني المحتاج (238/4) والمغني مع الشرح الكبير (434/10)

(5) المرجع السابق

الدولي، حيث سبق بكتابه هذا غروسيوس الهولندي 1583 – 1645م الذي سمي أبا القانون الدولي في عصره.

ومن الإنصاف أن نقول: إن علماء القانون الدولي والمشتغلين به في مختلف بلاد العالم أسسوا جمعية في غوتنجن بألمانيا باسم: (جمعية الشيباني للحقوق الدولية) وانتخب لرئاستها في وقته الفقيه القانوني المصري الدكتور عبدالحميد بدوي، كما انتخب الدكتور صلاح الدين منجد الذي حقق كتاب السير الكبير للشيباني[1].

فالقانون الدولي الإنساني هو مجموعة من المبادئ والأعراف والإجراءات التي توفر الحماية لفئات معينة في حالات الحرب والصراعات المسلحة، وبالتالي فهو يشمل:

1 ـ قانون لاهاي الذي اقر عام 1899، 1907م والذي ينظم حقوق وواجبات المقاتلين عند وقوع الحرب.

2 ـ قانون جنيف الذي يستهدف توفير الحماية والمعاملة الإنسانية للمدنين الذين لا يشاركون في الحرب، حيث يشتمل على اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949م الخاصة بضحايا الحرب والبروتوكلين المضافين إليها اللذين أقرا في جنيف عام 1977 [2].

وهذه الاتفاقيات تستهدف حماية حقوق الإنسان في حالة الحرب، وحماية المدنين، وأن تكون الحرب نفسها مشروعة، وهكذا، وقد رأينا علاج الإسلام الانساني، بل الرباني في هذه المجالات.

---

(1) مقدمة مدير معهد المخطوطات بالقاهرة لكتاب السير الكبير، ط.شركة الاعلانات الشرقية 1971 (3/1)

(2) د. عبدالغني محمود: القانون الدولي الإنساني، ص 5

المحور الخامس:

علاقة المسلمين (الأقلية) بالدولة غير الإسلامية التي يعيشون في ظلها

تمهيد

فقد كتب في ذلك عدد كبير من الكتب والبحوث القيمة، وممن كتب في ذلك بالتأصيل والتفصيل العلامة الشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ فيصل مولوي، والدكتور طه جابر العلواني، والدكتور جمال الدين عطية، وآخرون، ولذلك فنحن لا نخوض فيما ذلروه وإنما نذكر هنا مجموعة من المبادئ العامة والقواعد الكلية التي تعلق بموضوعنا هذا، ويمكننا جمعها في مبدأ واحد، وهو: (إقرار الحقوق المتقابلة بين الأقلية الإسلامية، والدولة الأكثرية).

فقد سبق أن أصّلنا هذا المبدأ في جميع العلاقات بين المسلم والآخر، وهو مبدأ ثابت أقره الرسول ﷺ، حتى بين المسلم وبين الله تعالى ولكن بمنّه وفضله سبحانه ـ كما سبق ـ. وهذا المبدأ العام الجامع الشامل تتفرع منه مجموعة من الحقوق والواجبات على الطرفين:

أولاً ـ أهم الحقوق الواجبة على المسلم الذي يعيش في بلاد غير إسلامية

يمكن تلخيصها فيما يأتي:

أ) وجوب الوفاء بالعقود والعهود التي وقعها أو أقرها إلاّ ما كان يتعارض مع نص قطعيّ الدلالة والثبوت، أو مايسمى بالثوابت.

فالأدلة على وجوب الالتزام بالعقود والعهود للمسلمين ولغيرهم أكثرمن أن تذكر في هذه العجالة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ (المائدة: 1)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ ﴾ (الإسراء: 34)

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾ (الصف: 2 – 3)

بل إن الله تعالى أمر بالوفاء بالعهد الذي تم بين الرسول ﷺ وبين القبائل التي قد يصدر منهم ظلم على بعض المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ ﴾ (الانفال: 72)
حيث يدل على أنَّ حق الوفاء بالعهد فوق حقوق بعض المؤمنين الذين لم يهاجروا[1] قال ابن كثير: «... وان استنصروكم في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين إلاّ أن يستنصروكم على قوم من الكفار "بينكم وبينهم ميثاق"... فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه»[2].
ومنها قوله تعالى في حق المشركين: ﴿ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ ﴾ (التوبة: 7)
قال ابن كثير: « أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم... "فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة...، إلى أن نقضت قريش العهد، ومالأوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً...»[3].
وأما الأحاديث الصحيحة في هذا المجال فأكثر من أن تحصى في هذا البحث، منها الحديث المتفق عليه: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان »[4] وفي رواية مسلم: « وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم »[5] ومنها الحديث المتفق عليه أيضاً بلفظ: « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر »[6].
ب) عدم القيام بالغش والكذب والخداع للدولة، أو لغيرها، وذلك لحرمة الغش والخيانة والخداع، والتدليس والغدر مطلقاً...

---

(1) يراجع: جامع البيان للطبري بتحقيق الشيخ شاكر (20/66 – 70)
(2) تفير القرآن العظيم ط. دار ابن حزم (2/1318)
(3) المصدر السابق (2/1130)
(4) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (1/83، 84) ومسلم الحديث 59
(5) صحيح مسلم الحديث 59
(6) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (1/84) ومسلم الحديث 58

فقد عقد معظم علماء الحديث أبواباً خاصة بتحريم الغدر، والغش والخيانة، والخداع، والكذب، ذكروا فيه أحاديث كثيرة، منها الحديث المتفق عليه بلفظ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»[1] ومنها ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر...»[2].

وفي مجال الغش فالإسلام فيه حاسم يقول النبي ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»[3] فالحديث صريح في أن الغاش ليس من أمة محمد ﷺ التي يريدها الرسول ﷺ بل إن القرآن الكريم لم يأذن لرسوله أن يخدع أو يغش في نطاق العقود والعهود حتى لو تعامل الأعداء بالغش والخداع، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأنفال: 62)

وأما الكذب فقد ذكرنا بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه خصلة من خصال النفاق، بل إنه من الكبائر المحرمات، حتى جعله الرسول ﷺ هادياً ودليلاً يأخذ بصاحبه إلى النار، حيث يقول: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[4].

وهذا الحق مع كونه حقاً على المسلم تجاه الآخر فهو حق لله تعالى أيضاً، وأن التعدي عليه يعتبر تعدياً على حقوق الله تعالى، إضافة إلى أن عدم الالتزام بأخلاقيات الإسلام يؤثر كثيراً في سمعة الإسلام والمسلمين أمام غير المسلمين ويعطي صورة سيئة تبعدهم عن التقرب من الإسلام والدخول فيه، فقد أثبتت التجارب أن الأخلاق الفاضلة هي التي تدفعهم إلى الدخول في الإسلام، فقد قال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الممتحنة: 3)

---

(1) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (464/10) و (299/12) من حديث ابن عمر و (202/6) من حديث ابن مسعود، ومسلم الحديث 1735، 1736 من حديث ابن عمر، و 1737 من حديث أنس، و 1738 من حديث أبي سعيد الخدري، ويراجع رياض الصالحين بتحقيق الشيخ الأرنؤوط ص 449 — 450

(2) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (346/4 — 347)

(3) صحيح مسلم، الحديث 101، 102

(4) رواه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ (423/10) ومسلم الحديث 2607

وأن تسبب المسلمين في عدم إسلام هؤلاء بسبب عدم التزامهم بالأخلاق الراقية نوع من الفتنة.

ج) الالتزام بالقوانين واللوائح السائدة في البلد ما دامت لا تتعارض مع ثوابت الإسلام، ومنها القوانين الخاصة بالضرائب، حيث إن معظم حصيلتها تصرف فيما فيه النفع للجميع.

د) الحفاظ على الأمن والسلامة داخل المجتمع.

هـ) دعوتهم بالتي هي أحسن إلى الحق والعدل والإسلام، وبطريقة هادفة دون إثارة.

ه) تكوين صورة حقيقة إيجابية عن الإسلام والمسلمين، وتعزيز روح التضامن والتعايش، والتعاون، والتكامل، والتآخي.

ثانياً ـ حق الأقلية المسلمة على الدولة التي تعيش في ظلها:

ومن أهم هذه الحقوق التي يجب أن تلتزم بها الدولة غير الإسلامية تجاه الأقلية الإسلامية لديها، هي:

1- تحقيق العدل والمساواة ومنح الحريات في إطار القانون، ومنع الأفكار العنصرية، من أن يكون لها دور في الإضرار بمصالح المسلمين، ومراعاة شعور المسلمين، وعدم إثارتهم، ومنع الإساءة إلى ثوابت جميع الأديان تحت أي مسمى، والقيام بتشريع القوانين التي تحمي حقوق المسلمين وحريتهم الدينية.

2- ويعتبر من أهم الحقوق أيضاً السماح بإنشاء محاكم شرعية تكون لها صلاحية النظر في قضايا الأسرة والأحوال الشخصية، والقضايا الدينية الخاصة بهم، كما هو الحال فعلاً في البلاد الإسلامية التي أنشأت محاكم خاصة بغير المسلمين في المجالات السابقة.

وفي هذا المجال نشيد بالخطوة الجيدة التي أقدمت عليها الحكومة البريطانية بإقرارها إنشاء محاكم شرعية لها صلاحية النظر في القضايا المدنية الإسلامية، فقد قالت صحيفة "صنداي تايمز" اللندنية: «إن موافقة الحكومة اتسمت بالهدوء ومنحت القضاة الشرعيين حق إصدار قرارات في قضايا تتراوح بين الطلاق والنزاعات المالية المتعلقة بالعنف المنزلي. ولم يكن بالإمكان تنفيذ قرارات هذه المحاكم في بريطانيا من قبل، وظل ذلك يعتمد على الاتفاق الطوعي بين المسلمين.

وقد تبين الآن أن المحاكم الشرعية التي تملك تلك الصلاحيات أقيمت في كل من لندن وبيرمنغهام وبرادفورد ومانشستر ومقارها الرئيسية في نونيتون وواروYكشير. ومن المقرر إقامة محكمتين أخريين في غلاسكو وأدنبره »[1].

كما نشيد بالحكومات التي سمحت بإنشاء بنوك إسلامية، أو أفرع إسلامية لبنوك تقليدية.

3- الحفاظ على هوية الأقلية وخصائصها حفاظاً على التنوع المطلوب، فلا ينبغي للدولة أن تسعى جاهدة لتذويب الأقلية الإسلامية ودمجها دمجاً سلبيا في المجتمع الأوروبي، أو الغربي، أو المجتمع غير الإسلامي، لأن هذا يعني عدم الاعتراف بالتعدد والتنوع، وهذا نوع من الممارسة الخطيرة لتغيير الدين والهوية والانتماء.

وهنا نقول إن التأريخ يشهد بافتخار وبصدق وصراحة تسامح الدولة الإسلامية منذ عصر الرسالة إلى اليوم حيث لم تسع جاهدة إلى تذويب الأقليات الدينية، بدليل أن هذه الأقليات بقيت معززة إلى اليوم في كل البلاد التي كانوا فيها، بل إن اليهود حينما هجروا من أوروبا لم يجدوا ملاذاً غير الدولة الإسلامية والبلاد الإسلامية ـ كما سبق ـ.

فنحن مع الاندماج الايجابي الذي يحفظ للمسلم دينه وعقيدته مع انتمائه إلى وطنه الجديد بالحب والعمل الجاد، والافادة في إطار الجمع بينه وبين الولاء لله تعالى وللمؤمنين جمعاً محكماً دون تعارض ولا تصادم.

ثالثاً ـ الحقوق المشتركة بين الدولة والأقلية :

إن من أهم الحقوق المشتركة بين الأقلية والدولة غير الإسلامية التي تساعد على العيش المشترك والأمن والسلام الاجتماعي، وتطوير المجتمع، والمساحة الفعالة من الطرفين للنماء والازدهار والاستقرار ما يأتي :

1) التعارف عن قرب والاعتراف بالآخر، كما قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (الحجرات : 13) فالله تعالى خاطب الناس جميعاً مؤمنيهم وكافريهم بانهم من أصل واحد. وهذا يستدعي اعتراف كل واحد بالآخر، وأن لا يتكبر عليه، وأن يعتبره أخاه في الإنسانية « كلكم من آدم وآدم من تراب » إذاً لماذا التفاخر والتكابر والتناحر والتحارب ؟

---

(1) يراجع موقع صحيفة القدس http://web.alquds.com/node/102698

ثم بين الله تعالى أنه قد خلق من هذا الأصل الواحد فروعاً منبثقة منه، وهم الأقوام والشعوب والقبائل، وأراد الله تعالى أن يميز كل قوم، وشعب وقبيلة، بمجموعة من الصفات والخصائص التكاملية، وهذا يقتضي التعرف على هذه الصفات والخصائص والمكونات، والمشاعر والعواطف، والأديان، والمذاهب، وعندما يتحقق تعرف كل واحد على آخر، وتعرف كل شعب على شعب آخر، وتعرف كل أهل دين على الدين الآخر يتحقق التقارب والتعاون الحقيقي الذي يترتب عليه التعايش السلمي، وانشغال كل واحد بوجهته، وتتحقق الاستفادة من جميع الخصائص والصفات والمكونات لكل شعب وقبيلة، ودين فتكتمل الحضارة والتقدم.

على ضوء ذلك فإن على الدولة غير الإسلامية أن تسعى جاهدة لمعرفة المسلمين على حقيقتهم من حيث دينهم وقومهم وبيئتهم، وأن تستفيد من الخصائص والمكونات، وهكذا الأمر بالنسبة للأقلية المسلمة، حيث إن عليها أن تتعرف على البيئة الأوروبية أو الغربية والشعوب الأوروبية وخصائصها ومكوناتها وحضارتها، ومناهجها...، وأن تستفيد منها تماماً، وتتعامل كذلك على ضوء هذه المعارف، وبذلك يتحقق التفاعل الايجابي.

إن على المسلمين الذين يعيشون في الغرب أن يصححوا النظر إلى المجتمع الأوروبي أو الغربي بصورة عامة من حيث: إن المجتمع الأوروبي وإن كان علمانياً لكن سلطان العامل الديني فيه حقيقة لا ينبغي إنكارها، ولذلك فإن النشاط الثقافي الإسلامي مسموح به في حدود عدم إحداث تغيير في بنية المجتمع، وإلى مستويات لا تسمح ببزوغ منظومة سياسية إسلامية التوجه أو كيان إسلامي مستقل[1]، ولذلك فالحذر مطلوب جداً من الإثارة، وإنما المطلوب العمل الجدي الهادئ الهادف القائم على استراتيجية تنظر إلى المجتمع الغربي باعتباره ليس واحداً وبالتالي الاستافدة من تنوع سياساته إلى حدّ ما، ومن تغير قيمه ومعاييره بشكل سريع، وانه مجتمع التقدم العلمي والثقافة العلمية، ومجتمع المعرفة والمعلومات، وإلى التيارات والمؤسسات الدينية التي لا يزال لها نفوذها وقوتها[2]، وإلى أن المجتمع الغربي قد ترسخ في أذهان أجياله منذ الحروب الصليبية الخوف من الإسلام وتشويه صورته، وان الأحداث الإرهابية الأخيرة في أمريكا، وفي أوروبا،

---

(1) استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي التاسع (الدوحة نوفمبر 2000م ص 32

(2) المرجع السابق

وبعض الممارسات المرعبة في العراق باسم المقاومة قد جسدت هذه الصورة المشوهة ـ مع الأسف الشديد ـ.
2) التعاون على البر والتقوى، وعلى كل ما فيه خير الإنسانية جمعاء فقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ (المائدة: 2)
3) فالله تعالى أوجب أن يكون محل التعاون هو البر والاحسان وعمل الخير والنفع، والتقوى، وأطلق الحرية بعد ذلك مع من يتعاون، حيث يجوز للمسلم أن يتعاون مع الجميع ما دام محل التعاون البر والتقوى ولذلك لم يحدد الله تعالى من يتعاون معه، لأن هذا ليس مهماً فالمهم هو ما ذكرناه، ولذلك بين الرسول ﷺ أهمية هذا التعاون حتى مع المشركين الجاهلين حينما قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[1] حيث إن زعماء قريش رأوا أن هناك أناساً يظلمون، ومحتاجين يموتون بسبب الحاجة، وملهوفين لا يساعدهم أحد، فتحركت فيهم الفطرة السليمة فاجتمعوا في حلف الفضول " قبل البعثة وتعاهدوا على أن ينصروا الضعيف، ويغيثوا الملهوف، ويساعدوا المحتاج، ويقروا الضيف، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق[2].

أنموذجان في القرآن والسيرة للأقلية الإسلامية، لا يزالان "القدوة":

وحينما نقرأ القرآن الكريم نجد أنه قد ذكر أنموذجاً رائداً ورائعاً لشخص مسلم دفعته الظروف لأن يعيش في مجتمع غير مسلم، وهو سيدنا يوسف عليه السلام، كما ذكرت كتب السيرة أن عدداً غير قليل من أصحاب الرسول ﷺ (رجالاً ونساءً) قد هاجروا إلى الحبشة، وعاشوا فيها فترة مناسبة، لذلك علينا أن نذكر هذين الأنموذجين بشيء من التعليق والتحليل.

الأنموذج الأول: أنموذج نبي الله يوسف عليه السلام، في مصر:

لقد تكفل القرآن الكريم ببيان تفاصيل قصة يوسف عليه السلام، ونحن هنا يهمنا أن نستنبط منها ما يتعلق بالموضوع على ضوء ما يأتي:

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى (367/6) والمعارف لابن قتيبة ص 604

(2) المصادر السابقة، ويراجع: الشيخ فيصل مولوي: المسلم مواطناً في أوروبا ط. الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ص 32

1- فقد عاش يوسف عليه السلام في مصر محافظاً على دينه وعقيدته وأخلاقه، ولم ينزلق - بفضل الله تعالى - نحو الشهوات على الرغم من الضغوط الشديدة من امرأة العزيز، ونسوة أخريات، حتى بلغ الأمر إلى ما ذكره القرآن الكريم ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: 23) وقد ضحى في سبيل الحفاظ على أخلاقه بكثير من المميزات، بل سجن على ذلك عدة سنوات.

وهنا على الأقلية المسلمة أن تأخذ القدوة من يوسف عليه السلام في أن يكون همها الأكبر الحفاظ على دينها، وعقيدتها، وأخلاقها، وأخلاق الأجيال اللاحقة من خلال الأخذ بكل الأسباب المادية والمعنوية، والآليات التربوية والعملية الممكنة لتحقيق هذا الهدف، وهنا يظهر دور الثبات والحفاظ على الهوية والأفراد، وإلاّ فلا قيمة لأي هدف دنيوي مهما كان كبيراً وعظيماً إذا ترتب عليه ضياع الدين والأخلاق، وهذا ما صرح به سيدنا يوسف فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: 33) وذكر السجن مطلقاً حتى يفهم منه أن السجن حتى ولو طال كل العمر أحب وأفضل من الوقوع في معصية تؤدي إلى غضب الله تعالى، فما بالك بوقوع الكفر، والانصهار، والذوبان للشخص نفسه، أو للجيل اللاحق. الوفاء لكل من أحسن إليه حتى ولو كان كافراً حيث إن عزيز مصر حينما اشترى يوسف عليه السلام قال: ﴿ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ ﴾ (يوسف: 21).

فلم ينس يوسف هذا الجميل منه، لذلك كان أحد الدوافع في عدم الاستجابة لطلب زوجته - بعد خوفه من الله - حيث قال: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: 23) حيث أرجع الضمير بعض المفسرين إلى عزيز مصر بقرينة الحال، حتى لو رجع الضمير إلى الله تعالى تعالى فإن تكملة الآية تدل على ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف: 23).

2- عدم الظلم لأهل البلد حتى لو وقع من بعضهم أومن حكامهم ودولهم ظلم للمهاجر أو الأقلية، أو للدول الاسلامية بالاستعمار، فالظلم لا يقابل بظلم محض، قال يوسف بعد محاولة زوجة العزيز ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف: 23)

3- وفي ذلك رد قوي على بعض المسلمين المهاجرين الذي يبررون الاعتداء على أموال الدول الأوروبية أو الأمريكية بأنها كانت دولاً استعمارية أخذت أموال المسلمين، وبالتالي فما يأخذونه هو جزاء ما فعلته، فهذا فهم سقيم مخالف للشرع، لذلك فالرد أن

هذا ظلم لأدلة كثيرة منها ما ذكرناه، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام: 164)

4- ومنها أن هؤلاء المهاجرين لا يمثلون المسلمين المظلومين بالاستعمار.

5- التوطين، وحب الوطن الذي عاش فيه، فالملاحظ أن سيدنا يوسف عليه السلام لما ضيق عليه الخناق من هؤلاء النسوة لم يقل: الهجرة، أو الخروج أحب إليّ مما يدعونني إليه، بل قال:

6- ﴿ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: 33) وهذا دليل على أنه استوطن مصر، وأحبها وآثر السجن فيها على الخروج منها، وأكثر من ذلك طالب أن يجعله الملك على خزائن الأرض ليخدم شعب مصر، بل أتى بوالديه وإخوانه جميعاً إلى مصر ليستوطنوا فيها مع أنها لم تكن تدين بدين إبراهيم عليه السلام.

7- القيام بواجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يترك سيدنا يوسف عليه السلام واجب الدعوة إلى الله على الرغم من ظروف صعبة أحاطت به، من حيث كونه قد اشترى ـ ظلماً ـ فأصبح عبدا وبالتالي ضعفه الاجتماعي في البداية، كما لم يترك دعوته حتى في السجن، بل استثمر وجوده في السجن فنجح نجاحاً كبيراً، إذا دخل معه السجن فتيان رأيا رؤيا، فقبل أن يفسر لهما رؤياهما ذكرهما بالآيات التي أكرمه الله تعالى من معرفة أشياء لا تأتي إلاّ من قبل الله تعالى، ثم بين لهما دين إبراهيم القائم على توحيد الله تعالى، وعدم الاشراك به وعلى الحنيفية السمحة، كما بين لهما خطورة الشرك، وأن هؤلاء الشركاء المعبودين ـ من دون الله تعالى لا قيمة لهم، ولا سلطان، وأن الأمر والحكم كله لله تعالى، ثم فسّر لهما رؤياهما [1].

---

(1) تقرأ الآيات 36 — 41 من سورة يوسف، وهي: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا الأمر بالنسبة للأقلية المسلمة فيجب عليها أن تدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، لأن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على الجميع، كل حسب علمه وقدرته، ولو كان بتبليغ آية، كما قال الرسول ﷺ: « بلغوا عني ولو آية »[1] بل إن الله تعالى حصر الفلاح فيمن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران: 104)

8- غير المسلمين ليسوا سواء، فمنهم العادل الطيب الصالح في التعامل الدنيوي، ومنهم من يقبل المسلم ليحكم في بلده، فيقلده الوظائف المؤثرة، ومنهم دون ذلك، ولذلك لا يجوز أن يكون الحكم فيهم سواء.

فعزيز مصر كانت لديه الطيبة في التعامل والعدل فقال لامرأته منذ البداية ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (يوسف: 21) وانه لما رأى يوسف وزوجته يستبقان الباب، وشهد شاهد من أهله قال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ (يوسف: 29) وقال لزوجته ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ ﴾ (يوسف: 29) فلم يصدق زوجته عندما قالت: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يوسف: 25)

بل إنه وبخها وسمى عملها كيداً، كما قص القرآن الكريم: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (يوسف: 28- 29)

والحق أن هذا الموقف لو تكرر اليوم أمام أحد الجبابرة والظلمة من الحكام لجعل من يوسف ضحية لإنقاذ شرفه، والحكم عليه بالإعدام، أو العذاب الأليم، وذلك لتصديق زوجته أمام شخص غريب، في حين أن عزيز مصر لم تأخذه العزة بالإثم، ولم يصدق زوجته الحسناء، بل استمع إلى الشاهد، وصدقه، وبنى عليه موقفه، وحكم على زوجته بأنها من الخاطئين، ووصف عملها بالمكيدة العظيمة، واعتذر ليوسف ونصحه فقال: ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ (يوسف: 29).

وكذلك كان الملك صافي الذهن والبصيرة صالحاً في دنياه، وفضل مصلحة شعبه، ولم ينس فضل العلم والعلماء، فمع أن يوسف عليه السلام فسّر رؤياه، وأعطى صديقه (مندوب الملك) كل تفاصيل رؤيا الملك فقال له: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (يوسف: 47)

---

(1) الحديث رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

لكنه أبى إلاّ أن يطلبه لمقابلته، فلو كان ذلك في عصرنا لربما أسنده الملك إلى نفسه، ولم يسند الفضل الى هذا الغريب المتهم المسجون، إذ كيف يتنازل لعبد غريب فيسند إليه الفضل، فكم نرى اليوم من أفكار عظيمة يأخذها الوزير من أحد مستشاريه من الخلف فيسنده إلى نفسه ؟.

ولما رفض يوسف طلب الملك بالذهاب إليه إلاّ بعد التحقيق مع هؤلاء النسوة اللاتي تسببن في إدخاله السجن، لم تأخذ الملك عزة بالاثم فاستجاب له، وقام بالتحقيق، وظهرت براءة يوسف تماماً.

ثم طلبه الملك بعد ذلك ليعطيه منصباً استشارياً كبيراً فقال: ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾ (يوسف: 54) ولكن عندما كلمه تبين له أن يوسف عليه السلام على مقدرة عالية في التنظير والتحليل والتنفيذ، فلذلك قال له بعدما كلمه ﴿ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يوسف: 54) أي أنك لك حق التمكين في أية وظيفة سيادية تنفيذية، بما لك من العلم والأمانة، وحينئذ بيّن يوسف بنفسه الوظيفة المناسبة له فقال: ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف: 55) وهي في الحقيقة وظيفة أربع وزارات اليوم: وزارة المالية، وزارة الزراعة، وزارة الاقتصاد والتجارة، ووزارة الشؤون الاجتماعية، والتموين. ومن جانب آخر فإن ذكر الله تعالى رؤيا الملك ـ وهو كافر ـ وهي رؤيا حق يدل على أن الكافر قد تجد لديه الصفاء والنقاء، فيرى رؤيا قد تكون صادقة.

9- الأقلية لها الحق أن تتقلد الوظائف العليا، والوزارات، ونحوها ـ كما سبق ـ آنفاً، ولها الحقّ إذا لم يكن عليها واجبا في أن تسعى إلى تلك الوظائف كما سعى يوسف إلى أن يكون على خزائن الأرض.

10- المسلم مكلف بصناعة الحياة في كل مكان، وليس صناعة الموت والدمار، فقد قام سيدنا يوسف فعلا بصناعةحياة عظيمة لشعب لم يكن مسلما وإنقاذهم من المجاعة والموت المحدق بهم، حيث قدم لهم أعظم أفكاره، بل أعطاهم من بركات الوحي والإلهام والنبوءة ما أنقذهم بها حقا بفضل الله تعالى. فالأقلية المسلمة عليهم واجب أمام أوطانهم، في تقديم جميع الابتكارات والعلوم، والخدمات لإنقاذها وتطويرها، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام حيث أنقذ مصر وما حولها من كارثة ومجاعة ربما كانت تقضي على معظمها، وتدمرها، من خلال تقديم علومه وابتكاراته وتخطيطه وقيامه فعلا بتنفيذ هذه المهمة العظيمة.

11- عدم نسيان الوطن الأم، وإبقاء الحب والعاطفة له مع تقديم الخدامت إلى أهله أيضاً، بقدر الإمكان وهذا ما فعله يوسف عليه السلام حيث ساعد إخوانه وأحسن إليهم بالعطاء والمواد الغذائية ثم طلب من أبويه وإخوانه أن يدخلوا مصر مكرمين معززين آمنين: ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف: 99)

12- نسيان إساءات أهل بلده إن حدثت، والعيش بعيداً عن دائرة الثأر والماضي.

فعلى المسلم المهاجر أن ينسى إساءات بلده (حكاماً أو محكومين) إن وجدت بعدما وفقه الله تعالى في وطنه الثاني، فلا يعيش بعقلية الثأر والانتقام، ولا يحمل معه سلبيات وطنه، فقد تغير وطنه، إذن عليه أن يغير نفسه نحو الأحسن، وهذا ما فعله يوسف مع إخوانه الذين أرادوا قتله، ثم دبروا حادثة البئر، التي أدت إلى استرقاقه وبيعه، والمصائب التي هددت نفسه، وعرضه وشرفه، ثم لم يكتفوا بذلك، بل ظلت أحقادهم مجسدة في نفوسهم، بدليل أنهم حينما أخرج صاع الملك من رحل شقيق يوسف نطقوا بهذا الحقد الدفين، وكذبوا ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ ﴾ (يوسف: 77)

فهذا الكذب إن دل على شيء فإنما يدل على بقاء حقدهم الأسود، واستمرار حسدهم وكراهيتهم ليوسف وافترائهم عليه...

ومع كل ذلك لم يقابل يوسف عليه السلام ما تعرض له من ظلم بالثأر حتى يأخذ ما هو حق له، بل حتى في جوابه عليهم لم يصفهم بأنهم أشرار، بل وصف مكانهم بالشر ﴿ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (يوسف: 77) حتى كان بإمكان يوسف أن ينتهز الفرصة ليفرض عليهم إثبات هذه السرقة أو العقاب على تهمتهم دون دليل، ولكنه ترك كل ذلك.

وحينما انكشفت الحقائق وانجلت السحب، وأحسّ إخوته بالخجل عاملهم نفسياً ومادياً بأرقى وأجمل وأرق معاملة، فقال: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (يوسف: 89 - 93)

ثم قصد إلى تعليل موقفهم بما يرفع عنهم الحرج بأمور منها:

أولاً: برر فعلهم بالجهل وليس بسوء القصد والطوية مع علمه بذلك ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ (يوسف: 89)

ثانياً: بدأ بذكر نعم الله تعالى عليه دون ذكر ما أصابه من سوء فقال: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: 90) وفي هذا تخفيف كبير على نفسيتهم فكأنه يقول لهم إن ما فعلتم بي ترتب عليه خير كثير لي من التمكين في أرض مصر.

ثالثاً: قد بدأ بقوله: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴾ (يوسف: 92) أي لا لوم ولا عتاب مني عليكم، مع أن المقام مقام المغفرة من الذنب العظيم، وفي هذا تخفيف نفسي عليهم أي أن المسألة بسيطة فلا لوم ولا عتاب.

رابعاً: قوله: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (يوسف:92) يدل على حرصه وحبه لهم حيث دعا لهم، وأن الأمر عند الله أنني أدعو بالمغفرة لكم، وبما أن الله أرحم الراحين فهو يغفر لكم.

خامساً: إن في قوله: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف: 92) إشارة إلى أنني قد رحمت بكم فكيف أرحم الراحمين لا يرحمكم ؟

سادساً: إن قوله بعد سجود أبويه وإخوانه للعرش ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: 100) يحمل بين طياته مجموعة من المخففات، بل والمرطبات لنفوس إخوانه، بل والموجبات للشكر على ضوء ما ياتي:

أ. بنى يوسف على النهاية السعيدة التي وصل إليها أي أن المهم هو هذه الخاتمة السعيدة، والخير الذي حصل له ولهم جميعاً. ولم يدخل في بيان ما أصابه من مصائب وسجن وعذاب

ب. أسند كل ما حدث له إلى تأويل رؤياه التي جعلها الله حقاً فقال: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (يوسف: 100)

وهذا يعني أن ذلك بتدبير الله له حتى يصل إلى هذه المنزلة.

ج. ذكر النتائج الخيرة، والإحسان والنعم فقال: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ (يوسف: 100) كما أنه لم يتطرق إلى الماضي، وبدأ بنعمة خروجه من السجن، والتمكين في الأرض...

د. أسند كل ما حدث إلى نزغ الشيطان، فقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ (يوسف: 100)

هـ. قدم نفسه بالنسبة لنزغ الشيطان قبل إخوانه، مع أنه كان صغيراً، ولم يكن له يد في الأمر، وإنما أراد بيان أن الجميع معرض لهذا النزغ من الشيطان.

و. استعمل لفظ (إخوتي) بالإضافة إلى نفسه مما يشعر بحبّ دافق، وعاطفة جياشة نحوهم.

هذا هو الأنموذج العظيم الذي يجب أن يكون قدوة لكل الأقليات المسلمة في العالم أجمع، أن تكون مثل يوسف عليه السلام، في تعامله مع وطنه الذي استقر فيه، ومع وطنه الأول وأهله الذين أساؤوا إليه.

فوالله لو فعلنا مثل ما فعل يوسف لدخل معظم العالم في الإسلام، كما دخلت شعوب شرق آسيا من خلال أخلاق التجار ودعوتهم.

الانموذج الثاني: أنموذج المهاجرين إلى الحبشة

فقد ذكر أصحاب السير أن قريشاً حينما زادت من الأذى والتعذيب والتضييق على أصحاب رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، أذن لبعضهم بالهجرة، فقد جاء في تأريخ ابن كثير: « قال محمد بن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله عز وجل، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: « لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي - أرض صدق – حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة كانت في الإسلام، وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ »[1].

قال ابن إسحاق: « ثم خرج جعفر بن أبي طالب، ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وولدت له بها عبد الله بن جعفر، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة »[2].

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود قال: « بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحواً من ثمانين رجلاً، فيهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عرفطة،

---

(1) البداية والنهاية للحافظ عماد الدين ابن الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (701 – 774هـ) تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان الجيزة 1997م (4/166 – 167)

(2) يراجع: سيرة ابن اسحاق ص 208، وسيرة ابن هشام (1/323)

وعثمان بن مظعون، وأبو موسى فأتوا النجاشي. وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه، وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه، فسلَّم ولم يسجد. فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً، ثم أمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال: فما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله ﷺ. وأنه الذي نجد في الإنجيل. وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما »، ثم تعجَّل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً. وزعم: أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته.قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، وسياق حسن. وفيه ما يقتضي أن أبا موسى كان ممن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة، إن لم يكن ذكره مدرجاً من بعض الرواة والله أعلم»[1].

ونذكر هنا ما حدث من حرب على الحبشة، وموقف الصحابة منها حيث تروي لنا أم سلمة المهاجرة هذه القصة قالت: « فأقمنا مع خير جار في خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه... فوالله ما علمنا حزنا حزنا قط هو أشد منه، فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي فخرج إليه سائراً فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: «من يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر على من تكون؟ وقال الزبير – وكان من أحدثهم سناً – أنا، فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، فجعل يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس فحضر الوقعة فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه، فجاء الزبير فجعل يلوح لنا بردائه ويقول: ألا فأبشروا، فقد أظهر الله النجاشي. قالت: فوالله ما علمنا أننا فرحنا بشيء قط فرحنا

(1) مسند أحمد (461/1) وإسناده حسن

بظهور النجاشي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة وأقام من أقام»[1]

ما يستفاد من هذه القصة:

1) أن المدخل إلى قلوب الآخرين إنما يتحقق من خلال الثوابت المشتركة وبيان الأوصاف الطيبة لرموزهم، حيث إن جعفراً رضي الله عنه قرأ صدراً من سورة مريم التي تذكر الأوصاف الطيبة لسيدنا عليسى، وسيدتنا مريم عليهما السلام حتى بكى الملك، ولم يتحدث في هذا المقام كما ذكره القرآن عن بعض النصارى من التثليث، ونحوه من ذم النصارى، وهذا يقتضي من الأقلية المسلمة أن تبحث دائماً عن الثوابت المشتركة والأمور المحببة.

2) الالتزام بثوابت الدين مهما كانت الظروف، فقد رأينا أن صحابة رسول الله ﷺ لم يسجدوا للملك على الرغم من ظروفهم الصعبة وحالتهم الخطرة، وأن العرف السائد كان يقتضي ذلك، حيث دخلوا على الملك بعد أن جاء وفد قريش بالهدايا العظيمة والسجود له لردهم إلى مكة، فسلموا عليه ولم يسجدوا له، فقال الملك: « مالكم لا تحيوني كما يحييني من أتاني من قومكم...» فقال جعفر: « وأما التحية فإن رسول الله ﷺ أخبرنا: أن تحية أهل الجنة: السلام، وأمرنا بذلك فحييناك بالذي يحيى بعضنا بعضاً » وفي رواية: «ثم أمرنا أن لا نسجد إلاّ لله »[2].

وهذا يقتضي من الأقلية المسلمة وجوباً أن لا تتنازل عن معتقدات دينها وثوابته، وأن لا تقبل بما يتعارض مع تلك المعتقدات والثوابت، أو يؤدي إلى تذويبها، والقضاء على هويتها، فهذا أمر في غاية من الأهمية، وإلاّ فما قيمة البقاء والعيش آمناً رغداً والعقيدة والثوابت في خطر، لذلك يجب عليها أن تبذل الغالي والثمين، وتضحي بكل شيء في سبيل الحفاظ على هويتها الإسلامية وهوية الأجيال اللاحقة.

---

(1) البداية والنهاية للحافظ عماد الدين ابن الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (701 – 774هـ) تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان الجيزة 1997م (185/4 – 186)

(2) مسند أحمد (461/1) ويراجع: البداية والنهاية (173/4)

3) جواز الهجرة إلى دار الكفر، والبقاء فيها، حيث إن هؤلاء الأصحاب بقوا إلى عام خيبر، حيث يقول جعفر: « فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني، ثم قال: « ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح، أم بقدوم جعفر »[1].

4) الحبّ للوطن الجديد الذي آواهم، والحزن على انتصار الأعداء على أهله وملكه، والدعاء لنصرته والفرح بها، وحضور أحدهم الموقعة، والاستبشار بنصره[2]. وفي هذا دليل على أنه لا تعارض بين ما سبق وبين الولاء لله ورسوله وللمسلمين.

5) الوفاء، حيث روى البيهقي وغيره عن أبي أمامة قال: « قدم وفد النجاشي على النبي ﷺ فقام يخدمهم، فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال: «إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وإني أحبّ أن أكافئهم »[3]. وفي صنيع رسول الله مع هذا الوفد مع أنهم كفار، دليل آخر على أن المسلم يجب أن يكون وفياً شاكراً لله تعالى لكل من أحسن إليه مهما كان دينه.

والخلاصة كان هذا بعض ما يمكن الاستنباط من هذه القصة الرائعة، والقدوة الطيبة لسيدنا جعفر، ورفاقه رضى الله عنهم أجمعين.

---

(1) البداية والنهاية بتحقيق عبدالله التركي (179/4) ويراجع: معجم الكبير للطبراني (1478/2) ومجمع الزوائد (30/6)

(2) البداية والنهاية (4/ 185 — 186) وسيرة ابن اسحاق ص 197 وسيرة ابن هشام (339/1)

(3) دلائل النبوة للبيهقي (307/2) ويراجع: البداية والنهاية (4 /194)

المحور السادس:

نحن والغرب، صراع أم حوار؟ تصادم أو تعايش؟

- بعد المشاركة على القضاء على الشيوعية أصبحنا (نحن) الضحية
- الواقع الغربي والصراع (الحملات الصليبية، الاستعمار، والتنصير، والاستشراق)
- الانتاج الفكري والصراع
- لماذا يكرهوننا
- دور الأفلام
- دورنا (نحن) في تشويه سمعتنا
- نماذج من أصحاب الفكر الصراعي الغربي
  - تقرير مؤسسة راند
  - فوكاياما
  - صموئيل هانتنجتون
  - البابا بندكيت الـ 16
- الاسلام والغرب، أيهما يحارب الآخر
- الاشكالية
- أنواع المخاوف البارزة في العلاقة بينهما
- موقف الاسلام من صراع الحضارات
- الأصل هو سنة التدافع الايجابي والدفع بالتي هي أحسن
- هل هذا يعني أن الصراع غير موجود ؟

بعد مشاركة المسلمين (نحن) مع الغرب (الآخر) في القضاء على الفكر الشيوعي أصبحنا (نحن) الضحية :

لم يصدق الكثيرون أن الصراع الرأسمالي مع المعسكر الشيوعي (أو صراع الغرب الرأسمالي مع الشرق الشيوعي) ينتهي بهذه السرعة، وأن الحرب الباردة التي دامت بعد الحرب العالمية الثانية حوالي خمسين سنة أن تدفن آثارها بسرعة، وأن ينتهي الاتحاد السوفيتي في عام 1992 ويدخل هو ومعسكره في أحضان الغرب الرأسمالي وتتغير سوقه الاقتصادية من الاشتراكية، بل والشيوعية المتطرفة إلى اقتصاد السوق والاقتصاد الرأسمالي وتتحكم فيها العولمة ومنظمة الجات، ثم المنظمة الدولية للتجارة الحرة [1].

وظن الكثيرون أنه بانتهاء هذا الصراع المرير الذي راح ضحيته مئات الملايين من البشر والتريليونات من الدولارات تنتهي حقبة الصراع، ويبدأ العالم عصراً جديداً من التفاهم والحوار، وتحقيق السلم والسلام العالميين لتنعم البشرية بشيء من الهدوء وراحة البال ليفرغ العالم الغني لمساعدة العالم الفقير الذي يزيد على ثلثي السكان وليصرف جزء من نفقات الحرب الباهظة على إسعاد الفقراء وإغنائهم، أو ليعيشوا عيشة كريمة تليق بالإنسان، وعلى المرضى والأطفال المعذبين في العالم بسبب الفقر وسوء الغذاء وقلة الدواء.

وقد تحطمت هذه التوقعات على صخرة الواقع، فأدت بمعظم الساسة والمفكرين الغربيين إلى أن يصنعوا صراعاً آخر أكثر مرارة، وهو الصراع مع الإسلام وحضارته، ووضعه في دائرةٍ العدوّ الأول مكان الاتحاد السوفيتي السابق، مع أن الإسلام كان له دور عظيم جداً في إبطال الأفكار الإلحادية للشيوعية والقضاء على المادية الجدلية التي تقوم عليها الفلسفة الشيوعية، كما أن المسلمين كان لهم دور كبير من خلال الجهاد في أفغانستان، وحتى بعض الغربيين (مثل بريجيستكي مستشار الأمن القومي في عهد كارتر) اعترفوا بأنه لولا الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي لما سقط بهذه السرعة، ولذلك كان من المتوقع أن يتصالح الغرب مع الاسلام والمسلمين على أساس العدل والتعايش السلمي بدل الصراع والهجوم...

ويبدو أن المفكرين الغربيين أمام الوضع الحالي لهم اتجاهان، اتجاه يميل إلى أن العلاقة يجب أن تكون علاقة حوار، وتعايش، وحسن جوار، في حين يسير الاتجاه الآخر (وهو

---

(1) كتب هذا البحث في عام 2002 ثم أضيف اليه بعض المعلومات.

الغالب)، وبالأخص في العقد الأخير إلى تبني صدام الحضارات، واعتبار الإسلام أكبر خطر يهدد الحضارة الغربية وأمن دولها، والمنظومة القيمية الغربية، منطلقين من (الأنا المتضخمة الأقوى) متأثرين بما خلفته الحروب والصراعات الصليبية، وما أثارته الكنائس ضد الإسلام والمسلمين منذ سقوط الدولة الرومانية في الشام ومصر، ثم سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالكامل في عهد السلطان محمد الفاتح من سقوط قسطنطينية في أيدي الإسلام والمسلمين، ثم التبريرات الاستشراقية التي ساندت المستعمرين لغزو ديار المسلمين.

لم يكن معظم الساسة والمفكرين الغربيين يفصحون عن نواياهم خلال الحروب الباردة، حيث كان العدو الأول في نظرهم هو الفكر الأحمر الذي وراءه دولة قوية نووية تهيمن على نصف أوربا ولها نفوذها القوي في معظم بلاد العالم.

بل إن هؤلاء كانوا يريدون أن يقف معهم العالم الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي، ويسخرون القوة الدينية الإسلامية ضده، وللحق نقول: إنهم قد استطاعوا في كثير من الأحوال الزج بالدول الإسلامية في هذا الصراع الرأسمالي الشيوعي لصالحهم، فقد وجدوا من خلال الحوار المسيحي الإسلامي والعلاقات الدينية التي ربطت بين الجهات الدينية الإسلامية الرسمية والجهات الكنسية توجيه ضربات قاصمة لظهر الفكر الشيوعي الإلحادي.

وفي اعتقادي أن الأيدلوجية الشيوعية ما كان باستطاعة الفكر المسيحي أن ينال منها بشيء يذكر، ولكن الذي استطاع أن ينال منها بقوة، وينقض غزلها تماماً، ويسقط بنيانها من أساسها هو: العقيدة الإسلامية، والفكر الشمولي الإسلامي الجامع بين النقل والعقل.

وهذا لا يعني أن ما قام به هؤلاء المفكرون الإسلاميون كان في خدمة الإستراتيجية الغربية، لأنهم لم يفعلوا إلاّ خدمة لدينهم أمام فكر إلحادي فاضح يعتبر الدين جميعا ـ حتى الإسلام ـ أفيون الشعوب، ولا يعترف بأي قيمة أخلاقية في مجال الأسرة والمال، فكان هذا الدفاع من الواجبات الإسلامية قبل أي شيء آخر.

ولكن القصد هو أن الساسة الغربيين استفادوا من كل ضربة موجهة فكرياً إلى الفكر الأحمر، كما استفادوا سياسياً من كل صراع بين المسلمين والفكر الشيوعي، وبالأخص في أفغانستان حيث جيشوا كل الطاقات الممكنة لإسقاط الاتحاد السوفيتي، أو إضعافه في أفغانستان التي كانت شراكاً ومصيدة له (أيَّ مصيدة) فسخروا أموال

جميع الدول التي هي في فلك الغرب، وضخموا خوفها من وصول السوفيت إلى بلادها لإسقاط أنظمتها التي كانت تعتمد بعضها على الغرب في إبقائها.
وقد تحقق الهدف المنشود للغرب، وهو إسقاط الاتحاد السوفيتي بأموال المسلمين ودمائهم، ولكن جميع نتائج الانتصار عادت إلى الغرب فقط، حتى المجاهدون في أفغانستان ـ بسبب خلافاتهم ـ حارب بعضهم بعضاً إلى أن انتهوا بحركة طالبان التي آلت هي الأخرى إلى الزوال والاضمحلال ـ كما شاهدنا ـ فلم يستفد هؤلاء وأولاء شيئاً يذكر، لا أقاموا دولة الإسلام، ولا حافظوا عليها، ولا أصبحوا قدوة لغيرهم في التضحية والإيثار وتقديم مصالح الأمة على مصالح أنفسهم.
وأما المجاهدون العرب (أي الأفغان العرب) فقد كان جزاؤهم جزاء سنمار حيث منعوا حتى من العودة إلى ديارهم، وحوربوا من نفس الحكام الذين شجعوهم بالمال والدعم المعنوي واللوجستي لهم، حتى يبقوا مشكلة لإثارة مشكلة أخرى تستغل أيضاً لصالح القوى الاستعمارية.
ومن خلال ذلك نفهم توجيه القرآن الكريم للمسلمين أن لا يفرحوا بهزيمة قوة على أخرى أو انتصارها إذا هم لم يستفيدوا من صراع القوتين حيث يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ ﴾ (الروم: 1 – 6)
فالمؤمنون يجب أن يفرحوا بنصر الله لهم وقد كان نصر الله لهم حينما أسقطوا الإمبراطوريتين المنهمكتين بالصراع فيما بينهما.
وما فعله الغرب (وبالأخص أمريكا) مع المسلمين خلال الحرب الباردة فسره حقاً المفكر الأمريكي ـ صموئيل.ب. هانتجتون ـ في مقالته: صراع الحضارات، حيث يذكر عدة حضارات، وهي الحضارات الإسلامية، والصينية، واليابانية، والهندية، والأرثوذوكسية السلافية، والأمريكية اللاتينية، والأفريقية، ثم يقترح بشدة أن تتحد الحضارة الغربية مع جميع الحضارات لكسر شوكة الإسلام، والصين ثم تستوعب بقية الحضارات لتكون الهيمنة في الأخير للحضارة الغربية فقط[1].

---

(1) انظر: صموئيل هانتجتون: صراع الحضارات، مقال مترجم في مجلة السياسة الدولية، يصدرها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، مصر ع 116 إبريل 1994 وكذلك خصصت مجلة الهلال

الواقع الغربي والإنتاج الفكري يدلان على ضرورة الصراع:

أولاً: الواقع والتأريخ بإيجاز شديد (الحملات الصليبية، الاستعمار، والتنصير، والاستشارق):

إذا نظرنا إلى الواقع الغربي والصراع الغربي مع العالم الإسلامي وما أنتجه الفكر الغربي في غالبه يدلان بوضوح على أن الغرب هو الذي يريد الصراع لتحقيق مآربه، وتجسيد هيمنته الاستعمارية على عالمنا الإسلامي بل وعالمنا الشرقي لاستغلاله واحتلاله والسيطرة الكاملة عليه، حيث بدأ الغرب بذلك منذ غزو الاسكندر الأكبر(35 ـ 324ق.م) للشرق الأوسط حيث بقي المحتلون الإغريق والرومان حوالي عشرة قرون إلى أن أزاحتهم الفتوحات الإسلامية، ثم جاءت الحملات الصليبية الواحدة تلو الأخرى على الشرق الأوسط بدءاً من سنة 489هـ إلى وقتنا الحاضر، حيث دامت على الشام قرنين من الزمن، واحتلوا خلالها القدس الشريف عام 492هـ إلى أن حررها صلاح الدين الأيوبي عام 591هـ، ثم لما يئسوا من الشرق الإسلامي الأوسط ركز الصليبيون الغربيون جهودهم للالتفاف على العالم الإسلامي لاقتلاع الإسلام وحضارته من غرب أوربا من خلال غزوهم للأندلس (897هـ ـ 1492هـ) وإبادة المسلمين فيها، حيث لم يتركوا فيها مسلماً واحداً إلاّ أمام أحد الخيارين القتل والحرق، أو التنصير، إلاّ الذين فروا بدينهم إلى المغرب، ثم اعادة الكرة على قلب العالم الإسلامي (مصر والشام) من خلال حملة بونابرت (1769 ـ 1821م) وما ترتب عليها من آثار، ثم الاستعمار البريطاني، والفرنسي والهولندي، والإيطالي والاسترالي لعالمنا الإسلامي من خلال القرنين الأخيرين، حيث انتهت الحملات الحديثة بسقوط السلطة العثمانية التي كانت رمزاً لوحدة العالم الإسلامي، وتمزق العالم الإسلامي إلى دويلات.

والخلاصة أن تأريخ الغرب مع الإسلام قائم على الصراع بسبب الجهل لحقيقة الإسلام، وبسبب الخوف منه، وبسبب الصراع على الأرض والاقتصاد، وبسبب تأجيج الكنيسة لنار الفتنة خوفاً على تأثر النصارى بالإسلام وتعاليمه فيدخلون في الإسلام، لذلك أطلقوا على الرسول ﷺ أنه: (المسيح الدجال) وأثاروا النصارى ضد المسلمين عام 1189م من خلال تصوير تمثال للمسيح وهو ذبيح بسكين محمد[1] وكان

المصرية عددها الخاص في شهر نوفمبر 1993 بهذا الكتاب وما أثير حوله، ويراجع: د. أحمد القديدي: الإسلام وصراع الحضارات، كتاب (الأمة) القطري ع 44 ص 52

(1) عبد الفتاح عبد المقصود: صليبية إلى الأبد ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975م، ص 44

شعار البابا أوربان الثاني في تأجيج نار الثأر من المسلمين « إن الحرب المقدسة المعتمدة... ليست لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بجملتها»[1] حتى انتحل القس نصاً في الإنجيل للدلالة على حصر الملتزمين بالمسيحية في من يشارك في الحروب الصليبية، حيث يقول «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون تلميذاً»[2].

بل أفتى القس بأن الإبادة الجماعية للكفرة (أي غير النصارى من المسلمين و...) مشروعة، بل تعتبر نحراً للقرابين إرضاءً للربّ، حيث قالوا « إن المسيحي الذي يبيد أعداء دينه... إنما يفعل هذا، وإنما ينحر للقرابين إرضاءً للربّ»[3] ولذلك استباح الصليبيون القدس الشريف حينما احتلوه عام 492هـ وقتلوا في حدود سبعين ألفاً من العباد والزهاد والنساء والأطفال حتى جاست خيولهم في دمائهم بين أطلال الخراب، يذكر ابن كثير وغيره من المؤرخين أن الصليبيين استباحوا القدس الشريف لمدة أسبوع للقتل والنهب والاغتصاب فقتلوا أكثر من ستين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وشدوا الرحال إليه، كما نهبوا كل ما في المسجد، ثم جعلوه اصطبلاً لخيولهم[4] في حين أن صلاح الدين عندما انتصر عليهم عاملهم بإحسان فداوى مرضاهم وأسعف جرحاهم، وساعد فقراءهم على فك الأسر، فأبلى بلاءً حسناً في القتال وفي السلم.

وأما ما فعله الصليبيون في الأندلس من تقتيل وتحريق وقيامهم بحفلات عامة لحرق المسلمين الذين لا يتنصرون فيندى له جبين الإنسانية.

وأما ما فعله الانجليز في فلسطين، ثم تبعتهم أمريكا في تأييد العدو الصهيوني في جميع مواقفه وأفعاله وإرهابه وقتله وتدميره وتشريده للفلسطينيين، ومذابحه النكراء في صابرا وشاتيلا وجرائمه اليومية المتكررة كل ذلك يعتبر من هذا الصراع المتأجج الذي يثيره الغرب نحو المسلمين المستضعفين.

وأما ما شاهدناه وسمعناه مما فعله الصرب النصارى بالمسلمين في البوسنة والهرسك فقد فاق كل التصورات من قتل وإبادة جماعية، واغتصاب جماعي، بل فاق تصورات أهل الغرب أنفسهم ولذلك أقيمت لقادة الصرب محاكم خاصة بجرائم الحرب.

---

(1) علي عبدالحليم محمود: الغزو الصليبي ط.دار عكاظ بالسعودية 1982م، ص 27

(2) انجيل لوقا 27/14

(3) عبدالفتاح عبدالمقصود، المرجع السابق ص 44

(4) يراجع: البداية والنهاية (00135/12) والكامل (164/8)

وأما ما تفعله أمريكا اليوم بالمسلمين في أفغانستان وبالأخص المعتقلين في جوانتنامو، وما تفعله في العراق من تدمير واستعمال للأسلحة المدمرة، وقتل المسلمين الجرحى داخل المساجد، وما فعله جنودها بسجناء أبو غريب من مشاهد يندى لها الجبين، كل ذلك يعتبر من أشد أنواع الصراع اللاأخلاقي.

أو لا تكفي هذه التصرفات الرعناء، والحروب المدمرة لإثارة الصراع والحقد والكراهية لدى المسلمين، يقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي: «إن حمامات الدم علمت المسلمين أن يكرهوا الغرب، كما لم يكرهوه من قبل... باختصار نجد أن الحضارة الإسلامية التي دمرها الصليبيون في بيت المقدس كانت أرقى واحتج للسلم من غزاتها» ثم يمضي مبيناً سماحة الإسلام والمسلمين من خلال ما حكاه أحد الصليبين الذين سجلوا مشاعرهم الإيجابية نحو المسلمين فيما بعد قائلاً: «إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وبناتهم وإخوانهم وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على أراضيهم، والذين سقناهم عرايا من بيوتهم... أعطونا ـ بعد ما انهزمنا ـ من طعامهم وأبقوا على حياتنا عندما كنا نتضور جوعاً، وغمرونا بعطفهم ونحن تحت رحمتهم»[1].

الدعم المستمر لكل من يتمرد على الإسلام:

يرى المسلمون كذلك أن أي شخص يتمرد على الإسلام فقد وجد له الغرب سنداً ومعيناً وداعماً بالمال والدفاع، وهذا ما نشاهده على مستوى الأحزاب والحكومات والأفراد والمفكرين، وقد رأينا كيف احتفل الغرب بسلمان رشدي، وكيف أكرموه وأجزلوا له العطاء، ومنحوه الجوائز والأوسمة، وهكذا فعلوا مع غيره، بل هذا ليس تكتيكاً، وإنما استراتيجية ذكرها تقرير معهد راند للعام 2003 المسمى (الإسلام الديمقراطي المدني).

الحملات التنصيرية:

لم يكف الغرب ـ أوربا وأمريكا ـ عن المحاولات الجادة لتنصير العالم الإسلامي بكل الوسائل المتاحة مستغلين الثالوث اللعين (الجهل، والمرض، والفقر) لشراء الذمم وتحويل المسلمين إلى نصارى مع أن أمامهم مئات الملايين من الوثنيين كان بإمكانهم توجيه حملاتهم نحوهم، فقد بذل الغرب كل ما في وسعهم لتنصير المسلمين بدءاً من الحملات الصليبية، إلى البعثات التنصيرية التي نشروها في العالم الإسلامي وصرفوا

---

(1) كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة عبدالوهاب المسيري، وآخر، ضمن سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1405هـ / 1981م

عليها مليارات من الدولارات، وعقدوا لذلك مئات المؤتمرات، والتي كان منها مؤتمر التنصير لزويمر في الخليج والقاهرة، ومؤتمر تنصير المسلمين في ولاية كوارادو الذي يرفع شعار: « ادفع ديناراً لتنصير مسلم[1] ».

الاستشراق:

عرفت الموسوعة الميسرة للأديان المعاصرة الاستشراق بأنه: «ذلك التيار الفكري الذي تمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته، وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته »[2].

وقد نشأت فكرة الاستشراق منذ وقت مبكر، ولكن معظمه أخذ طابع الكنائس في فينا عام 1312م عندما قررت إنشاء كراس للدراسات العربية والإسلامية ونحوها في جماعات باريس، وبولونيا وغيرهما رغبة منه في الافادة من الحضارة الإسلامية، ومن منع تأثيرها على النصارى، لكن توجيه الكنيسة لتعلم اللغة العربية هو لترجمة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية إلى اللغات الأوروبية بصورة مشوهة لتصبح سداً منيعاً لنشر الإسلام، وهذا ما فعله معظم المستشرقين الأوائل حتى قبل القرار المذكور، فقد قام بيتر ميجل بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الاسبانية عام 1143م ترجمة مشوهة عدوانية، حتى جعلها جزءاً دعائياً للحروب الصليبية[3] حيث دعا أوروبا لحرب هذا الدين المتوحش، وبالاضافة إلى هذه النزعة الصليبية للاستشراق كان لدى معظم المستشرقين جهل كبير بدقائق اللغة العربية، والعلوم الأساسية التي تعتبر أدوات لفهم الشريعة، وعدم الموضوعية، والافتراء والاستعلاء.

لقد كان للاستشراق دور كبير وخطير في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما[4] وليس كلامنا هذا يقصد به التعميم، حيث كان هناك بعض مستشرقين يتحلون بنوع من الانصاف والموضوعية.

---

(1) يراجع: بحوث ومداخلات هذا المؤتمر في الكتاب المخصص لهذا المؤتمر باسم: مؤتمر كوارادو، ويراجع: د.عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم حيال وذمي ط. دار الأصالة الخرطوم 1413هـ

(2) الموسوعة الميسرة، طبع ونشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض مصلطح (الاستشراق)

(3) المرجع السابق

(4) الموسوعة، المرجع السابق

ثانياً: الإنتاج الفكري:

قبل أن أتكلم عن هذا الإنتاج أود أن أبين حقيقة وهي أن المفكرين الغربيين حتى المستشرقين ليسوا سواء، فمنهم من اعتمد على الحقائق العلمية متصفين في أحكامهم بالإنصاف، غير متأثرين بالأجواء العامة لا تحركهم الدوائر الاستخباراتية والتنصيرية، لكن هؤلاء قلة، وأما الجمهور الأكبر منهم فينظرون إلى الإسلام وحضارته نظرة ازدراء وعداء، ويحاولون بشتى الوسائل تشويه حقائقه وتصوراته وواقعه وتاريخه، ويخلقون في داخل النفوس حواجز لصد الناس عن الإسلام، يقول الدكتور محمد عمارة: «هناك الكتابات التي قد تعز على الحصر والتي تتحدث عن المركزية الغربية التي جعلت وتجعل الحضارة الغربية نزاعة إلى احتواء الآخر، وترويضه، ودمجه في نمطها الحضاري ومنظومتها القيمية... وهي النزعة التي اعتمدت طريق الصراع في العلاقة بالآخرين، بل وجعلت من هذا الصراع مع الآخرين، ومن احتوائهم، وإلغاء ذاتيتهم وخصوصيتهم وهويتهم وتميزهم، جعلت من ذلك كله (رسالتها الحضارية النبيلة !) التي تقوم بها لتمدين هؤلاء الآخرين»[1].

وإذا نظرنا إلى البنية التحتية للفلسفة الغربية (في الغالب) لوجدنا أن النزعة الصراعية هي أهم أركانها، وأقوى دعائم نظرياتها، فالنظرية الهيجلية (نسبة إلى هيجل 1770 ـ 1831م) في فلسفة التأريخ تقوم على نسخ العصر الجديد للعصر القديم عبر الصراع مع مكوناته، والمحو لها، والحلول محلها.

وكذلك النظرية الدارونية (نسبة إلى دارون 1809 ـ 1882م) في فلسفة النشوء والارتقاء، حيث قامت على فلسفة صراع الأحياء من أجل البقاء للأقوى، والقضاء على الضعف والأضعف.

وأكثر من ذلك فلسفة الصراع الطبقي بين الطبقات الاجتماعية سواء كانت في شكلها الشيوعي، أو شكلها الليبرالي الرأسمالي[2].

إن معظم فلاسفة الغرب وساسته يظنون أن حضارتهم هي الأقوى والأصلح للبقاء، وأن أهل الحضارات الأخرى يجب أن يخضعوا لهذه الحضارة الغربية وقيمها حتى يعيشوا بسعادة وقوة، وأنهم حينما يقومون بمحو الحضارات الأخرى، وحتى محو أهلها إن

---

(1) د. محمد عمارة: تقديمه لكتاب: حوار الحضارات لعطية فتحي، ط.مكتبة المنار الإسلامية ص 8

(2) المرجع السابق نفسه

تطلب الأمر ـ كما فعلوا في أمريكا بالهنود الحمر ـ فكأنما يقومون بقتل الرحمة للمريض الذي بدل ما يعاني من مرضه المؤلم يكون القتل له أولى في نظرهم، وهكذا.
ولكن للحقيقة والواقع يقال: « إن الغرب لم يوجه سهامه نحو أي حضارة مثل الحضارة الإسلامية التي نال منها الكثير والكثير منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا، وربما يعود سبب ذلك إلى عدة أسباب من أهمها

1. أن الحضارة الإسلامية فيها من عناصر القوة والقوى والتحدي والشمولية والتكامل ما يمكن أن يجعله الغرب أكبر تحدّ له في صراعه المفتعل المصنوع.
2. أن الغرب يحاول من خلال التكتيك المرحلي أن يسخر كل طاقاته أولاً للقضاء على الإسلام وحضارته، ثم لبقية الحضارات، وهذا ما صرح به صراحة صموئيل هانتجتون في كتابه صراع الحضارات أو تصادم الحضارات حيث أشار على صناع القرار الغربي وبالأخص الأمريكي أن يبدأ أولاً بتحطيم الحضارة الإسلامية والصينية، ثم البقية ـ كما سيأتي ـ.

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحروب الباردة لم يلغ الغرب وبالأخص أمريكا مؤسساتهم المخابراتية (التي كانت لها ميزانيات ضخمة ولها جيش من المفكرين الاستشراقيين والصحفيين والكُتاب) وإنما وجه كل هذه القوى والطاقات نحو العدو الجديد المتمثل بالعدو الأخضر (الإسلام) الأصولي أولاً، ثم الإسلام السياسي ثم الإسلام من حيث هو من خلال الحرب الكونية الثالثة ضد ما سمي بالإرهاب».
وهذه القوى الاستخباراتية ليس من مصلحتها أبداً التقليل من شأن هذا العدو الجديد حتى تبقى لها ميزانيتها، ومميزاتها بل تزداد، وتبقى لها الهيمنة على أفكار الساسة والمفكرين والمجتمع، ولذلك قالوا: « إن الإسلام في السابق قد أسقط حضارتين في وقت واحد، وهما الحضارة الرومانية الغربية، والحضارة الساسانية وأنه اليوم مع ضعفه وتفرقه استطاع أن يهزم الاتحاد السوفيتي (احدى القوتين العظميين) إذن لا يستبعد أن يهزم القوة الأخرى، ومن هنا فلا بدّ من تجييش الجيوش وتوجيه جميع القوى الفكرية والإعلامية والاقتصادية نحو إسقاط الإسلام (والتغذي به قبل أن يتعشى بنا).»
فقد اتجه فرسان الصراع الرأسمالي الشيوعي بخيلهم ورجلهم ومعهم القوة والمال والإعلام والمخابرات نحو ساحة الإسلام للصراع والنزال، وحاولوا أن يصوروا الإسلام من خلال أي عمل إرهابي يقوم به شخص ينتمي إلى هذه الأمة ولو بالاسم، فصوروا الإسلام (وليس المسلمين) على أنه متطرف وغير ديمقراطي ومعادٍ للغرب، وانه

مدان بالعنف والإرهاب والتخلف والقسوة والحساسية ضد الإسلام في داخل نفوس الرأي العام وهيأوه لتقبل أي عمل معاد ضد الإسلام[1].
وقد سخر لذلك كل وسائل الإعلام، فعلى سبيل المثال نشرت مجلة TIME الأمريكية في 16 إبريل 1979م على غلافها صورة مؤذن يؤذن للصلاة وتحت الصورة بخط واضح (عودة المجاهد) ثم تناولت المجلة بالتفصيل ظاهرة المدّ الإسلامي لتصل في الأخير إلى أن هذه الصحوة (تمثل روح التعصب والعودة إلى همجية القرون الوسطى).
وقد رصدت المجلة أشياء بسيطة لكنها بنت عليها نتائج كبيرة وغريبة، فقد رصدت في المجتمع المصري أنه عاد إلى التلفظ بكلمات إسلامية مثل إن شاء الله، وبسم الله، والحمد لله عندما يأكل، أو يركب السيارة... وفي الجزائر تجد الصبي يداوم على صلاة الجماعة في المسجد، وفي تونس ترى الطلبة يقومون بطلاء الصورة العارية على الجدران، وفي بقية الأقطار ترى النساء يتحجبن... وهكذا، فهذه الظواهر التي رصدتها المجلة عادية جداً ومن أبسط ما اعتاد عليه المسلمون ولا تدل على روح التعصب والعودة إلى الهمجية كما قالت المجلة.
وقاد المؤرخ اليهودي الأصل برنادو لويس مع تلامذته (ومعظمهم من اليهود) حملة على الإسلام من الجانب العملي، والتنظيري، في حين قاد جوديت ميلر الحملة الصحفية حتى استطاعوا ـ كما يقول الدكتور ادوار سعيد ـ أن يجعلوا الإسلام المرشح الوحيد ليكون « البعبع الذي تتبناه وسائل الإعلام وتربط بينه وبين الإرهاب»[2] وليكون العدو الجديد الذي تبحث عنه أمريكا وأجهزتها العسكرية والمخابراتية، وهذا ما ذكرته صحيفة washntun pust عام 1991م أن هناك دراسة مستمرة تعدها وزارة الدفاع الأمريكية والمخابرات عن الحاجة الملحة إلى العثور على عدو جديد، وأن الإسلام هو المرشح[3] وقد أكد ذلك هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا الأسبق قبل ذلك في ربيع 1990م أمام المؤتمر السنوي لغرف التجارة الدولية حيث قال: « إن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي والإسلامي باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب»ثم قال: «إن العالم يجب أن يستيقظ وينتبه إلى الأخطار التي تهدده من الإسلام»[4].

---

(1) يراجع: عطية فتحي الويشي: حوار الحضارات، ط.مكتبة المنار الإسلامية / الكويت 1422هـ ص 62
(2) انظر: مجلة المجتمع الكويتية ع 1243 عام 1417هـ ص 45
(3) المرجع السابق نفسه
(4) فتحي الويشي: المرجع السابق ص 65

وقد نشرت الصحف البريطانية مثل Sunday telegraf والأمريكية، والفرنسية، والأوربية بصورة عامة مجموعة من المقالات ضد الإسلام في عام 1990، 1991 أي قبل سقوط الاتحاد السوفيتي كانت بمثابة مقدمات وممهدات لاعتبار الإسلام البديل عن الشيوعية في العداء والصراع، كما نشرت صوراً لرجال يلبسون الألبسة العربية ويقفون أمام المساجد في أوربا وهم يحملون البنادق الموجهة ضد الأوربيين، حتى دعت ماري فرانس ستريبوا في 21 اكتوبر 1191 (نائبة الجبهة الوطنية الفرنسية) أنصارها ليصبحوا (صليبي القرن العشرين، وأن يشنوا حملة ضد الإسلام في فرنسا حتى لا تصبح قرى فرنسا مكة الإسلام، ودعتهم إلى كفاح لا رحمة فيه ضد الإسلام).

سؤال مستصنع: لماذا يكرهوننا:

استطاع الإعلام الغربي أن يصوغ مقولة في صياغة سؤال تقريري مؤكد، وهو: «لماذا يكرهنا المسلمون؟ أو لماذا تكرهنا العرب ؟» وقد أصبح محتوى السؤال حقيقة في أذهان الغربيين وهي: « أن جميع المسلمين (والعرب منهم بالذات) يكرهون الغرب ».
جعلوا هذه حقيقة، والأدهى أنهم جعلوا أسباب هذه الكراهية ليست مواقف الغرب الاستعمارية والظالمة والداعمة للظلم والاستبداد في العالم الإسلامي، وإنشاء دولة إسرائيل في قلب العالم العربي... وإنما جعلوا أسبابها أن المسلمين يكرهون حرياتنا: حرية التعبير، وحرية العقيدة، وحرية الانتخاب، وغيرها، حتى إن الرئيس بوش (الابن) قال مثل هذا الكلام، وقال كولن باول وزير خارجيته: «إنهم يكرهون نظام القيم الأمريكي...، وهو النظام الذي يحترم حقوق الإنسان... هم لا يحبون نظامنا السياسي، ولا نظامنا الديمقراطي، يكرهون نجاحنا كمجتمع»، والرئيس بوش ووزيره وإن كانا يخصصان ذلك بالإرهابيين، لكن ـ كما يقول الأستاذ جميل مطر ـ أن لا علاقة بينهم وبين احترام أمريكا للديمقراطية ولكن هذه المقولة هي مقولة الآباء والأجداد في الغرب[1].
وقد استطاع الإعلام الغربي وبالأخص الأمريكي أن يمرر هذه الكذبة على الشعب الأمريكي ومعظم الشعوب الأوربية بأننا نكرههم، ونكره مؤسساتهم السياسية، والعلمية، وديمقراطيتهم، وحرياتهم، وتقدمهم التكنولوجي والعلمي، في حين أن

---

(1) جميل مطر: بحثه المنشور في كتاب صناعة الكراهية الذي نشره مركز دراسات الوحدة العربية 2004 بعنوان الكراهية الأمريكية للغرب، صناعة جديدة ص 268

الواقع هو أن المسلمين لا يكرهون جميع الجوانب الإيجابية في الغرب، وإنما يكرهون ممارسات بعض ساسة الغرب من الظلم، والاحتلال، والازدواجية في المكاييل.
وفي هذا الإطار نذكر دراسة قام بها اثنان من مفكري الغرب وهما إيان بوروما، وإيفشاي مارجليت، حيث بذلا جهوداً كبيرة لإثبات تطابق بين العرب والمسلمين، والنازيين في كراهية الغرب، وتوصلا إلى أن هناك أربعة عناصر تشكل أساس الكراهية لدى هؤلاء، هي: المدنية، والعقل، والبرجوازية، وحقوق المرأة[1].
وهناك كتاب وباحثون يركزون على تأصيل هذه الكراهية ليحولوا الغرب كله ضد الإسلام والمسلمين، منهم بروكس في مقالاته حول هذا الموضوع، وينقل عن ابن لادن كرهه لأمريكا، ثم يعمم قوله على جميع المسلمين، والمعلق التلفزيوني المعروف دان راذر، والتوت كوهلين، ودانيبال بايبس، وبيتربرغن، وهيل، وغيرهم كثيرون[2].

دور الأفلام:

ولقد لعبت الأفلام الغربية أيضاً دوراً مؤثراً في تشويه صورة الإسلام والمسلمين منذ فترة ليست وجيزة مثل فيلم (رقصة المحجبات السبع) الذي يمتلئ لمزاً وغمزاً وتصريحاً وتعريضاً بالإسلام وبرسوله ﷺ، والفيلم من إنتاج هوليود، وكذلك فيلم (الشيخ) عام 1921، و(مقهى في القاهرة) عام 1924، و(عروس الصحراء) عام 1928، و(كازبلانكا) عام 1942، حتى أحصى أحد الباحثين الأفلام الغربية عن الإسلام والمسلمين خلال فترة العشرينات من القرن الماضي فبلغت 87 فيلماً[3].
وكانت هذه الأفلام في معظمها أفلاماً ميلودرامية مدهشة تدور حول مغامرات في الصحراء ترتبط بالجنس والعنف، وتظهر العرب والمسلمين في أطر الهمجية والغوغاء والتوحش، وأنهم أهل الرقص واختطاف النساء، وشن الغارات للنهب والسرقة، وأنهم قطاع الطرق.
ويأتي فيلم آخر وهو فيلم (العنقاء) عام 1962 ليصور العربي المسلم بأنه فاقد الضمير حيث هبطت طائرة في الصحراء الليبية فطلب القائد ومساعده المساعدة من قافلة عربية، وكان الرد أن جاؤوا فقطعوا عنقهما دون سبب أو تبرير.

---

(1) المصدر السابق ص 217 ـ 276

(2) المصدر السابق نفسه

(3) فتحي الويشي: المرجع السابق حيث أسند ذلك إلى أحد الباحثين، فليراجع لمزيد من التفصيل

وفي فـيلم (الخـروج) عـام 1966 يـصور العربـي كيـف يقتـل بوحـشية وبـرودة دم فتـاة إسرائيلية عمرها خمسة عشر عاماً، وفي فيلم (كاست أليجانت شادو) عام 1966 يصور أن العرب يضحكون ويهللون بعد ما قتلوا فتاة إسرائيلية لم تفلح في الخروج من السيارة. وفي عام 1973 بعد استخدام العـرب لـسلاح الـبترول قامـت (جين فونـدا) الـتي رفـضت حربٍ فيتنام ولكنها قامت ببطولة فيلم (رول أوفر) الذي صور العـرب بـأنهم متعـصبون دينياً، ومعادون للمرأة والحضارة، وأنهم يريدون تحطيم الحضارة الغربية.

وفي فـيلم (ذي ونـد أنـد ذاليـون) أي الـريح والأسـد، عـام 1975 يـصور العـرب بـأنهم اختطفوا امرأة ويطالبون رئيس أمريكا بفدية هائلة، وفي فيلم (نتورك) عام 1977 يـصور أن العرب يستولون على أمريكا وهم متعصبون من القرون الوسطى، وأمـا فـيلم الأحـد الأسود (بلاك صنداي) عام 1977 فيمثل قصة تدور حول إرهابيين مـن العـرب يتـآمرون لقتل المتفرجين لإحدى المباريات الكبرى لكرة القدم، بينـهم الـرئيس الأمريكـي، ولكـن ضابطاً إسرائيلياً هو الذي أحبط هذه المؤامرة، وأنقذ كل هؤلاء !!!

وفي فيلم (رونج إز رايت) أي: الخطأ هو الصحيح، عام 1982، تدور قصته حول ملك عربـي يـستعد لتـسليم قنبلـتين نـوويتين صـغيرتين لقـادة ثـوريين لتفجيرهمـا في إسـرائيل ونيويورك إلاّ إذا استقال الـرئيس الأمريكـي، وفي فـيلم (سـاهارا) أي: الـصحراء، عـام 1982 يصور فتاة اغتصبها شيخ من شيوخ العرب ثم سحرها.

وفي فيلم (إيرن إيجـل): النـسر الحديـدي بجزئيه مـن إنتـاج هوليـود 1985، 1988 يـصور بداية تحول لجعل العدو الأول للغرب هو الإسلام بدلاً من الشيوعية، ثم تابعت هوليود مجموعة من الأفلام لتصوير العدو العربي الإسلامي الخـارق الـذي يمتلـك أسـلحة نوويـة ذات خواص تدميرية شاملة، مثل أفلام (ذا دلتا فورس) و(المنتقم) عـام 1986 و(المـوت قبل العار) عام 1987 و(سرقة السماء) عام 1988 و(أنا في سيلز) عام 1990م [1].

وقد زاد اهتمـام هوليـود بتـصوير المسلمين بـصورة عامـة والعـرب بـصورة خاصـة بـأنهم مجموعات من المتطرفين الأشرار وأنهم مستعدون لتدمير كـل شـيء... بعـد حـادث تفجـير مركز التجارة العالمي 1992.

ولم يقتصر أداء هذا الدور على الصحافة والأفلام بل شاركت فيه الـشبكات التلفزيونيـة في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ففـي فـيلم (الطريـق إلى الجنـة) الـذي يحكـي قـضية تفجـير المركـز التجـاري العـالمي 1996، يقـول بطـل الفـيلم في صـورة ضـابط مخـابرات

---

(1) المرجع السابق

أمريكية : ها هو ذا الشيخ وأعوانه قادمون يعتقدون أننا شياطين ، وأن الطريق إلى الجنة يمرّ من خلال تدميرنا ، ثم يوجه الضابط سيلاً من الشتائم القذرة إلى المسلمين ، ثم ينتهي الفيلم بصورة الشيخ وهو يتلو القرآن ، وهو يقول : «انتظروا الانفجارات القادمة ».
أما فيلم (الجهاد في أمريكا) فقد نال من رموز إسلامية تأريخية ومعاصرة بإساءات بالغة ، ويجسد العرب والمسلمين بأنهم مصدر كل خطر يحيق بالعالم ، كما تسبب عرض فيلم (قرار تنفيذي) الذي صور العرب بأنهم قتلة ومفجرو قنابل في إثارة بعض الأمريكيين لاقتحام مسجد والتقتيل لكل من فيه من المصلين أثناء عرض الفيلم نفسه.
وقد صرفت هوليود مبالغ طائلة جداً على فيلمها (الحصار) وحشدت له أكبر حملة دعائية ، وإعلانات ، حيث يحاول الفيلم إيصال رسائل بالغة في التوضيح إلى الأمريكيين بصورة خاصة وإلى عامة الغربيين بصورة عامة مفادها ان العرب والمسلمين إرهابيون بالفطرة والنشأة والثقافة ، والدين ، وأن المجتمع المتحضر الذي استقبل ملايين منهم قادر على ردعهم بفضل شجاعة الأمريكيين الأصليين ، فالفيلم يحرض بوضوح على الصراع والمواجهة[1].
وفي فيلم (الإسلام والسيف) الذي ظل يعرض في أوربا أكثر من خمس سنوات ، صور الإسلام فيه باعتباره يدعو إلى العنف والقسوة ، وأنه ضد الحضارة والتقدم ، والتمدن ، كما أن الفيلم قد أتى بمشاهد للجماعات المتشددة ، وبمشاهد لختان الإناث بصورة مقززة ، ومشاهد من البيوت والمناطق المتخلفة وغير النظيفة في العالم الإسلامي ، وربطها بالإسلام. وقد ذكرت جريدة الحياة أن مؤسسة (والت ديزني) قد أنتجت فيلم (عملية الكوندور) الذي يصور العرب بأنهم أشرار مرتزقة ، وتجار الرقيق الأبيض ، كما أن من بينهم اثنين من المسلمين العرب يصوران بشكل ساخر مضحك يطلق عليهما (جنود الإيمان) وهما يتحدثان اللغة الانجليزية الركيكة ، ويلبسان ألبسة مزرية مضحكة ويصوران بمنتهى البلاهة ، ويلقبان بـ (مصاصي الدماء) ثم يقولان : « لن نكف أبداً عن النضال من أجل الجهاد»[2].

دراسة الإسلام:

وقد نشرت جريدة الأهرام المصرية تحقيقاً جيداً حول كيفية دراسة الإسلام في المدارس والجامعات الغربية ، والمناهج الدراسية المتعلقة بالدين الإسلامي حيث كشفت أن

(1) المرجع السابق ص 73
(2) جريدة الحياة في 7 سبتمبر 1997

الإسلام يدرس بصورة مشوهة، ومبتورة، وأن الإسلام لا يقدم ـ في الغالب ـ باعتباره ديانة سماوية كبرى، بل يتم تقديمه من خلال التأريخ، وبأسلوب تحقيري لحضارة المسلمين، ثم ذكرت أن معلمة في ألمانيا وزعت ورقة فيها عدد من أسماء الله الحسنى وعدد من الأسماء والصفات المخالفة لها على تلاميذ إحدى المدارس على أن يوزعوا هذه الأسماء والصفات الحسنة على الدين المسيحي، والدين الإسلامي، فقام الطلبة بإسناد الأسماء والصفات الحسنة إلى الدين المسيحي، وإسناد الأسماء المخالفة التي فيه الشدة والبطش للدين الإسلامي، وهكذا[1].

دورنا نحن المسلمين في تشويه سمعتنا:

لا شك أن هذه الأفكار والأفلام الغربية على الرغم من عدم مصداقيتها، وتحاملها الواضح، وهجومها العنيف على الإسلام لم تكن السبب الوحيد في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ولكن مع كل ذلك فإن تصرفات بعض الجماعات الإسلامية، والأفراد وبالأخص في بلاد الغرب قد ساعدت هؤلاء المعترضين الحاقدين على تسويقٍ بضاعتهم، فقد رأينا وسمعنا في بلاد الغرب أن من بين الجاليةِ المسلمة من يفتي جهلاً بحل أموال غير المسلمين في بلاد الغرب، وأنهم يخططون فعلاً لتدمير الغرب على الرغم من أن معظم هؤلاء كانوا يعيشون في بلاد الغرب التي أصبحت خيمة لهم حمتهم من ظلم دولهم...

وكذلك ساعدت شدة وغلظة بعض الجماعات في الجزائر مع المسلمين وغيرهم عن طريق الذبح للنساء والأطفال ووجود فتاوى تبرر ذلك على إلصاق هذه التهم الشنيعة بجميع المسلمين وأن ما حدث كذلك في العراق من بعض المخترقين من البعثيين والمخابرات الخارجية من قتل وذبح للمختطفين الذي لم تثبت إدانتهم التي تستوجب القتل في الشريعة سوف يكون له أثر أكبر، وسنرى في المستقبل القريب الأفلام التي تلحق هذه الأعمال بالإسلام والمسلمين وتصورها من خلال سيناريوهات مؤثرة، ودراما تقنع الغرب بالصورة المشوهة للإسلام والمسلمين.

وبالمقابل لم يكن للدول الإسلامية دور كبير في السابق للتصدي على هذه الافتراءات بالوسائل العلمية أو الإعلامية المهنيّة المؤثرة، كما أن عالمنا الإسلامي لم يقدم من الدراسات العلمية الجادة والموسوعات الحضارية العميقة باللغات العالمية الحية، ونشرها

---

(1) جريدة الأهرام المصرية 12 يوليو 1996

على المستوى المطلوب، فجهوده في مجال تقديم الإسلام بصورته الصحيحة وعلى مستوى علمي وعالمي ضعيفة لا تقارن بكل هذه الجهود الضخمة الجبارة على كافة المستويات الدراسية والمنهجية والفكرية والإعلامية التي يقدمها أعداء الإسلام والمسلمين، فنحن جميعاً بلا شك مقصرون، فالعالم الغربي اليوم لا يعرف عن الإسلام إلاّ ما قدمه له أعداء الإسلام، تدل على ذلك الدراسات العلمية والإحصائيات التي تدل على مدى جهالة الغربيين، بل غير المسلمين بالإسلام ناهيك عن الإسلام الحقيقي.

نماذج من أصحاب الفكر الصراعي من الغربيين:

هناك نماذج كثيرة من المفكرين الغربيين الذين تبنوا صراع الحضارات، ونحن هنا نذكر بإيجاز ثلاثة نماذج. نذكر نموذجاً مؤسسياً من خلال ما ذكره معهد راند في تقريره الأخير، كما نذكر موقف اثنين من كبار المفكرين الأمريكيين اللذين لهم دور في إعداد وصناعة القرارات السياسية.

أولاً: تقرير مؤسسة راند لعام 2003/2004م:

يكون منهجنا في عرض موجز لهذا التقرير أننا نذكر أهم البنود المتعلقة بموضوع الصراع من النص المترجم مع التعليق عليه بإيجاز:

أولاً: يبدأ التقرير بمقدمة يقرر فيها: «أن العالم الإسلامي يدخل الآن في حالة من الصراع الداخلي... إذن ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه باقي دول العالم المهددة والمتأثرة بهذا الصراع...».

فقد قرر التقرير في بدايته أمرين أساسين هما:

1ـ أن العالم الإسلامي يدخل الآن في حالة من الصراع الداخلي لتقرير طبيعته وقيمه الخاصة.

ويلاحظ على ذلك ما يأتي:

أ ـ إذا كان المراد بالصراع الداخلي الاختلافات الفكرية والسياسية، والاجتماعية، فإن ذلك لم ينشأ الآن في هذا القرن أو حتى الذي قبله، وإنما نشأ بعضها بسبب طبيعة الاختلافات الاجتهادية المقبولة، وبعضها بسبب محاولات الغير، (وبالأخص الأفكار الليبرالية والشيوعية والاشتراكية والإلحادية والتحللية) حيث بذلت جهود مكثفة من المستشرقين، والمفكرين المعادين للفكر الإسلامي مدعومة بالسياسات الغربية

(والشيوعية في السابق) للقضاء على الإسلام بكل الوسائل المتاحة وتجسد ذلك من خلال هجمات الاحتلال الغربي والغزو الشيوعي للعام الإسلامي.

فالمحتل الغربي أينما يقع في آسيا، وأفريقيا أو غيرهما يفرض على الشعوب المحتلة قوانينها، وأنظمتها، وقيمها وعادتها وتقاليدها، وهكذا فعل الغزو الشيوعي للعالم الإسلامي سواء أكان غزواً فكرياً كما حدث لكثير من الدول الإسلامية أم غزواً عملياً كما حدث للبلاد المحتلة من قبل الغرب أو الاتحاد السوفيتي السابق.

ونتيجة لعوامل كثيرة (ليس هنا مجال بحثها) تأثر الكثيرون بالأفكار المستوردة، فحصل الصراع بينها وبين الأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية.

إذن هذا الصراع الداخلي - إن صح - فهو من نتيجة الغزو العملي والفكري لعالمنا الإسلامي، كما أنه صراع داخلي من المفروض أن يترك العالم الإسلامي ليقرر مصيره الفكري والقيمي بنفسه دون تدخل من الآخرين.

ثم إن هذا الصراع ليس على الجديد النافع والحداثة المفيدة، وإنما الصراع بين الحفاظ على الثوابت ومحاولة طمسها، لأن الإسلام يحض المسلمين على أخذ كل قديم صالح، وكل جديد نافع.

ب - إثارة العالم الآخر (غير الإسلام) نحو هذا الصراع باعتباره مهدداً، ما الذي يجب أن يفعله ؟ ولذلك يقول التقرير في الصفحة (8): « كما أن لهذا الصراع تكاليفه الخطيرة، ومضامينه الاقتصادية، والسياسية والأمنية على الأجزاء الأخرى من العالم».

ج - أن التقرير من أوله إلى آخره يسند إلى الإسلام نفسه الصراع، وعدم القدرة على النمو، وعدم الاتصال مع الاتجاه السائد في العالم (الصفحة 8)، وكذلك يصفه في الصفحة (10) بالإسلام المتشدد، أو الإسلام التقليدي (الأرثوذكسي) وهكذا.

وهذا غلط كبير، وخلط غريب، لأن هذه الأوصاف إن وجدت فهي للمسلمين، وليست للإسلام نفسه، فالإسلام واحد يتمثل في الكتاب والسنة، أما الاجتهادات فهي تنسب للمسلمين، وأما السلوكيات مثل التشدد والتقليدي فهي بلا شك للإنسان فقط، وليس للإسلام نفسه.

2ـ أن التقرير لا يعطي للإسلام حقه من عنايته القصوى بالعلم، وبنائه لحضارة عظيمة، وقيادته لها لعدة قرون، كما يقول المفكر الأمريكي بول كينيدي: «إن الإسلام ولقرون قبل النهضة الأوربية، قاد العالم في الرياضيات، وعلوم رسم الخرائط، والطب، والعديد من وجوه العلم والصناعة، كما ضم هذا العالم مكتبات وجامعات، ومراكز،

في وقت لم تكن اليابان وأمريكا تمتلك شيئاً من هذا، ولم تكن أوربا تمتلك إلاّ القليل...»[1].

ثانياً: إن التقرير يقسم المسلمين إلى ثلاثة تنظيمات[2] رئيسية:

1. المتشددون الذين يريدون مجتمعاً محافظاً ويشككون في الحداثة والابتكار والتغيير.

2. الحداثيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يكون جزءاً من التقدم الذي يسود العالم، كما يريدون أن يقوموا بتحديث الإسلام، وإدخال الإصلاحات فيه حتى يكون مواكباً للعصر.

4. العلمانيون الذين يريدون من العالم الإسلامي أن يتقبل فكرة فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الديمقراطية الغربية.

ثم يتطرق التقرير إلى هذه التنظيمات، وضرورة نظرة الغرب (وأمريكا) إليها بالتفصيل، ينتهي إلى أنه ليس من الصواب الوقوف مع المتشددين ويضيف الفكر الوهابي في السعودية، وإيران ضمن هؤلاء المتشددين لأنهم معادون للغرب عموماً، وأمريكا بشكل خاص، وأن التقليديين ليس بينهم من يقبل بإخلاص الديمقراطية الحديثة، وأن السلام معهم غير مستقر، وأن الحداثيين والعلمانيين هم أقرب هذه الفئات للغرب، ولذلك يجب دعمهم، ثم يضع التقرير خطة لكيفية دعمهم من خلال تشجيعهم، وطبع كتبهم، ودعمهم بالمال والإعلام، وطرح وجهات نظرهم في المناهج الدراسية، ونشر أفكارهم بكل الوسائل، وإعطائهم برنامجاً سياسياً يعملون من خلاله، ومساعدتهم في بناء منظمات مستقلة للمجتمع المدني (ص 10، 11).

كما يتبنى التقرير (تشجيع وجهة النظر القائلة بأن فصل الدين عن الدولة ممكن أيضاً في الإسلام).

ويفهم من التقرير بصورة واضحة أن على الغرب أن لا يرضى إلاّ بإسلام خاص يسمى بالإسلام الديمقراطي المدني، وهذا هو عنوان التقرير نفسه يكون مثل (المسيحي الديمقراطي) كما نجد كثيراً من الأحزاب الغربية تسمى: (الحزب الديمقراطي المسيحي، أو المسيحي الديمقراطي، ولا تمت إلى المسيحية إلاّ بالاسم وبعض العاطفة، فالتقرير لا

---

(1) يراجع: كتابه بعنوان (الإعداد للقرن الواحد والعشرين) المذكور في د. أحمد القديدي، كتاب الأمة: الإسلام وصراع الحضارات ص 60 ـ 61

(2) في البداية ذكر التقرير أن التنظيمات الإسلامية ثلاثة، ثم ذكر أربعة، ويبدو أنه لم يعتبر العلمانيين من تنظيمات المسلمين، وهذا صحيح من حيث المبدأ

يريد تعاون الغرب حتى مع المسلمين التقليديين بمجموعتيهم (المحافظون، والإصلاحيون) على حدّ تعبيره (ص 22).
وكلامنا هنا هو أن التقرير يثير صراعاً آخر أخطر على الإسلام والمسلمين على مرّ التأريخ، وهو الصراع على الدين نفسه، فكان التقرير يقول للغرب: لا فائدة من التعايش مع هذا الدين، لأنه ينتج لكم ما يدمر حضارتكم، ولذلك فإذا أردتم أن تتعايشوا مع الدول الإسلامية فعليكم جعل الدين الإسلامي مثل الدين المسيحي، وهذا ما دعا إليه بعض المفكرين الغربيين، فقد نشر صموئيل هاتنتجتون مقالة في جريدة واشنطون بوست قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ذكر فيها أن جميع الأديان عُلْمِنَتْ (أي طبعت بالصبغة العلمانية) إلاّ الإسلام الذي بقي وحيداً في الساحة محافظاً على نصوصه كما هي، لذلك علينا جميعاً أن نتكاتف لعلمنة هذا الدين.
تشكيك في القرآن:
وقد تضمن التقرير حثاً شديداً وتشجيعاً كبيراً للتغيير حتى للنصوص القرآنية حيث يقول في الصفحة (42): « يجب علينا أن نجتهد لإيجاد تفسير أفضل لهذا الموضوع (أي ضرب الزوجات) نسبة لعدم قدرة الإسلاميين التقليديين، وحتى التقليديين الإصلاحيين على ذلك، وحثهم على مواجهة تحديات الحداثة بدلاً من التمسك بالنصوص...».
ولم يكتف التقرير بالحث على تجاوز النصوص الإسلامية، بل عاد ليشكك في نصوص القرآن الكريم نفسه، وأنه أصابه التزوير والنقص، حيث إن هناك سورتين فقدتا على الأقل في عملية الجمع حيث يقول في الصفحة (43): « القرآن لم يسجّل حتى بعد وفاة النبي، وقد جمع القرآن بعد وفاته، وذلك عن طريق تجميع قصاصات مختلفة من قطع الجلد المدبوغ، والعظام، التي كانت يكتب عليها الوحي، وعن طريق إحضار بعض الذين حفظوا بعض السور والطلب منهم إملاء النصوص على قدر ما يتذكرون، وقد أدى هذا العمل إلى ظهور العديد من الروايات للقرآن، والتي اختلفت عن بعضها البعض، ولتلافي عدم الإنسجام الذي قد يسببه تعدد هذه الروايات، فقد تم إلغاء كل الروايات ما عدا واحدة (انظر برويز 2002) ومن المعروف على نطاق واسع بان هناك سورتين على الأقل فقدتا في عملية الجمع، تلك يشير الحداثيون إلى أنه ربما تم تزوير بعض الآيات أو كتابتها بشكل غير صحيح، أما بالنسبة للتقليديين الذين يبجلون أي حرف من القرآن ويعتبرونه معصوماً حتى الورق الذي كتب عليه، يرون أن فكرة التحريف هذه فكرة ملعونة».
وهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر: 9)

كما أن ذلك من أخطر ما يثير المسلمين، حيث إن القرآن الكريم في اعتقاد جميع المسلمين سنة وشيعة وغيرهم، وحتى المنصفين من غيرهم أنه الوثيقة الوحيدة المحفوظة[1].

ثم يوضح التقرير أنه لا بد من البحث عن شركاء لدعم الإسلام الديمقراطي من خلال التحالف مع العلمانيين الذين هم أفضل حلفائنا في العالم الإسلامي (ص44) وأن الإسلاميين جميعاً حتى التقليديين (كأصحاب المذاهب، والصوفية) لا يصلحون أن يكونوا عملاء لتحقيق الإسلام الديمقراطي (ص45).

ويشجع التقرير قادة الغرب على علمنة الإسلام كما فعله مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، وأن لا يستصعبوا ذلك، ونسى التقرير أن مصطفى كمال أتاتورك قد فشل فشلاً ذريعاً على مستوى الشعب على الرغم من حراسة العسكر طوال سبعين سنة، ومن جانب آخر فلم يستطع هو ولا غيره التأثير في الإسلام المتمثل في القرآن والسنة، بل أثر بالقوة والتهديد والحديد والنار في المسلمين، كما أن أحد أسباب الكراهية للغرب أنه يدعم هذه الأنظمة الدكتاتورية المستبدة ما دامت تحقق مصالحه.

وأعتقد أن هذا الدواء الذي يقدمه للغرب بعض مفكريه ومعاهده الاستراتيجية هو عين الداء، وهو بمثابة مزيد من البنزين والزيت على نار الصراع المشتعلة، لأنه يؤدي إلى أن لا يثق المسلمون بأي حلّ من الغرب ـ حتى ولو كان صحيحاً ـ فيفقد الثقة تماماً لأنهم يعلمون أن الغرب لا يعجبه أي نوع من الإسلام الصحيحح، وإنما يريد ـ مع سبق الإصرار والتصدي ـ تغيير دينهم.

وكلما فكرت في الطروحات التي يطرحها أصحاب القرار السياسي الغربي، وبالأخص الأمريكي وأصحاب الفكر الذين يهيئون السياسات لأصحاب القرار السياسي، والمعاهد الاستراتيجية القريبة من مطبخ تصنيع القرار... وصلت إلى أن الغرب لا يريد حلّ مشكلة الإرهاب والتطرف في عالمنا الإسلامي، لأنه يعطيه التبرير لفعل كل شيء، ويعطيه التبرير (غير المشروع) لاحتلال أفغانستان، والعراق، وأي مكان آخر يريده، يعطيه التبرير للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية ومواقع البترول في العالم، والممرات الاستراتيجية.

وذلك لأن حلّ الإرهاب والتطرف لا يكون بإرهاب دولي أو تطرف فكري دولي، وإنما يعالج من خلال الفكر الرصين المتمثل بالفكر الوسطي الإصلاحي التجديدي الذي تتبناه

---

(1) وقد أثبت ذلك الدكتور موريس بوكاي في كتابه: التوارة والانجيل القرآن والعلم، حيث أثبت بالأدلة العلمية القاطعة أن القرآن محفوظ عن كل تحريف.

معظم الشعوب المسلمة وتياراتها الوسطية (والغريب أن التقرير لم يذكر هذا التيار) وكذلك يعالج من خلال القضاء على أسباب هذا التطرف والإرهاب التي من أهمها إرهاب إسرائيل للشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة وما تقوم به من قتل وتشريد، وتدمير لم يشهد له التأريخ مثيلا في الإجرام، ومع ذلك تقف معها أمريكا بكل قوتها المادية والمالية والعسكرية، وبالفيتو في الأمم المتحدة، وكذلك تصرفاتها مع العالم الإسلامي والحركات الإسلامية.

وكذلك ما فعلته بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وهولندا، واسبانيا وغيرها من الدول التي احتلت البلاد الإسلامية في الماضي، ولا تزال تحتل بعضها، وما فعلته مع شعوبها... كل ذلك ترك آثاراً كبيرة من الكراهية والحقد والبغض، وهذا أمر ليس خاصاً بالمسلمين، بل هو عام لكل إنسان حيث يبغض المحتل مهما كان، مثل ما قاله الشيخ الشهيد أحمد ياسين: « لو أن أخي احتل أرضي واغتصب داري أقاتله»وكما حدث بالنسبة لأهل الكويت حينما احتل صدام حسين كيف كرهوا النظام وأتباعه، وكذلك داخل العراق نفسه كيف كره الكورد والشيعة النظام العراقي البعثي ورموزه وأتباعه كرهاً شديداً، بل إن الله تعالى عذر المظلوم بما لم يعذر غيره، قال تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ (النساء: 148).

لذلك على الغرب أن يستوعب أن المسلمين مظلومون منه، ولذلك يكرهونه، فعليه إن أراد الإصلاح أن يقضي على مصدر الكراهية وأسبابها، وتحقيق العدالة بين الجميع، والتعامل بمعيار واحد، وليس بمعايير مزدوجة ـ كما يرى ويسمع ويشاهد على مرأى الجميع ـ فالظلم حتى ولو كان من الأب لأولاده يورث الكراهية والحقد والتفكير في الثأر. وأكبر دليل على ذلك هو ما ذكره التقرير نفسه (ص66) من أن (الإسلام الأوربي في أوربا الشرقية قد تطور، وأن المسلمين في البلقان تطوروا وأصبحوا شكلاً من التدين الإسلامي المندمج في المجتمع الذي من حوله "سكوارنز 2002"، إن أوربا الشرقية تقدم نموذجاً مثيراً للصداقة والتعاون بين الإسلام والغرب).

لماذا هذا التغير في أحوال المسلمين في أوربا الشرقية ؟

لا شك أن له عدة أسباب من أهمها:

1ـ أن المسلمين هناك لا يحسون بأي نوع من الاستعمار الغربي عليهم.

2ـ أن الغرب (وبالأخص أمريكا) ساعدهم ولو كان متأخراً فأدى ذلك إلى حبهم للغرب، وهذا ما أكده التقرير نفسه: «وذلك مثل تدخل الغرب "وإن كان متأخراً" لحماية البوسنيين والألبان المسلمين المضطهدين، كما أن المجتمع المدني الأوربي غير

المسلم قد أبدى قدراً كبيراً من التضامن وروح المبادرة، إن منظمة "كاريتاس" الكاثوليكية جمعت مليون دولار في يوم واحد من خلال حث الأسواق التجارية في هولندا لإضافة تبرعات على أسعارها.

ومن الطريف أن الحملة كانت تنادي بمساعدة البوسنيين المحاصرين لأنهم "جيران" لم يكن هناك ذكر للدين، إن هذا الفصل من التأريخ الحديث يستحق التنويه، حيث إن مئات الآلاف من اللاجئين البوسنيين قد تم احتضانهم بدفء في المجتمعات الأوربية الغربية والأسر أثناء ذلك النزاع.

كما أن محاكم جرائم الحرب الدولية تطبق المبادئ العلمانية لحقوق الإنسان في جهودها لمعاقبة الذين مارسوا التطهير العرقي ضد المسلمين في البلقان، يتمتعون بمستوى أعلى من التنمية أكثر مما يتمتع به المسلمون حول العالم، وهذا دليل على أن الصداقة مع الغرب ممكنة، وأن تقبل القيم الديمقراطية يقود إلى نتائج مرغوبة، وحياة أفضل» ص66ـ67.

وكذلك تبنى المسلمون الذين تجنسوا في أوروبا وأمريكا شعار المواطنة، والولاء للبلد الذي يعيشون فيه في حدود ما لا يتعارض مع ثوابت الشريعة الغراء.

تشكيك كبير في السنة النبوية:

وقد نال الحديث النبوي الشريف قسطاً كبيراً من الهجوم، شمل عدة جوانب، منها:

1ـ يشير التقرير إلى وضع الأحاديث من قبل أصحاب الآراء والسياسيين قائلاً في الصفحة (77): «منذ بداية الإسلام تقريباً قام أنصار وجهات النظر المعارضة بوضع آرائهم وتأويلاتهم في شكل أحاديث، هذا النوع من النزاع الفكري نشير إليه باسم " حروب الحديث ".

وهذا التعميم متعارض ليس مع واقع الحديث وجهود علمائه فحسب، بل متعارض مع المنهج العلمي الذي كان من المفروض أن يتبعه معهد راند في تقريره، ولعدم اتباع هذا المنهج العلمي اعترف التقرير بأن الذين يخوضون هذه الحرب قد خسروها، وان كان التقرير قد أسند سبب هذه الخسارة إلى الأمية الشائعة بين المسلمين، ولكن الحقيقة أن سببها يعود إلى هذا الحكم العام الجائر المسبق على الحديث النبوي الشريف الذي يعتبر المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، بل هو المبين للقرآن الكريم.

وقد يكون السبب في هذا الحكم العام هو جهل معدّي التقرير بجهود علماء الحديث منذ القرن الأول إلى يومنا هذا في خدمة الحديث والذبّ عنه، وبيان الأحاديث الصحيحة

والمقبولة ورفض الأحاديث الموضوعة والواهية، لذلك اعترف التقرير بأن (دراسة الحديث تعتبر دراسة علمية وهي بالتأكيد معقدة جداً) » ص77.
2ـ يقول التقرير بأنه: «من الناحية العملية فإن المعايير الصارمة تبدو ليست ذات معنى، وتتغلب عليها أنظمة الحكم» ص 78.
3ـ التشكيك في أصح كتب الحديث (صحيح البخاري) يذكر التقرير أن المسلمين يقولون: إن البخاري الذي هو أكثر صدقاً وثقة قام بجمع ستمائة ألف حديث، وقام باختيارها حتى اختار منها سبعة آلاف وستمائة حديث فقط، ثم يقول التقرير معقباً على هذا العمل: « فلو خصصنا ساعة واحدة فقط لمعالجة كل حديث لاحتاج البخاري إلى سبعين سنة من العمل المتواصل... مع أنه يقال: « انه أكمل هذا العمل في ستة عشر عاماً، هل كان ممكناً من الناحية الطبيعية أن يقوم البخاري باختيار كل ذلك العدد من الأحاديث ؟ الإجابة: لا» ص81.
وينسى التقرير أن هذه المعادلة تعود إلى الجهل بحقيقة عمل البخاري، والمراد بالعدد المذكور من الأحاديث، فهذا العدد يشمل الروايات والطرق، فقد يكون لحديث واحد عشرون طريقة ورواية مع أنه حديث واحد، كما أن البخاري أعطاه الله تعالى ذكاءً خارقاً، وملكة عظيمة، وحفظاً كبيراً، فهو لا يحتاج إلى هذه الساعات لأن الرواة أيضاً معدودون، فهو يعرفهم، ومن هنا فقد يصل إلى الحكم على الحديث من خلال دقائق معدودة، إضافة إلى أن هناك أحاديث معروفة بالضعف والوضع، أو مشهورة بالصحة، فمثل هذه الأحاديث لا تحتاج إلى جهد كبير، ناهيك عن البركة في الوقت بسبب إخلاصهم، وعدم إنشغالهم بأي شيء سوى خدمة الحديث النبوي الشريف.
وقصدي من ذلك أن إعادة ما قاله بعض المستشرقين من التشكيك في ثوابت المسلمين لا يؤدي إلى الحبّ والأمان بل إلى الكراهية والبغض ومزيد من الصراع والتصادم.

ثانيا: فوكوياما FUKUYAMA [1]

فقد نشر فرانسيس فوكوياما مقالته الشهيرة حول نهاية التأريخ في مجلة (ناشيونال انترست) في صيف 1989م ثم جعلها كتاباً نشره في عام 1991، حيث يعتبر أن حركة

(1) أستاذ جامعي متخصص في علم الاجتماع بجامعة جورج ميس الأمريكية، ياباني الأصل أمريكي الجنسية، عمل نائباً لمدير التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية فترة من الزمن، كما عمل بمعهد "راند كويوريشن" للبحوث الاستراتيجية، وقد ذاع صيته بعد مقالته الشهيرة في مجلة "ناشيونال انترست" بعنوان "نهاية التأريخ" في صيف 1991، وترجمه إلى اللغة العربية حسين الشيخ، ونشرته دار العلوم العربية ببيروت 1993، وله كتب أخرى. انظر: عطية الويشي: المرجع السابق ص 43.

التأريخ تتشكل في إطار فلسفة الصراع بين الشيء ونقيضه، فإذا انتصر أحدهما على الآخر، فإن هذه الحركة تنتهي، ومن هنا فإن الهزيمة التي لحقت بالمعسكر الشيوعي بانتصار الديمقراطية والرأسمالية الغربية انتصاراً عالمياً حاسماً فإن دواعي الصراع قد اختفت، ويترتب على ذلك أن الرأسمالية الغربية والديمقراطية التي يتشكل منها العالم الجديد تظل منتصرة دون منازع، وبالتالي فعلى الحضارات أن تخضع لها[1].

فقد وصل الغرب في نظر فوكوياما إلى قمة القوة الفكرية والمادية والهيمنة العسكرية والسياسية بعد انتصار الديمقراطية الليبرالية، ويدل على ذلك تساقط الأقاليم والدول في أوربا الشرقية في أحضانها، وأن بقية دول العالم سوف تجري نحوها إذا أرادت أن يكون لها التقدم والحضارة، فقد انتهت الشيوعية التي كانت أكبر تحدّ للديمقراطية الرأسمالية واتجه أصحاب الفكر الشيوعي نحو المنهج الغربي.

وقد ركز فوكوياما في كتابه هذا على الإسلام أيضاً فقال: «على الرغم من الحديث عن جاذبية الإسلام العالمية إلاّ أنه تبقى الحقيقة الواضحة والأكيدة هي أن هذا الدين ليس له أي جاذبية خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية، فقد انتهت أيام الغزوات الثقافية الإسلامية، بينما يوجد حوالي بليون من البشر ذوي الثقافة الإسلامية لكنهم لا يستطيعون تحدي الديمقراطية الحرة على المستوى الفكري أو النظري»[2].

ويعتبر فوكوياما صدام حسين ونظامه البعثي يشكل الإسلام وبالتالي فبهزيمته، وسقوطه فقد هزم الإسلام حيث يقول: «وقد شهدت نهاية الحرب الباردة في أوربا تحدياً سافراً للغرب من قبل العراق "بقيادة صدام حسين" الذي يشكل الدين الإسلامي عاملاً هاماً في تكوينه الأيديولوجي»[3].

فقد أغلق فوكوياما أبواب التأريخ على ما عدا الحضارة الغربية القائمة على الرأسمالية الديمقراطية حتى قال: «إن الحياة ستستمر من ميلاد إلى موت، وسيستمر تفجر الأحداث...، ولكن لن يكون هناك أي تقدم أو تطور بعد اليوم فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات»[4].

---

(1) فرانسيس فوكوياما: نهاية التأريخ، ترجمة حسن الشيخ ط. دار العلوم العربية / بيروت 1993 ص 239

(2) المرجع السابق ص 226، وعطية الويشي: المرجع السابق ص 47

(3) فوكوياما: المرجع السابق ص 61

(4) المرجع السابق ص 16

وعلل ذلك بأن جيمع الفلسفات الأخرى، أدنى بكثير فلا تستطيع المقاومة، وأن القيم الغربية الليبرالية هي في القمة فكيف تستطيع أن تقف ضدها، ولذلك إذا وقفت ضدها فهي نهايتها.

وفلسفة فوكوياما ينبغي أن لا يفهم منها أن الصراع انتهى أبداً، بل هي تقوم على حتمية تصادم الحضارات القائمة على حتمية التأريخ، ولكن الحضارة الغربية اليوم وصلت إلى مرحلة أصبحت قادرة على احتوائها جميع الحضارات والقيم الأخرى أو القضاء عليها.

ثالثا: صموئيل هانتنجتون[1]

يحسب لهذا المفكر اليهودي الأمريكي أنه عبّر بكل صراحة عن واقع الموقف الغربي السائد على الأقل في الوقت الحاضر عن الحضارة الإسلامية، حيث أفصح عن الموقف الغربي المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات، لا كموقف ذاتي اختاره وبشر به فحسب، بل (كحتمية واقعية) للموقف الغربي إزاء الحضارات الأخرى، يقول الدكتور محمد عمارة: «كنت أتمنى مع رفضنا لفلسفة الصراع... أن ننظر إلى هذا الذي قدمه صموئيل هانتنجتون باعتباره فضيلة صدق عبرت عن واقع الموقف الغربي في العلاقة بالآخرين، وهو الواقع الذي جزناه تأريخياً، والذي صارحنا هانتجتون بأنه ثابت ومستمر في المستقبل القريب والبعيد، فالرجل لم يحاول خداعنا ـ كما يصنع كتاب غربيون آخرون ومعهم أغلبية المتغربين من مثقفينا»[2].

ومع هذا الموقف فإن نظرية صموئيل هانتنجتون قد استقبلت في العالم الإسلامي بعاصفة من النقد والرفض من معظم الكتاب والمفكرين المسلمين، وكتبوا حولها الكثير والكثير، ولكن موقف الدكتور محمد عمارة موقف واقعي جدير بالنظر والتأمل فالقضية ليست قضية رأي مفكر، أو اثنين أو أكثر إنما هي رأي المعاهد الاستراتيجية والمطابخ السياسية، ويشهد له الواقع الملموس.

وأياً ما كان فلنشرح نظرية صموئيل هانتنجتون من خلال أفكارها الرئيسية بإيجاز[3]:

---

(1) وهو أستاذ جامعي ومفكر يهودي أمريكي، عمل مديراً لمعهد جون أولين بجامعة هارفورد الأمريكية، وقد اشتهر من خلال تبنيه نظرية صراع الحضارات، أو تصادمها، حيث كتب في عام 1993 حولها مقالة، ثم طورها لتصبح كتاباً باسم (صراع الحضارات) كما أن له كتباً أخرى مثل كتاب (الموجة الثالثة) ترجم إلى العربية ونشرتها دار سعاد الصباح بالقاهرة، وكتاب (الغرب والآخرون) لم يترجم بعد. انظر: فتحي الويشي: المرجع السابق ص 43

(2) د. محمد عمارة / المرجع السابق ص 9

(3) اعتمدنا على النص المترجم الذي قامت به مجلة السياسة الدولية، ع 116 إبريل 1994

أولاً: إن عصرنا الحاضر هو عصر الصراعات، حيث يقول: «يسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل».

وقد استعرض الكاتب النزاع بين الحضارات في السابق، ليقول بالنص: «ومع نهاية الحرب الباردة تتحرك السياسات الدولية في مرحلتها الغربية، ويصبح المركز الرئيس لها هو التفاعل بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى» لكن هذا التفاعل حددها الكاتب من خلال التصادم أولاً بين الحضارة الغربية وبين كل من الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية، حتى إذا قضت على الأخيرتين يبدأ الصراع المباشر بين الحضارة الغربية، وبقية الحضارات الأخرى وهي الحضارة الهندية، واليابانية، والأرثوذكسية السلافية، والأمريكية اللاتينية، والأفريقية.

ويحدد الباحث تأريخ الصراع بين الحضارة الغربية والإسلام ببداية نشأة الإسلام وانتشاره، حيث يقول: « إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ 1300 عام» ثم يقول: « إن البؤرة المركزية للصراع في المستقبل سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية...».

وقد عرف الباحث الحضارة بأنها: « كيان ثقافي وأن الهوية الثقافية هي لحمتها وسداها، فيدخل فيها الدين، والهوية والتأريخ، وأنها متنوعة ومتمايزة بسبب اللغة والتأريخ والثقافة، والعادات، وأهمها الدين، ثم تساءل عن أسباب تصادم الحضارات ؟»

لماذا تتصادم الحضارات:

فأجاب الباحث بأن ذلك يعود إلى الأسباب الآتية:

1. الفروق الأساسية والجوهرية بين الحضارات من حيث الدين والتأريخ، واللغة الثقافة، والتقاليد، وتحديد العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والمجموعة والأسرة...
2. تحوّل العالم إلى مكان أصغر ـ أي أن العالم أصبح كقرية صغيرة تتأثر أطرافها وقلبها بكل ما يجري فيها، وبعبارة أخرى حدث احتكاك كبير بين الحضارات.
3. وجود التحديث الاقتصادي والتغيير الاجتماعي عبر العالم يفصل الشعوب عن هوياتها، فيتحرك الدين لملء هذا الفراغ فيحدث الصراع.
4. إحساس الغرب في أوج قوته ولديه القوة والإرادة، ومع ذلك يأتي في الشرق الأوسط (إعادة الأسلمة) فيؤدي إلى الصراع.
5. إن الخصائص والفروق الثقافية أقل قابلية للتبديل، ومن ثم الدين حيث يقول الباحث: «والدين يفصل بين الناس بصورة أكثر حدة وحصراً حتى من العرق الاثني،

فالمرء قد يكون نصف فرنسي ونصف عربي، بل حتى مواطناً في البلدين ويحمل جنسية مزدوجة في الوقت نفسه، لكن الأصعب أن تكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم» ثم قال: «فإن صدام الحضارات يحدث على مستويين فعلى المستوى الجزئي تتصارع المجموعات المتجاورة على امتداد خطوط القيم بين الحضارات بصورة عنيفة».

ثم قال: «وعلى كلا الجانبين يعتبر التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات»

ثم ينتهي البحث إلى: «أن الغرب حالياً في أوج قوته بصورة غير عادية بالنسبة للحضارات الأخرى، فقد اختفت الدولة العظمى الخصيمة له على الخريطة، والنزاع العسكري بين الدول الغربية أمر لا يتصور، والقوة العسكرية للغرب بلا منافس.

وإلى أن يتمثل المحور المركزي للسياسات العالمية في المستقبل... في النزاع بين الغرب وبقية العالم، ورد الحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية».

هذا هو موجز نظرية صموئيل هانتنجتون حول صراع الحضارات، أو تصادمها باختصار شديد، ولكن بعض المفكرين[1] يرى أن هذه النظرية ليست لصموئيل، وإنما هي إعلان عن واقع الموقف الغربي، (وأن هناك كتابات كثيرة قد تعز على الحصر تتحدث عن المركزية الغربية التي جعلت الحضارة الغربية نزاعة إلى احتواء الآخر، وترويضه، ودمجه في نمطها الحضاري ومنظومتها القيمية، وهي النزعة التي اعتمدت طريق الصراع في العلاقة بالآخرين، بل وجعلت من هذا الصراع مع الآخرين ومن احتوائهم، وإلغاء ذاتيتهم وخصوصيتهم وهويتهم... جعلت من ذلك كله "رسالتها الحضارية النبيلة!" التي تقوم لتمدين هؤلاء الآخرين... أما اختصاص الإسلام وأمنه وحضارته وعالمه بالحظ الوافر من جهود الغرب في صراع الحضارات...، فالرجل "أي صموئيل" لم يحاول خداعنا...، بل أفصح عن الموقف الغربي المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات لا كموقف ذاتي...، وإنما كحتمية واقعية...، فهو مجرد واصف... عندما يقول: « إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ 1300عام...»كما أنه بعد ذلك يحدد (أن البؤرة المركزية للصراع في المستقبل القريب سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية)[2] ثم يشير على صناع القرار بتقسيم مراحل الصراع إلى مرحلتين ـ كما سبق ـ لا بدّ من البدء بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

---

(1) د. محمد عمارة: تقديمه السابق ص 7 وما بعدها

(2) المرجع السابق ص 8، 9، 11

ومن جانب آخر فإن صموئيل يحاول بعث الصليبية من جديد، حيث يحشر مصطلح "المسيحية" في سياق تناوله للحضارة الغربية، فهو يسعى حثيثاً ورفاقه إلى بعث موات النصرانية في نفوس أتباعها لمواجهة الدين الإسلامي من منطلق أن الحديد لا يفله إلاّ الحديد، ولأجل التحضير النفسي للصراع الديني الذي هو أخطر أنواع الصراع، ولتكون جميع أسلحة هذا الصراع متكاملة من خلال الحشد المعنوي والديني والمادي لمواجهة الخطر المحدق بالحضارة الغربية الآتي من الإسلام وأتباعه[1].

البابا بندكيت السادس عشر وموقفه من الإسلام:

عندما اختير البابا بندكيت السادس عشر على رأس المؤسسة الدينية الكاثوليكية الأولى فوجئ العالم بمحاضرة له في 12 سبتمبر 2006 بجامعة غوتنبروغ بجنوب ألمانيا أمام جمهور كبير من أتباعه، وهاجم فيها الإسلام هجوماً كبيراً غير مبرر ولا معقول على لسان الامبراطور البيزنطي في حواره مع رجل فارسي، حيث أحدث ضجة كبيرة، أثارت حفيظة المسلمين، وذكرياتهم المريرة عما فعله النصارى وبخاصة الكاثوليك والحملات الصليبية ضد الاسلام والمسلمين بل ضد بقية الأديان في الأندلس والشام وغيرها.

وقد قام بالرد على هذه المزاعم عدد كبير من علماء الأمة، وأفاض فضيلة العلامة الشيخ يوسف القرضاوي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بالرد عليه رداً علمياً في كتابه القيم: البابا والاسلام[2].

ونحن هنا نكتفي بالبيانين العلميين الدقيقين اللذين أصدرهما الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وهما:

---

(1) عطية الويشي: المرجع السابق ص 85

(2) الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة 1428هـ / 2007 م

البيان الأول:

رد على تصريحات البابا

بيان من رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين[1]

الإسلام دين العقل والرحمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« فوجئت وفوجئ المسلمون في أقطار الأرض بتصريحات البابا بنديكتوس السادس عشر خلال زيارته إلى ألمانيا، حول الإسلام وعلاقته بالعقل من ناحية، وعلاقته بالعنف من ناحية أخرى.

وكنا ننتظر من أكبر رجل دين في العالم المسيحي: أن يتأنى ويتريث ويراجع ويشاور، إذا تحدث عن دين عظيم كالإسلام، استمر أكثر من أربعة عشر قرنًا، ويتبعه نحو مليار ونصف من البشر، ويمتلك الوثيقة الإلهية التي تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشرية (القرآن الكريم) الذي لم يزل يقرأ كما كتب في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يزل يُتلى كما كان يتلى في عهد النبوة، ويحفظه عشرات الألوف في أنحاء العالم.

ولكن البابا الذي قالوا - إنه كان يشغل مقعدًا لتدريس اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة راتيسبون منذ 1969م - سارع بنقد الإسلام، بل بمهاجمته في عقيدته وشريعته، وبطريقة لا يليق أن تصدر من مثله.

ففي وسط الجموع الحاشدة التي تزيد على مائتي ألف شخص، تحدث البابا عن الإسلام دون أن يرجع إلى كتابه المقدس (القرآن)، وبيانه من سنة نبيه محمد ﷺ، واكتفى بذكر حوار دار في القرن الرابع عشر بين إمبراطور بيزنطي ومسلم فارسيّ مثقف.

وكان مما قاله الإمبراطور للرجل: "أرني ما الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين - الذي كان يبشر به - بحد السيف!".

ولم يذكر البابا ما رد به الفارسي المثقف على الإمبراطور.

ونسي البابا: أن محمدًا جاء بالكثير الذي لم تأتِ به المسيحية ولا اليهودية قبلها، جاء بالمزج بين الروحية والمادية، وبين الدنيا والآخرة، وبين نور العقل ونور الوحي،

---

(1) صدر هذا البيان بتاريخ 21 :شعبان1427 هـ الموافق 14 سبتمبر2006 م، بتوقيع رئيس الاتحاد، أذاعته قناة الجزيرة، وبعض الصحف ووكالات الأنباء في حينه، ويراجع موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين على شبكة الانترنيت http://www.iumsonline.net/articls/2006/09/07.shtml

ووازن بين الفرد والمجتمع، وبين الحقوق والواجبات، وقرّر بوضوح الإخاء بين الطبقات داخل المجتمع، وبين المجتمعات والشعوب بعضها وبعض، وقال كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ (الحجرات: 13)

وشرع مقابلة السيئة بمثلها، وندب إلى العفو، ودعا إلى السلام، ولكن أمر بالإعداد للحرب: ﴿ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ (الأنفال: 60).

وأنصف المرأة وكرمها إنسانًا وأنثى وابنة وزوجة وأمًّا وعضوا في المجتمع.

ونسخ كثيرًا من الأحكام التي كانت أغلالاً في اليهودية، كما قال تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (الأعراف: 157).

وأما ما قاله الإمبراطور البيزنطي من أن محمدًا لم يجئ إلا بالأشياء الشريرة، وغير الإنسانية، مثل الأمر بنشر دينه بحد السيف! فهو قول مبني على الجهل المحض، أو الكذب المحض. فلم يوجد من حارب الشر، ودعا إلى الخير، وفرض كرامة الإنسان، واحترم فطرة الإنسان، مثل محمد ﷺ الذي أرسله الله ﴿ رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: 107)

ودعوى أنه أمر بنشر دينه بحد السيف أكذوبة كبرى، فهذا ما أمر به قرآنه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل: 125).

والحقيقة أن الإسلام لم ينتصر بالسيف، بل انتصر على السيف الذي شهر في وجهه من أول يوم. وظل ثلاثة عشر عامًا يتحمل الأذى والفتنة في سبيل الله، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج: 39 - 40).

إنما فرض الإسلام الجهاد دفاعًا عن النفس، ومقاومة للفتنة، والفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل. ولذا قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة: 190) ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء: 90).

والإسلام لا يقبل إيمان مَن يدخل عن طريق الإكراه، كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة: 256).

وما قول البابا فيما جاء في الكتاب المقدس في سفر التثنية من التوراة: « إن البلد التي يدخلها موسى ومن معه عليهم أن يقتلوا جميع ذكورها بحد السيف... أما بلاد أرض الميعاد، فالمطلوب دينًا ألا يستبقوا فيها نسمة حية! يعني: الإبادة والاستئصال الذي

نفذه الأوربيون النصارى حينما دخلوا أمريكا مع الهنود الحمر، وحينما دخلوا أستراليا مع أهلها الأصليين!».

كنا نربأ بالبابا أن يستدل بهذا الكلام المبتور في سياق حديثه عن الإسلام ونبي الإسلام.

وما يمارسه بعض المسلمين من العنف، فبعضه مشروع، بإقرار الأديان والشرائع والقوانين والأخلاق، مثل دفاع المقاومة الوطنية ضد الاحتلال في فلسطين أو في لبنان أو في العراق أو في غيرها، وتسمية هذا عنفًا وإرهابًا: ظُلم بيِّن، وتحريف للحقائق.

وبعض ذلك أنكرته جماهير المسلمين في كل مكان، مثل أحداث 11 سبتمبر، ومعظم العنف غير المشروع سببه الأكبر: المظالم التي تقع على المسلمين في كل مكان، ويسكت عنها رجال الدين في الغرب، وربما باركها بعضهم.

ويقرر البابا في لقائه الجماهيري: "أن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو، ومشيئته ليست مرتبطة بأي شيء من مقولاتنا، ولا حتى بالعقل!". وأقام مقارنة مع الفكر المسيحي المتشبع بالفلسفة الإغريقية، موضحًا أن (هذا الفكر يرفض عدم العمل بما ينسجم مع العقل). وكل ما هو مخالف للطبيعة الإلهية.

ولو كلّف الحبر الأعظم نفسه أو كلّف أحدا من أتباعه بالرجوع – ولو قليلاً – إلى مصدر الإسلام الأول (القرآن) لوجد فيه من عشرات الآيات، بل مئاتها، ما يمجد العقل، ويأمر بالنظر، ويحض على التفكير، ويرفض الظن في مجال العقائد، كما يرفض أتباع الأهواء، وتقليد الآباء والكبراء، حتى كتب بعض كبار الكتاب بحق: التفكير فريضة إسلامية.

وحسبنا قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (سبأ: 46)، وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: 185).

ولو رجع إلى قول أئمة الإسلام، مثل الأشعري والماتريدي والباقلاني والجويني والغزالي والرازي والآمدي وغيرهم، لوجدهم يقولون: « إن العقل أساس النقل، ولولا العقل ما قام النقل، ولا ثبت الوحي؛ لأن ثبوت النبوة لا يتم إلا بالعقل، وثبوت النبوة لشخص معين لا يتم أيضًا إلا بالعقل».

ولا يقبل المحققون من علماء الإسلام من آمن بالإسلام تقليدًا لآبائه، دون إعمال للعقل، ونظر في الأدلة، ولو بالإجمال. كما قال صاحب الجوهرة: « إن كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخلُ من ترديد »

ولو أحببنا أن نقارن بين الديانتين: الإسلام والنصرانية، لوجدنا النصرانية هي التي لا تعير العقل التفاتًا في عقائدها، وتقول تعليماتها: « آمن ثم اعلم. اعتقد وأنت أعمى. أغمض عينيك ثم اتبعني». في حين أن العلم في الإسلام يسبق الإيمان، والإيمان ثمرة له، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: 54) وهكذا: ليعلموا، فيؤمنوا فتخبت قلوبهم.

لقد ألَّف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كتابه: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ليرد به على أحد نصارى الشرق الذي زعم أن النصرانية تتسع للعلم والمدنية بما لا يتسع له الإسلام. فكان رد الشيخ العلمي الموثق بالمنطق والتاريخ وحقائق الدين والعلم: « أن الأصول التي يقوم عليها الإسلام هي التي تثمر الحضارة والمدنية، من الإيمان بالعقل، ورفض السلطة الدينية، والجمع بين الدنيا والآخرة... إلخ. بخلاف المسيحية التي تقوم في أساسها على الخوارق، ولا تؤمن برعاية السنن التي أكَّدها القرآن والتي يقول أحد فلاسفتها الدينيين (أوغستين): أومن بهذا؛ لأنه محال، أو غير معقول!».

ولو كان الإسلام ينكر العقل أو يهمله، فكيف أقام المسلمون تلك الحضارة الشامخة التي جمعت بين العلم والإيمان، وبين الإبداع المادي والسمو الروحي؟ والتي ظل العالم يستمد منها أكثر من ثمانية قرون، ومنها أوروبا التي اقتبست منها المنهج التجريبي الاستقرائي، بدل المنهج القياسي الأرسطي، كما شهد بذلك مؤرخو العلم من أمثال غوستاف لوبون، وبير بغولف، وجورج سارطون وغيرهم.

وعن طريق الحضارة الإسلامية، عرفت أوروبا فلسفة أرسطو مشروحة على يد فيلسوف وفقيه مسلم هو العلامة ابن رشد. ولولاه ما عرف الأوربيون أرسطو!.

وقول البابا: «إن مشيئة الله في الإسلام مطلقة لا يحدها شيء »: صحيح في الجملة، ولكن أجمع علماء الإسلام على أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بحكمته لا تنفصل عنها، فلا يشاء أمرًا مخالفًا للحكمة، فإن من أسمائه الحسنى التي تكررت في القرآن: الحكيم. فهو حكيم فيما خلق، وحكيم فيما شرع، لا يخلق شيئًا باطلاً، ولا يشرع شيئًا اعتباطًا. والله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لخلقه، كما قال نبي الإسلام في مناجاته لربه: "الخير بين يديك، والشر ليس إليك".

بل إن طائفة المعتزلة من متكلمي المسلمين يرون أن فعل الصلاح والأصلح للخلق: واجب على الله تعالى.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يقف البابا الحالي من الإسلام والمسلمين موقفًا سلبيًّا، يظهر فيه الإهمال أو التوجس، أو ما هو أكثر.
ففي أول قداس أشرف عليه بعد انتخابه أواخر إبريل 2005م لم يذكر المسلمين بكلمة على حين خص (الإخوة الأعزاء – على حد قوله – من الشعب اليهودي بكلمات تفيض مودة وإعزازًا.
وفي مدينة (كولونيا) الألمانية آخر شهر أغسطس أثناء الأيام العالمية للشباب: التقى بممثلين عن الجالية المسلمة في أسقفية المدينة، فأعرب عن بالغ انشغاله بتفشي الإرهاب، وأكد في هذا اللقاء ضرورة (نزع المسلمين ما في قلوبهم من حقد، ومواجهة كل مظاهر التعصب، وما يمكن أن يصدر منهم من عنف)!.
وهذه النبرة التوبيخية كان لها وقع سيئ في نفوس المسلمين، لما فيها من رؤية ضيقة ومن تصور تبسيطي لمنابع الإرهاب وأسبابه.
كما أن استقباله للكاتبة الإيطالية المقيمة في الولايات المتحدة (أوريانا فالاتشي) والتي تكتب كتبًا ومقالات نارية تؤلب على الإسلام والمسلمين. والتي لا ترى فرقًا بين إسلام متطرف وإسلام معتدل، فالإسلام كله متطرف، والتناقض بين المسيحية والإسلام: جوهري.
كانت هذه مواقف تُعَدّ سلبية بالنسبة للمسلمين، أما اليوم فقد أصبح الأمر يتعلق بالإسلام ذاته، ونحن المسلمين نعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين، والنبي محمد ﷺ يقول: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم".
ولمريم عليها السلام سورة في القرآن، ولأسرة المسيح سورة في القرآن (سورة آل عمران)، وللمسيح وكتابه في القرآن مكان معروف. ونحن لا نريد أن نصعد الموقف، ولكن نريد تفسيرًا لما يحدث، وما المقصود من هذا كله. كما نطلب من حبر المسيحية أن يعتذر لأمة الإسلام عن الإساءة إلى دينها.
لقد كنا نود من البابا أن يدعو إلى حوار إيجابي بين الأديان، وحوار حقيقي بين الحضارات، بدل الصدام والصراع، وقد استجبنا من قبل للدعوة الموجهة من جمعية سانت جديو في روما إلى الحوار الإسلامي المسيحي. وشهدنا دورة للحوار مع أحبار الكنيسة في روما، وفي برشلونة، فيما سُمّي (قمة إسلامية مسيحية)، وشاركنا في مؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي في الدوحة. فهل يريد الحبر الأعظم أن نغلق أبواب الحوار، ونستعد للصراع في حرب أو حروب صليبية جديدة؟

وقد بدأها بوش، وأعلنها صريحة باسم اليمين المسيحي. ونحن ندعو إلى السلم؛ لأن ديننا يأمرنا بذلك، ولكننا إذا فرضت علينا الحرب خضناها كارهين، نتربص فيها إحدى الحسنين، كما قال قرآننا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: 216).

وكما قال نبينا ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». متفق عليه.

فنحن ندعو إلى التسامح لا إلى التعصب، وإلى الرفق لا إلى العنف، وإلى الحوار لا إلى الصدام، وإلى السلام لا إلى الحرب. ولكنا لا نقبل أن يهاجم أحد عقيدتنا ولا شريعتنا ولا قيمنا، ولا أن يمس نبينا محمدًا ﷺ بكلمة سوء. وإلا فقد أذن الله لنا أن ندافع عن أنفسنا. فإن الله لا يحب الظالمين »

رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

د. يوسف القرضاوي

البيان الثاني:

بيان من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين[1]

بشأن موقف بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فقد تابع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين متابعة مستمرة المواقف التي صدرت عن بابا الفاتيكان منذ ألقى محاضرته في إحدى الجامعات الألمانية بتاريخ 19 من شعبان 1427هـ = 2006/9/12م.

ولاحظ الاتحاد أنه على الرغم من إتاحته الفرصة للبابا لحذف الكلام الباطل المسيء للمسلمين ولدينهم، ولكتابهم، ولنبيهم ﷺ، وإعلان الاتحاد على لسان رئيسه فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وأمينه العام الأستاذ الدكتور محمد سليم العوَّا عدة مرات عدم الحاجة إلى اعتذار البابا، لأن الاعتذار بعد الإساءة لا يقدم ولا يؤخر، والاكتفاء بحذف الكلام المذكور من النص الرسمي للمحاضرة، فإن هذه الدعوة لم تجد أذنًا صاغية.

---

(1) البيان صدر الأربعاء 2006/9/27، يراجع http://www.iumsonline.net/articls/2006/09/15.shtml

واكتفى البابا في كل مرة تكلم فيها بالإشارة إلى أسفه لسوء فهم كلامه أي إنه يتهم المسلمين، الذين غضبوا لدينهم ولكتابهم ولنبيهم ﷺ، بعدم الفهم. وكرر غير مرة أن النص المنقول عن إمبراطور بيزنطي أرثوذكسي (يعتبره البابا غير مسيحي) لا يعبر عن وجهة نظره، مع أن المحاضرة كلها مبنية من أولها إلى آخرها على كلام هذا الإمبراطور؛ الأمر الذي يقطع بأن البابا يقصد تبني ما نقله عنه والبناء عليه وتأكيد معانيه الفاسدة في أذهان سامعيه وهم العالم الكاثوليكي كله.

وقد لاحظ الاتحاد أن جميع أحاديث البابا التي تناولت موضوع محاضرته وما جاء فيها من إساءة للإسلام أشار فيها إلى الأديان، وأشار إلى المسلمين، ولم يذكر ولو مرة واحدة دين الإسلام. وإذا كان الاتحاد يفهم موقف الكاثوليكية من سائر الأديان والمعتقدات فإنه لا يمكن أن يتقبل إخراج الإسلام وحده من زمرة ديانات العالم الكبرى (التي لا تؤمن الكاثوليكية بأنها أديان) ثم ذكر هذه الأديان على سبيل الجمع وذكر المسلمين كجماعات وشعوب لا كأصحاب دين ولو أنكره الفاتيكان.

وقد فوجئ الاتحاد بأن البابا، عندما التقى أمس الاثنين 2 من رمضان 1427هـ = 2006/9/25م بسفراء الدول الإسلامية المعتمدين لدى الفاتيكان، لم يذكر محاضرته بكلمة، واكتفى بالدعوة إلى الحوار باعتباره ـ كما يزعم ـ ضرورة للمستقبل.

والاتحاد يعلن، في ضوء ما سلف كله، أن الحوار الذي يدعو إليه البابا غير ممكن ولا معقول، إذ إن القرآن الكريم يقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ (العنكبوت: 46). ونحن ظُلمنا على لسان البابا ظلماً شديداً لا يرفعه ما قاله في لقائه مع السفراء.

بل إن القرآن الكريم ينهى المسلمين عن الجلوس مع من يسخر من كتابهم فيقول: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ ﴾ (النساء: 140).

لذلك قرر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين عدم إجراء أي اتصال من أي نوع مع الفاتيكان، أو المؤسسات الممثلة له، أو مندوبيه لدى الدول العربية والإسلامية، وفي سائر أنحاء العالم، إلى أن يصدر من البابا موقف جديد يجعل احتمال الحوار البناء المجدي قائمًا، والاتحاد يعلن هذا القرار للعالم الإسلامي داعيًا المسئولين الدينين والسياسيين إلى اتخاذ الموقف الذي يمليه عليهم دينهم وضميرهم وكرامة أمتهم واعتزازهم بالانتساب إلى رسول الله ﷺ وأتباعه. وهذه المقاطعة الثقافية هي أقل ما يجب على المسلمين عمله إزاء

الإصرار المستمر على عدم الرجوع إلى الحق، والاستكبار الواضح عن حذف العبارات الباطلة المسيئة للمسلمين من محاضرة البابا.

ويهم الاتحاد أن يذكِّر البابا، والمسيحيين كافة، بما وصف به القرآن الكريم أحبار النصارى وعوامَّهم في قوله تعالى ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المائدة: 82 - 83).

إن أقل ما يتوقعه المسلمون من المسيحيين هو مثل هذا الإنصاف الذي بغيره لا يمكن أن تقوم علاقة صحيحة بين الفريقين، ولا أن يؤدي أي حوار إلى ثمرة صالحة.

والحمد لله رب العالمين.

الأمين العام	رئيس الاتحاد
أ.د. محمد سليم العوَّا	أ.د. يوسف القرضاوي

الإسلام والغرب: أيهما يحارب الآخر؟

يستطيع معظم ساسة الغرب من خلال وسائل إعلامهم العملاقة وجيوشهم الإعلامية ومحلليهم المتدربين أن يحولوا الحقائق، فيصوّروا الحق كأنه باطل، ويثبتوا عكس الواقع، حتى تصبح الضحية كأنها هي الظالمة، والظالم كأنه المظلوم، وهذا ما نشاهده في أكثر بقاع العالم الإسلامي في فلسطين وغيرها.

ولذلك استطاع هؤلاء أن يصوّروا أن الإسلام هو دين الإرهاب، وأن المسلمين هم المعتدون، وهم الذين يحاربون الغرب بصورة عامة، وأنهم هم يكرهون الغرب وحضارته وقيمه الديمقراطية...

ولكن الحقيقة هي عكس ذلك فالإسلام هو دين الرحمة والسماحة نظرياً وعملياً ـ كما ذكرنا من قبل ـ وأن المسلمين مظلومون نالهم ظلم كبير من معظم الدول الغربية (من احتلال وسلب للثروات، وانسلاب حضاري وطمس للهوية ودعم للدكتاتورية...) وهم لا يزالون في مرحلة مقاومة المحتلين، وهم لا يزالون لم يستعيدوا حريتهم الكاملة، وهم لا يزالون يمرون في أضعف مرحلة مرّت بها الأمة الإسلامية...

ومع كل ذلك لا يزال معظم قادة الغرب ينظرون إلى الإسلام والمسلمين باعتبارهم العدو الأول للغرب وحضارته، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي الذي ساهم الإسلام والمسلمون في إسقاطه مساهمة كبيرة ـ كما سبق ـ انعقد أول اجتماع لرؤساء دول حلف شمال الأطلنطي في لندن في النصف الأول من يوليو 1990 في لندن بعد تفتت حلف وارصو الأداة العسكرية لدول الكتلة الشرقية (السابقة) وقد وصف هذا الاجتماع بأنه الأهم في تأريخ الحلف منذ 1949، وكانت المواجهة مع الإسلام حاضرة في الاجتماعات، بل كانت أهم بنودها، وتدل على ذلك تصريحات وزير خارجية إيطاليا الذي كان يرأس تلك الدورة للمجلس الوزاري الأوربي، حيث أجرت معه مجلة (نيوزيك عدد 2يوليو1990 ص 56) حوارا فسألته عن أمور كثيرة تتعلق بمستقبل الحلف، وتدور حول عنوان الموضوع، وهو لماذا ينبغي أن تتغير مهمة ناتو ؟ فكان أحد الأسئلة بالنص: « ما دام الغرب لم يعد يواجه تهديداً عسكريا من الكتلة الشرقية، لماذا تحتاج أوروبا إلى تلك القوة الضاربة التي يمتلكها الحلف ؟ ».

فأجاب الوزير الإيطالي (رئيس تلك الدورة): « إنه من الخطإ التفريط في تلك المنظمة الأمنية التي تم بناؤها خلال أربعين عاماً، ورغم أن أوروبا مقبلة على مرحلة سلام إلاّ أن التوتر لا يزال مستمراً داخل بعض دول التحالف الغربي مثل اليونان وتركيا » ثم أضاف ما نصه: «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلاّ أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي».

ثم سألته المجلة سؤالاً آخر: « كيف يمكن تجنب تلك المواجهة ؟» فأجاب: « ينبغي أن تحل أوروبا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي الأكثر جاذبية وقبولاً من الآخرين في مختلف أنحاء العالم».

يقول الأستاذ فهمي هويدي: « لا نريد أن نبالغ في الأمر... إنما نريد أن نعطي الكلام حقه بغير تهويل، أو تهوين، فهو صادر عن مسؤول كبير في دولة أوربية معتبرة، بل وفي المجموعة الأوربية التي تمثل الإرادة السياسية للقارة، وهو منشور عشية اجتماعات زعماء التحالف الغربي، فالرجل مهم، والمناسبة مهمة، وذلك يقتضي أن نتعامل مع الكلام بالقدر الذي يستحقه من الجدية والمسؤولية».

ثم يقول الأستاذ فهمي: «يعزز ذلك الذي ندعيه أن هذه ليست هي المرة الأولى التي يشار فيها إلى الموضوع، فطرحه مسبوق من جانب الصحافة الأوربية والأمريكية التي ما انفكت تتحدث عن خطر الإسلام على الغرب منذ قامت الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، وهو حديث بلغ ذروته مؤخراً إبان الضجة التي ثارت في أعقاب صدور كتاب

(آيات شيطانية) في بداية العام الماضي، وربما كانت صحيفة التلجراف البريطانية من بين الذين عبروا بوضوح عن ذلك الموقف، إذ نشرت في عدد الأحد 19 فبراير 89 مقالين أحدهما بعنوان: «لماذا لا يستطيع الغرب أن ينسى عداءه للإسلام»، والثاني بعنوان: «نحن بحاجة إلى عون الدروس في مواجهة الإسلام»، وآخر ما يقع بين يدي من كتابات في ذلك الاتجاه مقال نشرته الوشنطون بوست في 16فبراير 90، بعنوان: «قوس الأزمات الجديد ـ الانتفاضة الإسلامية العالمية».

فضلاً عن ذلك، فإن هذا الذي تحدثت عنه الصحافة الغربية، سمعته بصوت عال في واشنطون في شهر يناير من العام الحالي، حيث كان هناك بين السياسيين والأكاديميين من يقول صراحة بمثل ما صرح به وزير خارجية إيطاليا، فعندهم أن المواجهة ضد الإسلام والمسلمين هي البديل المرشح للمواجهة التي انفضت تقريباً ضد المعسكر الشيوعي الشرقي، الذي لم يعد معسكراً بعد، فضلاً عن أن شيوعيته بسبيلها إلى الانحسار، وشرقيته صارت مسألة جغرافية لا أكثر!

وقد لاحظت أيضاً أن هذه النقطة باتت تمثل أحد عناصر الاستجواب الذي يتعرض له من جانب بعض الغربيين في مصر ـ الدبلوماسيين والصحفيين ـ الذين كانت أسئلتهم تدور عادة حول ثلاث نقاط هي: موقف الإسلاميين من الإرهاب، وغير المسلمين، والمرأة ـ وفي السنتين الأخيرتين بوجه أخص أضيفت إلى القائمة نقطة رابعة هي: الموقف من الغرب!

لا نريد أن نفصل في الشهادات أو الشواهد، فالأمر المقطوع به أن مسألة المواجهة المحتملة بين الغرب والإسلام باتت قضية مثارة في الفكر الاستراتيجي الغربي، الآن وأكثر من أي وقت مضى»[1].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن كلامنا، وكلام المفكرين الإسلاميين لا يقصد منه التعميم، وإنما الحديث حول السياسة الاستراتيجية الغربية التي تسيطر عليها الدول الكبرى والتي يراد تطبيقها، وكذلك ينبغي التفرقة بين الإسلام باعتباره ديناً يراد أن يكون رحمة للعالمين أجمعين، وبين المسلمين اليوم الذين يعانون من الظلم والاحتلال والاضطهاد والاستبداد حيث يمكن أن تصدر من بعضهم تصرفات غير مسؤولة، ومع ذلك فإن عداء المسلمين للغرب ـ إن وجد ـ هو عداء سياسي، وليس عداءً أيدلوجياً فلا يوجد

---

(1) الأستاذ فهمي هويدي: مقالته الأسبوعية في جريدة الشرق القطرية في 25 ذي الحجة 1410هـ ـ 17 يوليو 1990

مسلمون يكرهون الغرب لأنه غربٍ، في حين أن عداء هؤلاء الغربيين عداء سياسي وعقدي، فالمسلمون قد حزنوا حزناً شديداً على غلبة الروم (الغرب والمسيحيين) على أيدي الوثنيين، وأن الله تعالى بشر بانتصارهم فقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ (الروم: 1 - 5)

ولا تزال خطابات الإسلاميين الإصلاحيين أمثال الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وأصحاب المناهج الوسطية والجماعات الإسلامية المعتدلة في عصرنا الحاضر لا يظهر منها ولا من برامجهم أو خطاباتهم، أو أدبياتهم العداء والكراهية للغرب من حيث هو غرب، ولا للغربيين لأنهم غربيون، بل يدعون إلى الاستفادة من العلوم النافعة للغرب ومن حقوق الإنسان والحريات السياسية والاقتصادية وآليات الديمقراطية وغيرها مما لا يتعارض مع الشريعة الغراء، ويدعون إلى الحوار والتعايش، وإنما هم جميعاً ضد الظلم والاحتلال، والمواقف السياسية غير العادلة، والكيل بالميكالين...

وإذا كان هناك بعض الأشخاص، أو الجماعات، أو الدول يهاجمون الغرب فإن لهم ظروفهم الخاصة التي لا يجوز أن تعمم على الإسلام، ولا على جميع المسلمين، يقول الأستاذ فهمي هويدي: « تظل الثورة الإسلامية في إيران بخطابها ومواقفها نموذجاً للموقف الإسلامي المعادي للغرب، وللدقة فإن هذا الوصف ينطبق بوجه أخص على الجمهورية الأولى التي قادها آية الله الخميني، وهو في الجمهورية الثانية ـ الراهنة ـ محل مراجعة على ما ذكرنا في الأسبوع الماضي.

وحتى إذا ظل الموقف الإيراني كما كان، فمن التعسف والتغليظ أن يعمم ذلك الموقف على المسلمين كافة، أو على الإسلام، وإنما الأصوب أن يفهم في إطار الخبرة الإيرانية ذاتها التي عانت الأمرّين طويلاً من قهر الغرب وجبروت النظام الذي سانده وأيده.

وربما كانت مشكلة وعقدة العداوة الغربية المعاصرة للإسلام أنها لا تريد أن تزحزح البصر عن إيران، ولا عن جماعة التطرف في العالم العربي التي ترفض الجميع ـ الإسلامي وغير الإسلامي ـ وتعادي الغرب نتيجة ذلك في حين أن توسيع مجال الرؤية والإطلال على الساحة الإسلامية باتساعها العريض، يعطي انطباعاً مغايراً يتجاوز العداء المعلن وغير المبرر ويفتح الباب لتضاريس أخرى لتلك العلاقة تتراوح بين القبول والتوتر، وهي في كل الأحوال نسبية ومبررة»[1].

---

(1) الأستاذ فهمي هويدي: مقالته الأسبوعية في جريدة الشرق القطرية في 25 ذي الحجة 1410هـ.

الإشكالية لدى الساسة الغربيين:

تكمن الإشكالية لدى معظم الساسة الغربيين في الثالوث المهمين على أفكارهم وهي:
1ـ ضرورة وجود عدو أمامهم، أو صنعه ليكون مبرراً لكل ما يريدون، كما هو الحال بالنسبة لأمريكا في إعلانها الحرب العالمية على الإرهاب الإسلامي، واحتلت بسببها معظم بلاد الإسلام إما مباشرة أو غير مباشرة.
2ـ التأثر بالسياسات الدينية المتمثلة بالصهيونية العالمية، وباليمين المسيحي المتطرف المتصهين.
3ـ فرض القيم الغربية، والنموذج الغربي ـ بكل ما فيه خير وشر، وحق وباطل، وكرامة، وتحلل جنسي حتى الشذوذ والجندرة ـ على العالم، وهذا ما صرح به رئيس دورة حلف (الناتو) الخاصة بوضع الاستراتيجية الغربية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي يوليو 1990م ـ كما سبق ـ وهذا ما أكده صموئيل هاتنتجتون، وفوكوياما، وبرنارد لويس وغيرهم ـ كما سبق ـ وأكده تقرير معهد راند أيضاً، حيث إن العالم في خطر إذا لم يطبق الانموذج الغربي.
وهذا ما عبره عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَـٰعُواْ ﴾ (البقرة: 217).
فالغرب لا يرفض الإسلام فقط باعتباره ديناً وعقيدة، وإنما يرفض المشروع الحضاري للإسلام، كما أنه يرفض الاستقلال الحضاري للمسلمين، بل والاستقلال الكامل للدول الإسلامية في قراراتها السياسية والاقتصادية...
والغرب السياسي أيضاً لا يريد تطبيق الديمقراطية الغربية بشكل حرّ مطلق، لأنه يستفيد منه من ليس على منهجه من الإسلاميين أو حتى غيرهم، فقد ذكر تقرير معهد راند: « أنه لا ينبغي للغرب دعم العلمانيين أيضاً (أي مثل الإسلام التقليدي) بصورة مطلقة لأن بعضهم يكرهون الغرب، أو أن لهم أجندتهم الخاصة[1] ولذلك ساندت الدول الغربية الكبرى أي نظام ـ مهما كان دكتاتورياً، عسكريا، ملكياً» بشرط واحد وهو الحفاظ على مصالحه، فسجلات هذه الدول الاستعمارية مع الشعوب الإسلامية ليست مبدئية، ولا أخلاقية، في معظم المواقف إن لم يكن في جميعها.
وباختصار شديد جداً فإن معظم الساسة الغربيين (وبالأخص في أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا...) يريدون شيئاً واحداً، وهو التبعية المطلقة، وهذا ما عبر عنه القرآن

(1) تقرير معهد راند المشار إليه سابقاً

الكريم بوضوح حينما قال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: 120) وكلمة الملة تشمل الدين والقيم والانموذج الغربي.
ولذلك فالكرة في ملعبهم، وإثارة الصراع تتم من قبلهم، فيوم تتغير هذه السياسات والسلوكيات، وتتحول إلى سياسة عادلة مع المسلمين، فإن العالم يهنأ بالسلام، وبدون ذلك سنظل في دوامة ردود الأفعال والصراعات، صحيح أن بعض الدول الغربية تستفيد من هذه الصراعات ـ كما سبق ـ ولكنها في الأخير، والمآلات ستكون وبالاً عليها، ونهاية قوتها، وهذه سنة الله تعالى في الأمم والإمبراطوريات والحضارات ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (آل عمران: 140)

أنواع المخاوف البارزة في العلاقات الإسلامية الأوربية:

هناك خوف شديد يثيره الغرب نحو المسلمين بصورة عامة، والعرب بصورة خاصة، وهذا الخوف له صورتان: الصورة الظاهرية المتمثلة بالخوف من الحركات الإسلامية المتطرفة والأصولية ـ على حدّ تعبيرهم ـ ومن الإرهاب الإسلامي، ويبررون هذا الخوف بما أسندت إلى هذه الحركات، أو تنظيم القاعدة من تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر، وكذلك التفجيرات الأخرى في أوربا وغيرها وبالأخص حادثة تفجير القطار في مدريد، وتفجير السفارة الأمريكية في أفريقيا، وغير ذلك من التخريبات والتفجيرات في أمريكا وأوروبا ذهب ضحيتها الآلاف من الأوروبيين والأمريكيين.
وكذلك لا يخفون الخوف من المتشددين الذين يعيشون داخل الغرب من خلال اللجوء السياسي والحصول على الجنسيات الغربية، وفتاواهم المتشددة، بحل أموال هؤلاء الكفرة ونسائهم...
ولكن الصورة الحقيقة لخوف الأوربيين والأمريكيين هي الخوف من الإسلام نفسه بأنه ينتشر بينهم ويصبح الدين الأول بعدما انتهى دور بقية الأديان، وأصبح الناس في خواء وفراغ روحي فيملأ هذا الفراغ بدين متزن جامع بين ما يحتاج إليه الجسد والروح والعقل والفكر على حد سواء، وهذا لا يتحقق إلاّ من خلال الإسلام. وقد دلت التجارب على ذلك حيث إن من يتعرف على الإسلام الحقيقي لا يلبث أن يدخل فيه إذا شاء الله تعالى.
وكذلك خوفهم الحقيقي من صحوة المارد ـ كما يسمونه ـ واستيقاظه من سباته العميق، ثم توحده، وتكوينه دولة واحدة، أو دولة اتحادية، أو منظومة اتحادية تضم أكثر من مليار وأربعمائة مليون مسلم، وتهيمن على بقعة جغرافية تعتبر أكثر البقاع استراتيجية

وخطورة من جميع الجوانب فهي الوسط بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كما أنها تضم معظم الممرات والمضايق البحرية، وطرق وخطوط التواصل بين أطراف العالم أجمع، ناهيك عن أن الله تعالى حبا العالم الإسلامي بمعظم المواد الخام من البترول، والغاز، والحديد، وغير ذلك مما يعتمد عليه العالم كله، بل يعتبر من العمود الفقري للحضارة الغربية.

فأمة هذا عددها، وتلك إمكانياتها لو اتحدت تصور الغرب أنها توجه قوتها إليه، ناسية أو متناسية أنها أمة الرحمة للعالمين، وصاحبة رسالة البشر والمنفعة والخير والكرامة للناس أجمعين.

فالغرب يخاف من وحدة المسلمين وقوتهم أن يتكرر قطع البترول عنه كما حدث في عام 1973م أثناء حرب العاشر من رمضان المبارك متجاهلة أن هذا الحق استعمل لإحقاق الحق الإسلامي العربي الفلسطيني في فلسطين.

والغرب يخاف من الإسلام باعتباره رسالة جامعة شاملة لكل البشر، ولكل ما في الإنسان من روح وجسد، وفكر، ومشاعر، وعقل، قادرة على تحدي فلسفة الغرب وأيديولجياته، ويخاف منه باعتبار قوته وتأثيره في الإنسان وقدرته على إسعاده من خلال توجيهاته، كما أنه يخاف من المسلمين إذا تمسكوا بالإسلام أن تهتز قواه وتضعف مصالحه، وتذهب هيمنته على العالم الإسلامي، ويحرم من خيراته، وينتهي استغلاله واستعماره له طوال أكثر من قرنين.

إنه يخيل للغرب أن مصلحته هي مع ضعف المسلمين وتفرقهم وتمزقهم (فرق تسد)، ولو كان الغرب عادلاً لعلم أن الظلم مهما طال فإن مصيره إلى الزوال، وأن الليل مهما اسودّ فنهايته الفجر المنير.

والغرب يخاف المسلمين لأنه قد ظلمهم طوال عدة قرون، ظلمهم بالاحتلال والاستغلال ومص دمائهم، وبناء حضارته بأموالهم وجهودهم، والغرب يخافهم، لأنه ظلمهم بإنشاء دولة إسرائيل في قلب عالمهم، ثم دعمها بكل الوسائل، وظلمهم بمنع الحرية عنهم، ثم تعاونه، ودعمه للحكام الدكتاتوريين الظلمة المستبدين ما داموا يحققون مصالح الغرب.

والغرب يخاف لأنه له تجارب مع المسلمين المجاهدين حيث لم يُخرج المحتلين من أرض الإسلام إلاّ هؤلاء المجاهدون على مرّ التأريخ الإسلامي، وخاصة التأريخ الحديث.

والغرب يخاف من العالم الإسلامي، لأنه عندما تركه بعد الاحتلال ترك له مشاكل لا تعدّ ولا تحصى، مشاكل الفقر والتخلف، مشاكل الإهمال للبنية التحتية، مشاكل

الحدود مع الدول المجاورة، مشاكل وضع الخرائط الجغرافية لكل دولة، مشاكل إثارة الفتن القومية والطائفية...
هذا ما فعلته السياسة الغربية طوال القرون الأخيرة ضد المسلمين، فهل يمكن أن يترك المسلمون الغرب المستعمر ليعيث في بلاد الاسلام استعماراً واحتلالاً ؟
هذا هو السؤال الذي يقتضي الإجابة.

موقف الإسلام من صراع الحضارات:

الذي أفهمه من نصوص القرآن الكريم وسيرة نبينا الكريم أن الإسلام يدعو بوضوح إلى التحاور بدل التصارع، وإلى التعايش بدل التصادم، فالقرآن الكريم هو رسالة حوار ودعوة بالتي هي أحسن من بدايته إلى نهايته، وأن الحرب هي آخر المطاف لإحقاق الحق بعدما تفشل كل طرق التفاهم، وتسد كل نوافذ الحوار.
وهذا ما فعله الرسول ﷺ حينما بعثه الله نبياً، فبدأ بالحوار والنقاش، والدعوة بالتي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل: 125)
وقد صبر النبي ﷺ وصحبه الكرام على أذاهم الشديد من قبل الجاهليين بكل الوسائل المادية والمعنوية، وقد قتلوا منهم عدداً صبراً وتعذيباً ومع ذلك كانوا يقولون لهم ما أخبرهم به ربهم في القرآن الكريم: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6) بل كان الرسول ﷺ حينما آذوه في الطائف وعرض عليه ملك الجبال بأن يهلكهم بالتدمير رفض ذلك، حيث روى البخاري ومسلم وغيرهما بسندهم عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله: « هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (أي بالطائف) إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلاّ بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عزّ وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فناداني ملك الجبال وسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت إن شئت أن اطبق عليهم الأخشبين ؟ (هما جبلان بمكة) فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به

شيئاً»[1]. فهذا الحديث الصحيح يدل بوضوح أن الرسول ﷺ لا يريد أبداً هلاك الكافرين حتى الذين آذوه وإنما يريد هدايتهم، فرسالته هي رسالة الهداية: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ (البقرة: 1 - 2) ورسالة الرحمة للعالمين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)

وقد ناقشني بعض الشباب فقال: أليس سيدنا نوح دعا على قومه الكفرة فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: 26 - 27) فأجبتهم بما يأتي:

أولا: أن سيدنا نوح ما دعا هذا الدعاء إلاّ بعدما عاش في قومه يدعوهم ألف عام إلاّ خمسين عاماً، وأنه أوصل الدعوة إليهم جميعاً بكل الوسائل السرية والجهرية، وبالترغيب والترهيب حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ ﴾ (نوح: 5 - 13)

ثانياً: لم يدع سيدنا نوح مع كل ذلك إلاّ بعد وصول تقرير من رب العالمين بأنه: ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ (هود: 36)

ثم قلت لهؤلاء الشباب: « فهل نحن فعلنا مثل ما فعل سيدنا نوح ؟ وهل جاءنا وحي بأن القوم لن يؤمن منهم أحد ؟»

ثالثاً: إن منهج الرسول ﷺ في هذه المسألة يختلف عن منهج نوح وسيدنا موسى (عليهم السلام) الذي دعا على فرعون وقومه أن لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وإنما هو منهجه في الدعوة يتفق مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، بل هو قدوته كما أمر الله تعالى به، ويظهر ذلك من خلال اختياره لرأي أبي بكر ومن معه من الصحابة في المنّ على أسرى بدر وشبه هذا الموقف بموقف سيدنا إبراهيم عليه السلام ولم يأخذ برأي عمر الذي كان يريد قتل الأسرى (رضي الله عنهم جميعاً)[2].

---

(1) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ (312/6) وصحيح مسلم (1420/3)

(2) انظر هذه القصة في شرح النووي على مسلم (86/12 ـ 87) ود. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ط. مركز بحوث السنة والسيرة جامعة قطر ص 368

وعلى ضوء ذلك نقول: « إن الأصل العام والمبدأ العام في الإسلام هو الدفع بالتي هي أحسن بدل التصارع والتصادم إلاّ إذا اقتضته الضرورة ».

التدافع يدفع في الإسلام نحو التوارث، والتفاعل الحضاري، لا صراع الحضارات:

إن فلسفة الإسلام في الحضارات تقوم على أساس الدفع نحو الأحسن، وبالتالي فإن هذا يترتب عليه عملية التوارث، والتفاعل الحضاري، وليس صراع الحضارات.
وإذا نظرنا إلى النصوص الشرعية لوجدناها صريحة في الدلالة على ضرورة الأخذ بكل ما هو نافع وصالح، فقد أمرنا بالعلم بجميع أنواعه الصالحة، وبالقراءة النافعة لكل شيء، للكتاب وللكون، (فالنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى)[1].
ولذلك يؤكد الإسلام على ضرورة التفاعل الحضاري من خلال العلم والقراءة ومن خلال السير في الأرض والنظر فيها، وفي أهلها، وأممها للوصول إلى فقه سنن الله تعالى في هذا الكون، وفي الأمم والحضارات، من سنن التقدم والنصر والتمكين، وسنن الهزيمة والتخلف، فقال تعالى: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: 137)
وقد ورد في الحديث موقوفاً، أو مرفوعاً أن: « الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها أنى وجدها»[2].
فمن خلال العلم والقراءة والتأريخ يحدث التفاعل الحضاري حيث تستفيد الحضارة اللاحقة من الحضارة السابقة وتبني عليها، وهذا ما فعله المسلمون حيث استفادوا من جميع الحضارات السابقة دون حساسية ولا حرج ما دام فيها خير وعلم وحكمة، بل نسمع من الخلفاء العباسيين الغرائب في تقديرهم للعلم، لكنه كان الواقع، حيث كانوا يعطون جوائز ثمينة ومكافآت عظيمة على الترجمة والعلوم من أي أمة كانت.
وهذا التفاعل يكون عن طريق الموقف الوسط بين العزلة والانغلاق، وبين التقليد والتبعية، حيث تأخذ الحضارة الإسلامية كل ما هو نافع من الحضارات الأخرى، ولكن مع الحفاظ على هويتها، وخصوصيتها الحضارية[1].

---

(1) يراجع: تكرر العلم ومشتقاته، والقراءة ومشتقاتها في الكتاب والسنة من خلال المعجم المفهرس للقرآن الكريم، والسنة النبوية، ويراجع: الشيخ القرضاوي: الرسول والعلم ط. مؤسسة الرسالة حيث قال في ص 3: (فلم تعرف البشرية ديناً مثل الإسلام عني بالعلم أبلغ العناية) ويراجع كذلك عبدالعزيز التويجري: الحوار من أجل التعايش ص 23

(2) رواه الترمذي، وابن ماجه، انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحكمة (1395/4)

فقد بين الله تعالى أن الحكمة من هذا الاختلاف هو:

1) الابتلاء والامتحان والتسابق، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ ﴾ (المائدة: 48) فقد بين الله تعالى بأن الأمة الفائزة هي الأمة المتسابقة في كل أنواع الخيرات الدنيوية والأخروية.

2) الاندفاع والحركة نحو الأحسن، أو حتى يظهر من خلال سنة التدافع الأحسن الأصلح فالأرض هي ميدان النشاط الإنساني، فالتمكين منها يتحقق من خلال سنة التدافع.

هل هذا يعني أن الصراع غير موجود ؟

الجواب على ذلك بالنفي قطعاً حيث إن هذا الصراع واقع وموجود لا محالة، كما أن الاختلاف واقع وحقيقة، ومع ذلك فالإسلام يطالب بالوحدة بدل الاختلاف فكذلك الإسلام يطلب التعايش بدل التصادم، والتحاور بدل التصارع، مع أن الصراع سنة من سنن الله في الحياة، وهذا هو الجمع بين الآيات الواردة في الصراع والدفع بالتي هي أحسن.

فيجب على المسلمين على ضوء النصوص الشرعية أن لا يثيروا الصراع ولا يفرحوا به، وإنما عليهم أن ينشروا الهداية، ويصبحوا رحمة للعالمين، وأن ينقذوا أهل الضلال إلى الصراط المستقيم، وهذا ما فهمه الرعيل الأول حينما بعث ربعي بن عامر رسول الجيش الإسلامي إلى رستم قائد الجيش الساساني، فسأله عن الهدف: هل هو المال أو الجاه ؟ فقال ربعي: «ابتعثنا الله تعالى لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فالصراع موجود بل من السنن الاجتماعية على مستوى الأديان والأمم والجماعات بل حتى الأفراد ولكن الإسلام يريد أن يبعده بقدر الإمكان، أو يخفف من وطأته، وآثاره، أو يحوله إلى الدفع بالتي هي أحسن، للوصول إلى ما هو الأحسن في الحالتين، أي في حالة تحقق الصراع على أرض الواقع، أو عدمه من خلال جعله سبيلاً للحركة والحيوية والنمو والازدياد، وعلامة الحياة، والاستمرار ابتداءً من الخلية إلى النهاية.

---

(1) د. محمد عمارة: العطاء الحضاري ط. الدوحة الحديثة ص 105

فالإسلام يريد أن يدفع بالمسلمين نحو أن يكون صراع غيرهم لهم في حالة وجوده (مع أنه غير مطلوب) محركاً من محركات الحياة، وحركة دائبة تحرك الأمة نحو الاستعداد للحوار والمناظرة والجدال والمواجهة والإعداد للقتال والمغالبة حتى لا تصل الأمة إلى حالة الاسترخاء والترف الذي يزيل النعم، ويقضي على التقدم[1].

فالإسلام بيّن لهذه الأمة أن ساحات الدنيا المادية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية... ساحات المسابقة والتسابق، والتقدم والتأخر، وأرض المعارك بانتصاراتها وهزائمها، وميادين الصراع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل، والحب والكراهية، والصفاء والثأر، والمعروف والمنكر، وأن هذه السنة لن تتوقف إلاّ إذا توقفت الحياة وهي سرّ من أسرار الوجود، والبقاء والاستمرار والتقدم والحضارة والبناء.

وتأكيداً لما سبق وردت آيات كثيرة تدل على ما ذكرناه:

أولاً: فبخصوص الصراع قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ ﴾ (البقرة: 217) فهذه الآية واضحة بأن أعداء الإسلام والمسلمين يظلون مستمرين بكل الإمكانيات المتاحة لهم في قتال المسلمين حتى يردوهم عن دينهم ويخرجوهم عن ملتهم إلى أي دين كان، أو أي ملة كانت، فالمهم لديهم هو إخراجهم عن الإسلام وهذا هو الهدف الأساس، وأما رضاؤهم فلن يتحقق الاّ باتباع المسلمين ملتهم كما قال تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: 120)

ويقول تعالى: ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (الفرقان: 31)

ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: 20)

ويقول تعالى على لسان إبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: 82 - 83)

ثانياً: أمام هذا الصراع الذي لا يمكن إنكاره يحاول الإسلام علاجه من خلال الخطوات الآتية:

1. البحث عن الصفات المشتركة بين المسلمين وغيرهم حتى يقبل بعضهم بعضاً من حيث المبدأ، وحتى يقبلوا الحوار، وهذه الصفات المشتركة هي:

---

(1) عمر عبيد حسنة: تقديمه لكتاب د. أحمد القديدي السابق الإشارة إليه ص 10، 11

أ ـ مع أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أنهم يشتركون مع المسلمين في مرجع الأديان إلى الله تعالى ثم دعوتهم إلى القضايا المشتركة بيننا وبينهم، وإلى كلمة سواء بيننا وبينهم حيث يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: 64)

ولذلك يجوز التزاوج من نساء أهل الكتاب، فتصبح المرأة اليهودية، أو النصرانية زوجة لمسلم، وإخوانها أخوالاً لأولاده، وأبوها وأمها من المحارم له.

إضافة إلى الاشتراك في الإنسانية والكرامة الممنوحة في الإسلام لابن آدم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: 70)

ب ـ مع غير أهل الكتاب المشاركة في الإنسانية والبحث عن الحقيقة: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سبأ: 24 - 25)

ج ـ السماح لغير المسلمين أن يعيشوا في بلاد الإسلام والمسلمين في ظل الاعتراف بالنظام السياسي لها، وحينئذٍ يدفع القادر فقط شيئاً في مقابل توفير الأمن يسمى بالجزية، وهو ما يسمى في الوقت الحاضر بالضريبة.

2ـ الانطلاق من هذه النظرة والصفات المشتركة إلى التحاور والتفاهم، ثم التعايش، وهذه هي فكرة (الذمة) في الإسلام، أي أن غير المسلمين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية ولهم حقوقهم بالكامل، إذ يسمح لهم بأداء شعائرهم وتربية خنازيرهم وخمورهم (مع أنهما من الخبائث الكبيرة في الإسلام) حتى لا يجوز الاعتداء على خمورهم وخنازيرهم، بل إن الحنفية يرون أنّ مَنْ أتلف شيئاً منهما يجب عليه التعويض إضافة إلى التعزير[1].

3ـ إذا لم يمكن التعايش، مع بذل كل الجهود المتاحة فإن الجهاد في الإسلام له ضوابطه وشروطه، وآدابه وأخلاقياته الراقية التي لم تستطع أمة سوى المسلمين، وبالأخص الرعيل الأول تطبيقها.

4ـ تأصيل سنة التدافع: والمقصود بسنة التدافع أنه يحدث الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، كما يحدث بين الظالم والمظلوم، وبين الظالم

(1) يراجع: بدائع الصنائع ط. مؤسسة التأريخ العربي بيروت (169/6)

والظالم، والطغاة والمستضعفين وبين الطغاة أنفسهم، وبين أهل الجاه والسلطة والقوة بعضهم مع بعض.
فالصراع في نظر الإسلام لا يكون إلاّ بين الحق والباطل أو بين أهل الباطل بعضهم مع بعض، وهو مستمر ما دام هناك باطل يناطح الحق.
وأما سنة التدافع فالمقصود بها هو: « أن الله تعالى جرت سننه أن يهلك أهل الباطل بأهل الحق، أو بأهل الباطل، أو ينصر الحق برجل فاسق[1]، ولذلك يرى بعض العلماء أن من سننه أن لا يترك العالم لظالم واحدا (شخص مستبد دكتاتور، أو دولة» يتحكم في مصيره لفترة طويلة، فإما أن يدفعه بظالم آخر، أو بأهل الحق، والعدل.
فسنة التدافع ما هي إلاّ من مظاهر رحمة الله تعالى ومن المعادلات التي يتحقق بها العدل الإلهي، ويتخصص الحق، ويدفع الفساد والباطل فقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 251)
فهذه الآية الكريمة تدلّ على أن حكمة الله تعالى العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات هي الحفاظ على صلاح الأرض، وعدم الفساد فيها، وإفسادها، وبذلك ينكشف للإنسان السرّ في هذه الساحات المترامية الأطراف تموج بالناس، وهم في تدافع وتسابق وزحام في الغايات، وذلك هو أن (من ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة التي تمسك بالخيوط جميعاً، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف)[2].

---

(1) روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل ممن يدعي الإسلام (هذا من أهل النار) فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة) فحكى للرسول قصة قتال الرجل وأنه مات فقال صلى الله عليه وسلم: إلى النار، قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: أنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي بذلك، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله، ثم أمر بلالاً، فنادى في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلاّ نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر). انظر: صحيح البخاري ـ مع تفح الباري ـ كتاب الجهاد، باب: أن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر (179/6) الحديث 3062، ومسلم، كتاب الإيمان (105/1) وأحمد (309/2، 45/5)
(2) في ظلال القرآن ط. دار الشروق ط 13 / 1407هـ (270/1)

فالحياة بدون هذا التدافع تأسن وتتعفن، وبدون التزاحم، والتغالب والتنافس والحركات المختلفة لا تنطلق الطاقات، بل يصيبها الخمول والكسل، ولم تستجش المكنونات المذخورة، ولم تتطور الحياة.
يقول الإمام الرازي: « لا تتم مصلحة الإنسان الواحد إلاّ عند اجتماع جمع في موضع واحد، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، ثم إن الاجتماع يسبب المنازعة المفضية إلى المخاصمة أولاً، والمقاتلة ثانياً، فلا بدّ في الحكمة الإلهية من وضع شريعة بين الخلق...»
ثم ذكر أن هؤلاء الذين يدفع بهم الظلمة والطغاة إما أهل الحق، وإما غيرهم، كما ذكر أن التدافع بهذا المعنى لا يقع بين أهل الحق[1].
وقد بيّن الله تعالى حكماً أخرى من هذا الدفع حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: 40)
حيث دل على أنه بهذا الدفع تحمى الشرائع وأهل الحق، وأماكن العبادة.
ومن خلال هاتين الآيتين تبيّن لنا أن سنة التدافع لها فوائد عظيمة، وحكم كثيرة من أهمها:
الأولى: دفع الفساد في الأرض والإبقاء على صلاحها وإصلاحها.
الثانية: تقرير حرية العقيدة والعبادة، وحرية الاختيار الفكري، حيث بينت الآية الثانية بأن هذا الدفع للحفاظ على معابد أهل الأديان، وأن الله تعالى أذن للمسلمين بالجهاد للحفاظ على حرية العقيدة والأديان ببقاء المعابد، وفي ذلك دلالة واضحة على أن هذا الدين يحمي حرية الأديان والمعابد.
الثالثة: حض المؤمنين على الحركة الدائمة واليقظة الدائبة وقيادة دفة الحياة نحو النهضة والتقدم والتطوير بعدل وإنصاف، ولتحقيق الحضارة والعمران في ظل الإيمان والعلم والصلاح، لأن أهل الباطل جاهزون دائماً ومستعدون للسيطرة والهيمنة كلما سنحت لهم الفرصة، وأنهم قادرون على تهيئة التبريرات، واتهام أهل الحق والعدل بالفساد والضلال، كما قال الملأ من قوم فرعون له: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (الأعراف: 127)

(1) التفسير الكبير ط. دار إحياء التراث العربي (6/190 ـ 191)

الرابعة: أن هذا التدافع لا يأتي لصالح المسلمين إذا لم يبذلوا كل ما في وسعهم لتحقيق النصر، ولم يتزودوا بأسباب النصر، حيث جاءت الآية الأولى (من سورة البقرة) قصة طالوت مع جالوت (الآيات 243 ـ 251) حيث يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 243 – 251)

فهذه القصة تضمنت أسباب انتصار هذه الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وهي:

1. الإيمان الحقيقي المؤثر الذي يجعل الإنسان عبداً لله تعالى في جميع الأحوال.
2. الجهاد في سبيل الله لتحقيق الحق والعدل ورفع الظلم.
3. الإعداد الشامل الكامل حسب كل طاقاتهم
4. اختيار القيادة الحكيمة المتسمة بالقوة المادية والجسمية والعلمية.
5. السمع والطاعة، والصبر على الشهوات والابتلاءات.
6. أن الجماهير تكون في البداية متحمسة ولكن لا يعتمد إلاّ على الفئة المتربية الصابرة، ففي البداية تحمس للقتال الجميع ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: 246) ثم برّروا تحمسهم بقولهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ ﴾ (البقرة: 246)
7. ولكن بعد ما فرض الله القتال، وأصبح الأمر جداً ﴿ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ ﴾ (البقرة: 246) ثم بعد ذلك في امتحان طالوت لهذه الفئة القليلة بعدم الشرب من الماء وفشل منهم عدد آخر حيث قال تعالى ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: 249)
8. على أن المهم هو تربية الرجال.
9. الثقة بالله تعالى وبالنصر والتضحية في سبيله بالمال والنفس: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (البقرة: 249)

وأما الآية الثانية (في سورة الحج) فتأتي بعدما تحدث القرآن الكريم عما أصاب الرسول ﷺ وصحبه الكرام من الأذى، وما استعدوا له للجهاد في سبيل الله استعداداً

شاملاً للجانب المعنوي والمادي، وما قدموا من تضحيات جسام في الأموال والأنفس، والإخراج من ديارهم، والصبر على كل ما أصابهم في سبيل التوحيد وتمكين الإسلام.

الخامسة: أن من استحقاقات سنة التدافع على المسلمين التسابق نحو الأفضل، والتسارع نحو الأحسن في كل شيء، وهذا ما أمر به القرآن الكريم، حيث وردت فيه آيات كثيرة تأمرنا بالتسابق، والتسارع إلى ما هو الأفضل والأحسن والأخْير كما قال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (الحديد: 21)

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الواقعة: 10)

أي السابقون إلى كل عمل صالح نافع، وإلى كل عمل أحسن وأفضل للدنيا والآخرة، كما وصف أهل الجنة الفائزين بأنهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (المؤمنون: 61)

فلتتأمل في التعبير بالمسارعة، ثم الوصف بأنهم سابقون للخيرات، أي أنهم من شدة حرصهم على العمل الأفضل الأخير كأنهم يسبقونه، وأن الخير يتبعهم.

الدفع بالتي هي أحسن:

أما الدفع بالتي هي أحسن فهي سنة أخرى من سنن الله تعالى لتحقيق التقدم، وإبقاء الأصلح الأتقى، ولمزيد من الخير والنفع للبلاد والعباد، حيث أمر الله تعالى بذلك في آيتين أيضاً، إحداهما قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (المؤمنون: 96)

حيث الخطاب للرسول ﷺ: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (المؤمنون: 93 - 96)

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فصلت: 34 - 35)

فهاتان الآيتان الكريمتان واضحتان في أن الله تعالى أمر رسوله في ان يدفع السيئة بالأحسن، وأن لا يقابل السيئة بمثلها، وهذا الخطاب هو خطاب كذلك لأمته، حيث يفهم منهما الأحكام والحكم الآتية:

1. وجوب الدفع بالتي هي أحسن، لأن هذا الدين هو دين الرحمة والخير، والخلق العظيم، ولذلك يستبعد الحرب مادام ذلك ممكناً، فالحرب هي بمثابة الكيّ في العلاج الذي يأتي بعد فشل كل الأدوية (فآخر الدواء الكيّ) ولذلك يمنّ الله تعالى على المؤمنين

بأنه كفّ عنهم القتال فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الفتح: 24)
فهذه الآية واضحة في أن تحقيق النصر أو تحقيق الفرض دون القتال من أعظم النعم، وأن عدم القتال حتى مع ضمان الظفر أيضاً من نعم الله العظيمة، لأن الله تعالى منّ عليهم بأنه كفّ أيدي المؤمنين عن الكافرين بعد الظفر، ولذلك يفهم من هذه الآية أن قتل الكافر حتى في الحرب ليس هدفاً، وبالتالي فلا ينبغي للمسلم أن يكون حريصاً على القتل حتى للحربي، بل يجب أن يكون حريصاً على تحقيق الهدف المنشود، وان ضمان النصر مع عدم القتال من أعظم النعم، وقد أكد هذا المعنى في سورة المائدة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المائدة: 11)

وفي هذا السياق (أي سياق الدفع بالتي هي أحسن) صلح حديبية الذي حرص عليه النبي ﷺ مع تعسف قريش في الشروط المجحفة بحق المسلمين، وعدم المساواة بين طرفي العقد في الحقوق، وما صاحب توقيع الاتفاق من إصرار موفد قريش سهيل بن عمرو على عدم البدء بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ومسح كلمة (رسول الله) حتى إن علياً اعتذر عن هذا، فأخذ الرسول الكتاب ومسحها بيده الشريفة، وكان أكثر الشروط صعوبة على المسلمين أنه إذا ارتد مسلم فلا ترده قريش، ولكن إذا أسلم قرشي ولحق بدار الإسلام فلا بدّ أن يردوه إليهم، وزاد الطين بلة أنه أثناء التوقيع دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: « هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ»، فقال النبي ﷺ: « إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال: « والله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً »، فقال النبي ﷺ: «فأخره لي» فقال: « ما أنا بمجيزه لك...» والمهم أنه أعاد أبا جندل إلى مكة[1].

ومع كل ذلك تم الصلح الذي سماه القرآن الكريم بالفتح، حيث نزلت سورة الفتح في طريق العودة إلى المدينة التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ (الفتح: 1) حتى قال الرسول ﷺ: «أنزلت علي الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت

(1) يراجع في تفصيل ذلك كتب السيرة، وصحيح البخاري مع فتح الباري الحديث رقم 2731، 2732 وحديث 2698، 2699 ومسند أحمد (325/4) ود. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ص 434 ـ 448

عليه الشمس»[1] ثم قرأها عليهم بكراع الغميم فقال رجل: « يا رسول الله: أفتح هو؟» قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه الفتح»[2].

وقد أكد التأريخ والواقع أن هذا الصلح ـ على الرغمِ من شروطه المجحفة في الظاهر، وعدم رضا بعض كبار الصحابة عنه حتى قال عمر: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً ـ كان أعظم فتح ونصر للمسلمين، وكان بحق (فتحاً مبيناً) حيث كان فيه اعتراف قريش بكيان المسلمين، وفتح أبواب القبائل أمام الدعوة الإسلامية والتحالفات، حيث جاء الرسول ﷺ إلى حديبية في العام السادس ومعه ألف وأربعمائة رجل، ثم بعد سنتين فقط جاء لفتح مكة ومعه عشرة آلاف مع السرية التامة، يقول الإمام الزهري في وصف صلح حديبية: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمّن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلاّ دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك»[3] وعقب ابن هشام على ذلك فقال: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[4].

ومن جانب آخر فإن القتال والاستشهاد لو كان مطلوباً لذاته فحسب فإن تعسف قريش بمنع الرسول ﷺ وصحبه الكرام وهم مُحْرِمُون، وصدهم لبيت الله الحرام، وفرضهم الشروط المجحفة كان أحسن فرصة لمشروع استشهادي يستشهد فيه من يستشهد فينال الأجر من الله تعالى، ولكن الرسول صلى الله عليم وسلم أراد أن يحقق ما يريده الله تعالى منه، ومن صحبه، وهو صناعة الحياة الإسلامية، وهداية الناس وتعمير الأرض وتحقيق أغراض الخلافة في الأرض والاستخلاف، وليس صناعة الموت مهما كانت الأغراض نبيلة ما دامت لا تحقق الغرض المنشود من نشر الدعوة، وتمكين الإسلام، وعمارة الأرض وتحقيق مهمة الخلافة والاستخلاف.

2. أن الواجب هو العمل بالأحسن، والاندفاع نحو الأحسن في كل شيء ففي الحوار لا بدّ أن يكون بالأحسن، وفي الجدال كذلك يكون الجدال بالتي هي أحسن، وفي التعامل

---

(1) صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ الحديث رقم 4177

(2) سنن أبي داود ـ مع معالم السنن ـ كتاب الجهاد ـ الحديث رقم 2736، ومسند أحمد (420/3) والمستدرك (456/2) وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي

(3) سيرة ابن هشام (322/3) ود.أكرم العمري: المرجع السابق ص 457

(4) المصادر السابقة نفسها

يجب أن يكون الأحسن، وفي البناء والتعمير وخدمة الإنسان والمجتمع ينبغي أن يكون بالأحسن، وفي العلوم والفنون يكون الأخذ بالأحسن.

والأحسن هو الأفضل الأصلح الممتاز الأقوى، وهو أقصى ما يمكن الوصول إليه، بحيث لا يكون في الإمكان أحسن مما كان في جميع مجالات الحياة فكراً، وتصوراً، وعملاً وسلوكاً ونشاطاً في الدنيا والآخرة، وليس في إحداهما فقط، فديننا هو دين سعادة وحسنة الدنيا والآخرة.

ومن جانب آخر، فالأحسن هو اسم تفضيل، وأفضل من الحسن، أي من أحسن من الحسنِ، وأفضل من الفضل، وبالتالي فهو أمر نسبي، فالأحسن اليوم قد يصبح غداً حسناً، وقد تنزل رتبته إلى المقبول، بل إلى الرديء، ولذلك على الأمة أن تلاحظ الأحسنية من حيث الزمان والمكان، وأن تكون على حركة الحياة بالأحسن.

وقد أكد القرآن الكريم أهمية اتباع الأحسن والأفضل والأقوى في حياة الأفراد والجماعات والأمم للدفاع والحماية، والنهوض والتقدم، والإبداع، حيث يقول تعالى مبيناً ذلك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك: 2) وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف: 7)

فالابتلاء في الدنيا لأجل الوصول إلى الأحسن، وليس الحسن، وبمعنى آخر، أن تسابق الأمم وتدافع الحضارات لا يتم بالعمل الحسن فقط، وإنما يتم بالأحسن، كما وصف الله تعالى عباده المؤمنين المبشرين بالخير والجنة بأنهم يستعملون عقولهم عند السماع فلا يتبعون إلاّ الأحسن فقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر: 17 – 18)

وأمرهم بذلك فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر: 55)

وأمرهم بالأحسن في كل شيء فقال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة: 195) كذلك بأن يقولوا الأحسن فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء: 53)

كما أمرهم بأن يكون جدالهم كذلك بالأحسن ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: 125).

وإذا تتبعنا الآيات الكثيرة في هذا المجال وجدنا أن الله تعالى يريد من عباده أن يسيروا على منح (الأحسن) في كل شيء: في القول والفعل والتعامل والسلوك، والعلوم والإبداع، كما بين الله تعالى أن الله تعالى هو أحسن الخالقين، وأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم،

وانه أحسن كل شيء خلقه، وأنه أحسن صوركم، وأن شريعته هي أحسن الشرائع، وأن دينه أحسن الأديان، وأنه كذلك يجزي عباده المحسنين بأحسن ما كانوا يعملون، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً وأنه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ ﴾ (يونس: 26) وأن الله تعالى يعطي هذا الأجر العظيم للمحسنين في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ ﴾ (النحل: 30).
كل ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية السبق والتقدم والتطلع نحو الأفضل، والعمل بالأحسن في التعامل مع المسلمين، ومع غيرهم، في حالة السلم وفي حالة الحرب، بل في التعامل مع الكون واستخراج ما فيه من كنوز.
والعالم الغربي اليوم يتقدم في الجوانب العلمية والتقنية، لأنه يتجه دائماً نحو الوصول إلى الأحسن، ويعمل السيناريوهات المحتملة لكل شيء ليختار منها ما هو الأحسن له.
3. أن نتائج الدفع بالتي أحسن محققة ـ بإذن الله ـ في مجال الدعوة والتأثير، ونشر الإسلام حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت: 34)
حيث عبّر بلفظ (إذا) الذي هو للفجائية والفورية، وبالجملة الاسمية التي هي للثبوت والدوام مما يدل على أن النتائج مضمونة بإذن الله، حيث ينقلب الصياح إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والإثارة والغضب إلى كلمة طيبة ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب مفلوت الزمام، أو جاهل[1]، ولو قوبلت السيئة بمثلها لازداد الأمر سوءاً وتبجحاً وأخذت المقابل العزة بالإثم، وانتهى الأمر إلى المعركة والقتال.
4. أن هذا المنهج (الدفع بالتي هي أحسن عند الصراع، والعمل بالأحسن في جميع الأحوال) عمل صعب وشاق لا يقدر على تنفيذه إلاّ الذين تربوا تربية صحيحة على الصبر والالتزام والهدوء والاستهداف حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فصلت: 35)
فهذه السماحة تحتاج إلى تربية تجعل الإنسان عبداً لله، وليس لأهوائه، قادراً على كظم غيظه، وعلى العفو والإحسان للوصول إلى الهدف المنشود وهو نشر الإسلام، ومصلحة الإسلام، كما أنه بحاجة إلى قلب كبير يعطف ويسمح مع أنه قادر على الرد بالمثل كما أنه بحاجة إلى الموازنة بين سماحة يسمح بها الإسلام وبين ذل يرفضه الإيمان، ويكون الحكم فيها مصلحة الإسلام وأوامره ونواهيه وقيمه، وليس المصالح الشخصية،

---

(1) في ظلال القرآن (3122/2)

أو النزعات النفسية، أو العواطف التي هي عواصف، ولذلك جاءت الآية التالية:
﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف: 200)

مما يدل على أنه طريق شاق، طريق السير في مآرب النفوس ودروبها وأشواكها وشعابها حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ونقطة القياد[1].

وفي رأيي أن هذا الدفع بالتي هي أحسن ليس خاصاً بمواجهة فرد أمام غضب آخر، وإنما هو عام لجميع حالات المواجهة والصراع حيث يجب الدفع بالتي هي أحسن للوصل إلى ما هو الأحسن، وأن هذا الدفع بهذا الشكل ليس سهلاً فلا يناله إلا ذو حظ عظيم.

هذا ما أردنا بيانه، فإن كان حقا وخيرا فهو من فضل الله تعالى وإلا فأطلب منه العفو والمغفرة، بل أسأله القبول والأجر الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(1) في ظلال القرآن (3122/2)

فهرس المحتويات

المحور الأول
قوة الذات طريقا إلى الآخر

المحور الثاني
الأسس الفكرية والعقدية لقبول الآخر

المحور الثالث
علاقة المسلمين بغيرهم في حال السلم

المحور الرابع

علاقة المسلمين بغيرهم حال الحرب

المحور الخامس

علاقة المسلمين الأقلية بالدولة غير الإسلامية التي يعيشون فيها

المحور السادس

نحن والغرب: صراع أم حوار؟ تصادم أم تعايش؟